قصة نفس

تأليف

الدكتور زكي نجيب محمود
أستاذ الفلسفة الحديثة بجامعة القاهرة

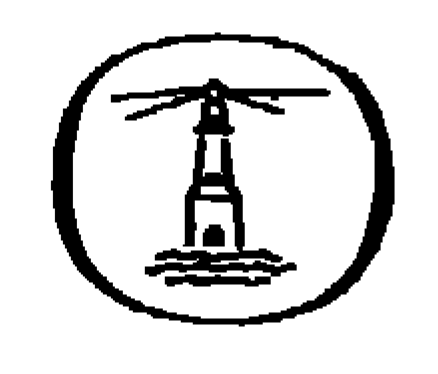


دار المعارف لبنان ش.م.ل.

قصة نفس

تأليف

الدكتور زكي نجيب محمود
أستاذ الفلسفة الحديثة بجامعة القاهرة



دار المعارف لبنان ش.م.ل.

الفصل الاول

احدب النفس

١

« الحياة عبئها ثقيل على من أصابه في الحياة خذلان » . هكذا قال لي ذلك الرجل العجيب، الذي رأيته أول ما رأيته في زحمة الطريق عابساً ، يلتمس لنفسه مسلكا بين مئات الناس الذين خرجوا لتوهم أفواجاً من دار السينما ، دون ان يمس احداً منهم بمنكب أو قدم ؛ يتأرجح في مشيته بعض الشيء ، ولا يدق الارض بعقبيه ؛ نظراته تنحدر نحو الأرض أكثر مما تلتفت إلى اعلى أو أمام ، كأنما أراد ان يتثبت قبل الخطو من موضع القدم ؛ تبدو على خطواته السرعة وما هي بسريعة، وتشع من جبهته ومن فمه جهامة تصرف الناظر الى وجهه عن رؤية ملامحه عند النظرة الاولى ، حتى اذا ما ثبّت الناظر فيه عينيه ، وأزال غلالة الجهامة عن صورته ، رأى ملامح ثابتة غليظة : حاجبان قويـــان عريضان أسودان ، وأنف طويل مليء ، وشفتان مزمومتان ، ولحية وشارب كثيفان ، شعرهما سميك غليظ اختلط أسوده بأبيضه : ملامح تدل كلها على المضاء والحدة والبأس الشديد ،

لولا أن عينيه تفضحانه فضيحة كبرى ، إذ تنطقان بأجلى بيان أن الرجل هادىء وادع مستسلم مستكين .

رأيته يمضي في مزدحم الطريق ، وقد حمل على ظهره ما خيّل إلي أنه ربطة كبيرة بيضاء ، شبكها برباط تحت إبطيه لتظل حركة الذراعين حرة ، فيطوحها حينا ، ويضع إحداهما في جيب سرواله حيناً ؛ إنه رجل عجيب يستوقف النظر بين جمع الناس الذي ملأ الطريق ، يبدو من دونهم جادا مهموماً صامتاً ، كأنه ينطوي على شيء ... ثم ما هذا الحمل الذي حمله فوق كتفيه ؟

تعقبته مستطلعاً ، فرأيته يخلص من قلب المدينة الى طرف من أطرافها بعيد ؛ وهنالك في مكان تغلب عليه الظلمة الا من شعاع خافت جاءه من مصباح الطريق خلال أوراق الشجر ، جلس على جدار لم يتم بناؤه ؛ جلس والحمل على كتفيه ، يتململ ويتأرّق ، ويرتكز على ذراعه اليمنى مرة وعلى ذراعه اليسرى مرة ، والحمل ما زال قائماً على كتفيه ، فسعلت سعلة خفيفة لأشعره بوجودي على مقربة منه حتى لا يفزع إذا ما دنوت منه ؛ ذلك أني خطوت اليه وحييته :

قلت : هذا مكان هادىء يوحي بالتأمل

قال ، وقد هزته المفاجأة : نعم ، تشعر بهدوئه إذا أويت إليه من قلب المدينة الصاخب .

قلت : اني لأعجب أن أراك هاهنا ، فما كنت أحسب أحداً سواي يفكر في هذا الركن الهادىء البعيد .

قال : بل العجب عجبي أن أراك ؛ فأنا أقضي في هذا الركن المعزول أكثر ساعات المساء ، فما رأيتك قبل اليوم وما رأيت أحداً سواك ؛ إنني آوي إلى هذا المكان لأستريح .

قلت : لكنك فيما أرى لا تريد لنفسك الراحة ، فحملـــك ما يزال فوق كتفيك .

قال : ما يزال؟! وهل عرفت أنه من الأحمال التي لا تلقى عن الكتفين إلا اذا فاضت الروح ؟ أنا قائم به وقاعد به ونائم به ومستيقظ به .

قلت : وماذا عسى هذا العبء الثقيل أن يكون ؟

قال : إنه عبء الحياة ؛ أما ترى ؟ هو عبء الحياة وقد انقض والله كتفيّ ؛ إنه ثقيل على من أصابه في الحياة خذلان .

قلت : إذن فهو حمل نفيس .

قال : ليست نفاسة الحمل بمانعة من أن يكون ثقيلاً ؛ فالحمار الذي ينوء تحت أثقاله لا يعبأ أن تكون أثقاله تلك من ذهب أو من حطب .

قلت : ولكنك تستطيع أن تلقيه عن كاهلك إذا أردت .

قال : كيف أستطيع ؟ إنه متصل بالروح مرتبط بالجسد ؛ إن رئتيّ لتعلوان وتهبطان في صدري كأنهما منفاخ الحداد لا يفتر عن النفخ ليظل للنار وهجها واشتعالهـــا ؛ فلا مناص من أن تظل جذوة الحياة مشتعلة بين جنبي ـ رضيتُ أم كرهتُ ـ وقد أتمنى لهذه الجذوة المتأججة اللاذعة المحرقة أن تنطفىء فتصبح رماداً تذروه الأعاصير كيف شاءت على يابس أو ماء.

قلت : وما لرئتيك ولهذا الحمل الذي على كتفيك ؟

قال : العلاقة بينهما وطيدة وثيقة ، فهذا الحمل أطرافه في جوفي ، وهو مشدود هناك إلى أوتاده بما هو ـ في الظاهر ـ أو هي من نسيج العنكبوت ، ذلك انه مشدود إليها بأنفاسي هذه التي ترددها رئتاي شهيقاً وزفيرا ، مشدود إليها بموجات خفيّة خفيفة من هواء ، ولكن الويل لي من هذه الأنفاس الواهية التي تنسجها رئتاي خيوطاً فتشد به هذا الحمل على كتفي لأنوء به ، ووددت لو عرفت أين تكون اطراف هذا المنفاخ الذي ما ينفكّ يعلو في صدري ويهبط كي أمسكه عن النفخ لحظة فتخمد الانفاس وتنحلّ الروابط وينفكّ الوثاق ، وبهذا ينزاح العبء الثقيل عن كاهلي ، ان أطرافه خفية ، أمد البصر في جميع اقطاري فلا أراها ، وأرهف السمع فلا يقع لها على حفيف أو رفيف ، وكل ما أسمعه هو هذه النفخات تتوالى من الشهيق والزفير ما ابيضّ لي نهار او احلولك ليل ، اني لا اذكر الآن من هو الذي قيل عنه انـــه ضاق صدراً بأنفاسه التي تتردد برغم أنفه ، ثم كره أن تشعل له جذوة الحياة بهذا المنفاخ اللعين وهو راغم ،فكتم أنفاسه حتى مات ، لا أذكر اسمه الآن ،لكني أكبره وأحبّيه ، وأشعر إزاءه بالضآلة والصغر ، لأنه رأي الرأي ففعل ، وأما أنا فأرى ثم لا أفعل شيئاً .

قلت : ما هذا الذي تراه ولا تفعله ؟

قال : أرى الحكمة في التخفف من هــذا العبء الثقيل ، ثم لا أفعل

شيئاً في سبيل الخلاص منه ، الحقّ اني لا أدري كيف يظل الانسان مشدوداً إلى ما ليس يرضيه ، ثم يظل مشدوداً إليـه برغم أنفه ، وهو عالم كل العلم أن الروابط التي تشده لا تزيد على نفخات من هواء ، لو سدّ عليهـــا الطريق لحظة واحدة لانتهى كل شيء .

قلت : كلا ياصاحبي، فالروابط التي تشدك إلى حملك هذا أقوى من هذه الأنفاس ؛ فليست هي بنفخات من هواء كما ظننت ، إنما هي الشعور بالواجب ، واجب الحياة ، نعم إنك تستطيع في أية لحظة شئت أن تتنكر لواجب الحياة لتظفر براحة الجسد راحة أبدية ، لكنه الجحيم بعينيه أن تبث في نفسك القلق حين تتخلى عن واجب وجب عليك أداؤه بحكم وجودك .

قال : الواجب كريه أيا من كان فارضه وأيا من كان مفروضاً عليه؛ لقد حكمت الآلهة على «أطلس» ــ في الأسطورة اليونانية ــ بأن يحمل السماء على كتفيه حتى لا ينقضّ بناؤها؛ والسماء هي السماء بأنجمها الزواهر اللوامع؛ فهل رأيت واجباً أسمى وأمجد من أن تُكلّفَ حمل السماء على كتفيك ؟ وحملها « أطلس» ثم ناء بحملها، حتى إذا ما جاءه «هرقل» يسأله عن مخبأ التفاحات الذهبية التي كُلِّف بالبحث عنها في أركان الكون وبين جنباته ، والتي قيـل له عنها إن مخبأها ذاك لا يعرفـــه إلا « أطلس » حامل السماء ، أقول انه ما جاء « هرقل » إلى « أطلس » يسأله أين عساه أن يجد بغيته ، حتى وثب « أطلس » إلى هذه الفرصة السانحة ،

ليتخلص من عبئه الذي أنقض ظهره ، وقال لهرقل : لستَ بمستطيع أن تجدها بنفسك لأن منالها عسير ؛ فاحمل عني هذه السماء لحظة حتى أعود إليك بها ؛ ورضي « هرقل » مسروراً بحمل السماء حتى يحقق له « أطلس » بغيته التي لقي العناء في سبيل تحقيقهـــا ، وانطلق « أطلس » إلى حيث التفاحات الذهبية ، ورآها هناك تلمع في بريق الشمس يحرسهـــا أفعوان جبار ، فتسلل وغافـــل الأفعوان وهو في غفوة ، وخطف التفاحات ، وعاد مسرعاً إلى حيث ترك « هرقل » في انتظاره يحمل السماء بدلاً منه .

لكن « أطلس » حين اقترب من موضع « هرقل » تذكر بشاعة الحمل الذي حمله على كتفيه هذه القرون الطوال : تُرى هل يفي بوعده ويعطي « هرقل » تفاحاته الذهبية ثم يعود هو إلى حيث كان تحت عبئه الباهظ ؟ أو ينعم بهذه الحرية التي أتاحتها له الظروف فيتخلص من عبئه ذاك إلى الأبد ؟ .

لا ؛ إنه لن يعود إلى حمله ذاك ، وسيحتفظ بحريته التي ظفر بها بمصادفة قدلا تعود؛ هكذا اعتزم « أطلس » ودنا من « هرقل » وقال له : ابق حيث أنت حاملاً السماء على كتفيك ، وسآخذ أنا هـــذه التفاحات الذهبية إلى حيث أردتَ أنت أخذها ؛ فتظاهر « هرقل » بالقبول والرضى ؛ أليست هي السماء بأنجمها اللوامع الزواهر ؟ اذن فليحملها راضياً على كتفيه ، لكنه طلب من « أطلس » أن يتفضل عليه بصنيع واحد صغير ، وهو أن

يحمل الحمل لحظه قصيرة ، حتى يضع الوسائد على كتفيه ، لأن ضغط الحمل شديد على كاهله ؛ فأخذت الشهامة من « أطلس » مأخذها ، وفعل ما طلب إليه « هرقل » فعله ، وكيف يتردد في قبول العناء لحظة أخرى قصيرة ، لقاء حرية يظفر بهامن هذا العبء الثقيل إلى الابد ؟

ألقى « أطلس » بالتفاحات على الأرض ، وحمل السماء عن « هرقل » حتى يضع « هرقل » على كتفيه الوسائد والحشايا التي تهوّن عليه أداء هذا الواجب الجديد الذي ألقى عليه ؛ لكن « هرقل » لم يكد يزيح عن كاهله حمل السماء ، حتى أخـــذ التفاحات ومضى ، تاركاً أطلس في مكانه القديم ، يشقى بأداء واجبه الذي فرض عليه بحكم وجوده .

قلت : ماذا تعني ؟

قال : أعني مـــا قلتـُه ؛ إن عبء الحياة ثقيل ، مهما تكن صورته ، ولا يشدنا إليه إو يشده إلينا إلا هذه الأنفاس نتنفسها ، ولو كتمها حامل العبء لاستراح من أداء هذا الواجب الثقيل . .

قلت : يا صاحبي إن الحياة التي تؤرق صاحبها هي الحياة المريضة؛فأنت لا تشعر بوجود أي جزء من أجزاء جسمك إلا اذا اعتلّ ؛ إنك لا تشعر بوجود عينيك أو أذنيك أو معدتك أو قلبك إلا إذا أصابتها او أصابته العلّة ؛ أما إذا كانت هذه الأجزاء سليمة فلن تشعر بمجرد وجودها ، فضلا عن أن تحسّ الألم من حملها .

إن حياتك ـ فيما أرى ـ قد مرضت فأحسستَ بوجودها ثم

بحملها وثقلها ، كأنما هي زائدة أضيفت إليك وليست منك ولا أنت منها ، ولستُ أعجب الآن أن أرى حياتك المريضة هذه قد برزت فوق ظهرك قتباً كبيراً .

قال : قل مـــا شئت فيهـا ، فهي حياتي الـــتي لا أملك سواها ، وقد ضقتُ ذرعاً بثقلها .

٢

شغلني « أحدب النفس » طول الليل ـ ذلك الرجل العجيب المكتئب العابس ، الذي يحمل عبء حياته قتباً بارزاً على ظهره ـ شغلني طول الليل، يملأ أحلامي إذا غفوت ، وتمثَّلُ صورته أمام عيني إذا صحوت ، وما زلت طول ليلي بين غفوة وصحو حتى كان الصباح.

ترى لماذا يحمل هذا المسكين حياتـــه كالدُّمَّل الكبير فوق ظهره ؟ أيكون ذلك لأنه ركَّز انتباهه فيها فوضحت له علَّتها وبرز أمام عينيه سُخْفُها ؟ ولو قد تغافل عنهـــا كما يفعل سائر الناس لسَرَتْ في دمه ، وخفيت عن بصره ؟ يجوز ... كما تكرر لفظـــة وتركزّ سمعك في جرسها ، فسرعان ما تنفر من صوتها المنكر ، بعد أن لم تكن قد فطنت لنُكْره حين استخدمتها غير آبه لها ولا ملتفت إليها ؛ خذ كلمة امبراطور وكررهـــا عـــدة مرات : امبراطور ، امبراطور ، امبراطورمبرا ،طورمبرا ، طورمبراطور ..صوت عجيب منكر ، ظهر نُكرُه وشذوذه حين ألقينا اليها السمع ، وكان يمكن ألا نقف عنده هذه الوقفة الفاحصة ، فيظل له في النفس هيبة وجلال .

كذلك صاحبنا « أحدب النفس » ربما كان الفرق بينه وبين سائر الناس أنه قد أنعم النظر في معنى حياته ، فانتهى به النظر إلى

أنها أنفاس فاترة واهية من هواء فاسد ، لا شيء أكثر من ذلك ؛ وهو لهذا يعجب كيف يجوز أن يُشَدّ وثاقه الى الأرض بخيوط واهيـــة كهذه على كره منه ؟

وأحسست برغبة قوية في نفسي أن ألقى هذا الرجل لقاء آخر ، فقصدت في المساء الى المكان المهجور الهادىء الذي لقيته فيه أول مرة ، ووقفت طويلا أرقب من بعيد ، حتى رأيته يسري في غير صوت بين الظلال كأنه الشبح ، انك لا تخطئه من بعيد ، فالحمل الذي على كتفيه يميزه ، وله مشية خاصة يتأرجح فيها الجذع وتلتف الساقان .

وقفت في مكاني حتى رأيته يستقر في موضعه من الجدار الذي لم يتم بناؤه ، صعد على كومة وطيئة من هشيم الصخر ، ومسح جبهته بمنديل ، ومال مرتكزاً على ذراعه اليسرى ، فدنوت منه .

قلت : السماء الليلة أكثر غماماً ، والدنيا أشد ظلاماً من ليلة الامس ؛ برغم وجود القمر .

قال : ــ ولم يرتح لرؤيتي ــ وماذا يصنع القمر في الدنيـا اذا اسودّت بظلامها وغمامها ؟ ان من أراد الضوء فضيّاً رائعاً خالصاً من شوائب الظلمة ، فليرتفع عن الأرض وغلافها حتى يجعل الغمام من دونه ، وعندئذ لا يكون ظلام ، لكن الإنسان مشدود الى الأرض بأحمال وأثقال ؛ لا ، بل إنه لمشدود إليهـا بهذه الخيوط الواهية ؛ مشدود إليها بنفخات من هواء ، وإذن فلا رجاء له في ضوء أكثر مما قد يتسرب إليـه خلال فتحات السحاب .

العجيب في هذه الدنيا أنها بيع وشراء ، فلا بد أن تدفع لكل شيء ثمنه ! أتريد أن تمتد بك الحياة ؟ اذن فخذ من حولك هَبّةً من الهواء شريطة أن تردّ مكانها هَبّة مثلها ، أتريد أن تخلص من ظلام الأرض ليصفو لك الضوء ؟ إذن فاصعد إلي قمة هذا الجبل العالي حتى تجاوز السحاب ، عندئذ تجد الضوء وقد صفا من الشوائب ، لكنك ستجد كذلك برودة الثلج .

قلت : وماذا يشقيك من غمام السماء وظلمة الليل ؟ انظر إلى الدنيا بعين الفنان تر السماء الغائمة في مثل جمال السماء المقمرة ، أليس ظلام الليل أحياناً أشد فتنة من ضوء النهار ؟ سل العاشقين يجيبوك أيها أفعل في نفوسهم سحراً ، الليل الوسنان في ستره ، أم النهار اليقظان في نشاطه وصحوه ؟ سل العابدين متى تصفو لهم قلوبهم للعبادة؟ سل المفكرين متى تهدأ لهم عقولهم للتأمل؟ سل المُجّان متى يطيب المجون ؟ سل المتآمرين لماذا يدبّرون الأمر بينهم بلَيْل ؟ .. فلماذا لا تلتمس يا أخي في كل شيء وجهه الجميل ؟ ان الذي ينقصك هو الخيال .

قال : الخيال الذي أهرب به من الواقع ؟

قلت : ليكن ذلك ، ولماذا تستعبد نفسك للواقع اذا أمكن العيش الهانىء في جو من الخيال ؟ أتدري ماذا تكون المرأة الجميلة في « الواقع » ؟ إنها تكون كيساً من الجلد محشوا بالقذر والبلغم ومختلف السوائل والغضاريف ! أتدري ماذا تكون الصورة الجميلة في « الواقع» ؟إنها تكون خرقة من قماش صُبّ عليها

خليط من الأحمر والأصفر والأخضر أوما شاء الله من صباغ ، واهصُرْ الوردة الجميلة بين أصابعك لترى ماذا عساها في « الواقع » أن تكون ؟ .. ان الذي ينقصك – كما قلت – هو الخيال ، الخيال الذي يجعل لك من المرأة شيئاً جميلاً ، ومن الصورة شيئاً جميلاً ، ومن الوردة شيئاً جميلاً ، ومن غمام السماء شيئاً جميلاً ، ومن ظلمة الليل شيئاً جميلاً ! لماذ تنظر الى الأرض كما تفعل الديدان ، ولا تشخص ببصرك الى السماء كما تصنع الآلهة ؟

لست أدري لماذا أخذني الاهتمام بهذا « الأحدب » فامتلأت حرارة وأنا أبادله الحديث ؛ لقد أوحى اليّ عندئذ أن هذا «الأحدب» عليل النفس ، مريض القلب ، كليل الحياة ؛ وأن قوة خفية تقتضيني ان أقوّم فيه ما اعوجّ اذا استطعت الى تقويمه من سبيل ؛ انه عابس ولابد أن يبتسم ، يائس ولا بد أن ينبسط أمامه الأمل ،متشكك ولا بد له أن يؤمن ، أعماه « الواقع » ولا بد له أن يجاوز حدود الواقع بعين الخيال .

لكن « الأحدب » قد ضاق – فيما يظهر – صدراً بحديثي ، وأخذ يعتدل في جلسته مرة ،ويميل على هذه الذراع مرة وعلى تلك مرة ، ويشيح بوجهه عني ، كأنه يريد أن يصرف الأذن عما أقول ، بيد أني لم أعد أنظر الى موقفي منه نظرة التسلية والعبث ، فلا أقل من أن أستطلع بعض سره ، وأستخرج شيئاً من مكنون نفسه ، وسادت فترة قصيرة من سكون ، ونزل عن مكانه من الجدار ، وقال في

صوت فيه تكلف وافتعال :

– أنا مضطر ان أعود وسينقطع بعودتي هذا الحديث الجميل .

قلت : الأرجح أن طريقنا واحد ولو الى حين .

ولعله لم يطب نفساً لهذه الصحبة الثقيلـــة في طريق عودته ، لكنني تجاهلت ما يريده لنفسه من عزلة الطريق ، وسرت الى جانبه ، مررنا بخطوات بطيئة خفيفة ، لكن وقع أقدامنا على حصباء الرمل ومنثور الحجر ، كان له رنين في ذلك الركن الهادىء البعيد .

قلت مستأنفاً الحـــديث : نعم ، ان الذي ينقصك هو الخيـــال ، ينقصك مَثَلٌ أعلى تعمل من أجله فينسيك الهدف مشاقّ الطريق .

قال – وقد ازداد تثاقلاً في خطاه – : أصابني مرض الخيال وعلة المثل الأعلى منذ خمسة وعشرين عاماً ، ولبثت آثار المرض تتراكم ، حتى كان هذا النتوء الذي تراه شائهاً فوق كاهلي ... في ذلك الماضي البعيد قلت لنفسي : دع عنك الواقع وخشونته وغلظته وجلافته ، والتمس لنفسك سُلـَّماً في دنيـــا الخيال تصعد على درجاتـــه الى أجواز السماء ؛ ان صحبة الأصدقاء في لهوهم « واقع » فلا تأبه لها ، والمرأة « واقع » فلا تُلـْق بالك اليها ، والطعام والشراب « واقع » فلا تحفل بطعام أو شراب ، هذا الذي حولك كله « واقع » فاخرج من نطاقـــه ؛ وهناك في صومعة وقعتُ عليها في جوف الجبل ، آثرت العيش في كنف الخيـــال .

ولبثت أعمر الصومعة بخيالي عاما في إثر عام ، وعقداً من السنين بعد عقد من السنين، لم تكن الصومعة خالية في بصري وسمعي، كنت أرى فيها الخيال مجسما حتى لأنسى أنه من خلق أوهامي، أحدثه وأسمع لحديثه ، وأتملقه ويبتسم في وجهي ، وظللت في صومعتي أعبد آلهة خيالي ، لا أشهد نور الشمس ولا أريد ان أشهده ، ولا أرتد الى دنيا الناس والعمران ولا أريد ان أرتد اليها، ولا أستنشق الهواء الطلق النقي ولا أريد ان أستنشقه... كنت على نقيض فاوست :

فقد اتفق الشيطان مع فاوست ان يمهله ردحاً من الزمن ، يعمل فيه فاوست ما يشاء ، شريطة أن يأتيه الشيطان بعد ذلك فيتقاضى أجر إمهاله ، وليس أجره بأقل من روح فاوست ؛ وكان فاوست عند اول اتفاقه مع الشيطان يظن انه الكاسب في هذه الصفقة ، فماذا يهمه من نفسه إذا ما تُرِك له الحبل على الغارب عشرين سنة أو ثلاثين ؟ لكن السنين انقضت ، وصَبْر الشيطان جميل لا ينفذ ، وجاء الشيطان ليستل من فاوست حياته ، وعندئذ فقط أدرك فاوست أنه خسر في اتفاقه مع الشيطان خسراناً مبيناً، إذ كيف يبيع روحه بعشرين عاماً أو ثلاثين ، مهما يكن ما يملأ هذه الاعوام ؟

وأما موقفي من شيطاني فعلى نقيض ذلك ؛ عقدتُ معه اتفاقاً أن أبيعه حياتي ردحاً من الزمن ، على أن يردّها إليَّ بعد ذلك خصبة مليئة قوية ؛ وذهبتُ الى صومعتي تلك ، لا أعرف فيها

الحياة ولا أخالط الأحياء ؛ أعلل النفس طوال السنين بأن حياتي السلبية مردودة إليّ بعد حين ، بعد أن تكون كل حبة فيها قد أنبتت مائة سنبلة،وفي كل سنبلة مائة حبة ، فلما انقضى على غربتي عهد طويل ، طلبت من الشيطان أن يفي بوعده كما وفيت له بعهدي ؛ وفعل ، فاذا ما يعطينيه نفخات من هواء ، هي هذه الانفاس أرددها في صدري ، ثم لا شيء غير ذاك ؛ وضحك مني الشيطان ضحكة قوية حسبتُ الأرض ترتجُّ لها تحت قدمي ؛ وها هنا ابتسمتُ ابتسامة من زالت عنه غشاوة الخيال لأول مرة ، وأبْصَرَ حقيقة الواقع لأول مرة ، وقلت لنفسي : اذن أستريح بعد هذا العناء الطويل ، إن الصومعة التي عَمَرها لى الخيال قد باتت خاوية إلا من أصداء أنفاسي .

لكن مضجعي لم يستقم تحت ظهري حين أردت الراحة ؛ لأن عهد الصومعة كان قد خلّف لي هـذا الورم الأليم الذي تراه بارزاً عند كتفي،إنه ورم نسجته لي الاعوام طبقة فوق طبقة ، كما يفعل مَر الأعوام في جذوع الشجر حين يرتسم عليها حلقة وراء حلقة .

وكنا قد بلغنا العمران ، وأراد « الأحدب » أن ينصرف إلى سبيله ، فقلت له مودعاً ، إن لي معك حديثاً آخر .

٣

حسب صاحبي « الأحدب » حين افترقنا أني أدبرت عنه كما أدبر عني ، لكني تعقبته لأرقبه وهو يلتمس لنفسه الطريق في زحمة الناس التماس الحييّ الذي يخشى أن تلتقي بعينيه عينان، إنه على وعي شديد بنفسه ؛ ان ذراعيه تحيّرانه وتربكانه ، فأين يضعهما ؟ وذلك وحده دليل على حيرة نفسه وارتباكها ، ألا ان الذراعين لتخبرانك بمكنون النفس كما تخبرك العيون والشفاه ، إنه لا يمشي في ضوء المصباح إذا وجـد الظلام ، ولا يقصد الى مزدحم الطريق إذا رأى الفضاء المهجور ، عيناه مصوبتان نحو الارض دائماً ، وقدماه تحفّـان الارض حفـّاً خفيفاً

عبر الطريق في موضع كثر فيه العابرون ، إنه في العابرين بارز واضح ، فهو لايفنى في الزحام ، ولا يذوب في الناس ، إنه فيهم كملعقة من الزيت صُبَّت في قدح من الماء ، تحركها إلى أعلى وأسفل ، وإلى يمين وشمال ، فما تزال شيئاً متميزاً من الماء الذي حولها ، إنه في أمواج الناس على طول الشارع لم يفقد معالمه ؛ أخذ يعلو على تلك الأمواج البشرية حيناً ويهبط حيناً ، أعني انه كان يظهر لي حيناً ويختفي حيناً آخر ، حتى انتهى إلى شارع هادىء متباعد المصابيح

كان ظله مروعا مخيفا ، يقصر ويطول ، ثم يقصر ويطول ؛ هو الآن مطروح أمامه ، وهو الآن الى جانب ، وهو الآن ممدود وراءه يتابعه ويلاحقه ، وهو في كل أوضاعه أبعد ما يكون الظل عن صورة البشر ؛ وما هو إلا أن دخل « الأحدب » دارا ، بخطوات سريعة ،

كأنه الأرنب المذعور يأوى الى جحره ليستكن فيه آمنـا من طراد الصائدين .

فوقفت بغتة ، ثم سرت مسرعا نحو الباب الذي قذف « الأحدب » بنفسه فيه ، لم أر شيئا هناك إلا مصباحا كهربائيا خافت الضوء في الركن الأعلى من بهو السلّم ؛ إنه بناءٌ عالٍ من ستة طوابق أو سبعة ، وحين صَعَّدت بصري في لمحـــة سريعة الى أعلاه ، لم أر إلا نوافـــذ وشرفات ، أكثرها معتم وأقلها مضيء .

من عسى هذا « الأحدب » أن يكون ؟ أينطوي جنباه على سر دفين ، أم أنه لا سرّ في الأمر ، وأن كل ما في جوفه قد برز ورماً على ظهره ؟ لكنه شاذ غريب بغير شك ، إنه يستوقف النظر . بـــل يستوقف الفكر ؛ انه لا يندمج مع الناس في عجينة واحـــدة ، ولا ينطمس مع من حوله في سديم ؛ إنه قطعة منثورة وحدها ، والويل كل الويل ، ثم الخير كل الخير ، من هذه القطع التي تنثرها عجلة الحياة بعيدا عن مركزها وإطارها ، فتظـــل دائرة في فلك وحدها ؛ فمن هؤلاء يكون الثائرون الساخطون ، ومنهم يكون العظماء المصلحون ، ويكون الأنبياء والأولياء ، ويكون المجرمون النوابغ في إجرامهم ، ويكون الفنانون المبدعون في فنهم ؛ فما أقرب الشبه بين هؤلاء جميعاً ، على بعد ما بينهم من تفاوت واختلاف ، كسيل الماء العرم ، هو الذي يصلح الزرع ، وهو الذي يفسده ، على حسبما يحيط به من ظروف .

و « الأحدب » – فيما يظهر لي – قطعة بشرية منثورة وحدها ، تدور في فلك وحدها ، تُرى من ذا يكون وماذا يكون ؟ لقد بتُّ

ليلتي أفكر فيه وأفرض في أمره الفروض ، وعاودني الشعور الخفيّ أن أصلح ما فسد ، فأقيم في هذا المسكين ما التوى ، وأقوّم ما مال واعوجّ ؛ أو قلْ إن حبي لاستطلاع أمره قد غلبني ، فسترتُ نفسي وراء هــذا الشعور الخفي ، وتذرعت بهذا السلاح ، ومضيت عصر اليوم التالي إلى الدار التي دخلها « الأحدب » ليلة الامس ، مضيت لا ألوي على شيء ،وأخذت أسرع الخطو حتى لا يصرفني التردد عن غايتي.

لم أجد عند الباب أحدا ، وتلفتُّ هـا هنا وهـا هنا ، وتحركت خطوتين هنا وخطوتين هناك ، ثم دخلت وصعدت الدّرج مبطئا غاية الإبطاء ، شاخصا ببصري الى أعلى : الأبواب كلهـا مغلقة ؛ صعـدت الدّرج حتى نهايته ؛ ونهايتهُ سطح نظيف ؛ وقفت قليلا وقلبي ينبض نبضا شديدا من الصعود ومن الخوف معا ، الخوف من هـذا البناء المهجور الذي لا يعمره إنس ولا جن ، لكني رأيت الضوء منبعثا من نوافذه ليلة الأمس ، وهممتُ بالنزول ، لولا أني بلفتة غريزية لويتُ عنقي ونظرت الى نافذة مغلقة الزجاج في ركن السطح ؛ إن وجهـا يطل من خلف الزجاج ، إنه هو « الأحدب » .

لم يعد بيني وبين كشف الغطاء الا خطوات خطوتُها نحو غرفـة « الأحدب » ؛ وفتح لي الباب قبل أن أقرعه ... ان روعي ليهدأ قليلا قليلا ؛ إن الخوف لينزاح عني إزاء هذا الوجه الباسم الذي فتح لي الباب ليتقبلني مسرورا مُرَحِّباً ؛ ليس الوجه العابس في الطريـق عابسا هنا ، والصدر الضيق على الجدار الذي لم يتم بناؤه رحيب واسع هنا ؛ ولولا نتوء الورم فوق ظهره لقلت إنه إنسان آخر ؛ لقد استدرّ

وهو في الطريق إشفاقي ، لكنه في داره استثار حي ؛ انه هـا هنا يمـزج في حديثـه الجـد بالفكاهـة ، ويقول النكتة في إثر النكتة ، ويضحك من كل قلبه ؛ الا سبحانك اللهم ، تضع الرجلين – بل تضع جمهورا من الرجال – في إهاب واحد .

ان مشكلة « الهوية » التي تحير الفلاسفة لم تعد تحيرني ؛ فالفلاسفة يصدعون رءوسهم تصديعا في محاولة الجواب عن هذا السؤال ، كيف يحتفظ الشخص الواحد بهوية واحدة مع اختلاف ظروفه ؟ انه يكون صحيحا ويكون مريضا ، ويكون طفلا ويكون رجلا ، ويكون شبعان ويكون جائعا ، ويكون غضبان ويكون راضيـا ، ويكون يقظان ويكون نائما ؛ ومـع هـذا الاختلاف الشديـد الذي يطرأ على حالاته يظل انسانا واحدا ؛ فما الذي فيه يخلع عليه تلك الوحدانية مع تعدد حالاته وأوضاعه ؟ كلا ، لم تعد تحيرني المشكلة الـتي تحير الفلاسفة ، بعد أن رأيت « الأحدب » في الطريق وفي داره ، فـلا وحدانية هناك ؛ ليس الرجل رجلا واحدا ، ولكنه عـدة رجال ؛ هو في كل حالة رجل غير الرجل الذي يكونه في الحـالة الأخرى ؛ فمحال أن يكون « الأحدب » العابس الجاد المهموم الحزين الذي رأيته وتحدثت إليه وهو جالس على الجدار الذي لم يـتم بناؤه ، هو نفسه « الأحدب » الضاحك المرح المرّحب بي وهو في داره .

أدخلني « الأحدب » ، فعبر بي ردهة لاحظت خلاءها من الأثاث تقريبا ، وانتهينا الى غرفة هي مأواه ، فيها كل شيء : فيها السرير

وصوان الملابس ومكتب ومكتبة ومنضدة ومقاعد ومرآة ؛ أثاثها هزيل لكنه نظيف ، وتنسدل على النافذة ستارة رقيقة فيها خروق ممزقة ؛ لكنك تشعر في غرفته بالطمأنينة وراحة النفس ؛ وليست ديار الناس في ذلك سواء ؛ فقد أزور الدار وأحس أثناء زيارتي أني أتقلب على الشوك دون ان يكون بيني وبين صاحب الدار ما يدعو الى النفور ، ثم قد أزور الدار فينبسط صدري وتطيب نفسي ، وأتمنى لو بقيت فيه اليوم كله ؛ وقد قلت ذلك لصاحبي « الأحدب » فور جلوسي على مقعده المريح ، الذي كان – فيما يظهر – جالسا عليه لتوّه ، لأن الحشية كانت ما تزال دافئة بحرارته .

قلت : ان النفس لتحس الطمأنينة في غرفتك هذه ، والمنظر الذي يطالعك من نافذتك رائع جذاب .

قال : إذن لا أحسب الفجوة بين نفسينا عميقة كما يبدو للوهلة الأولى ؛ فقد أعجبك مأواي ها هنا ، كما أعجبك ملاذي الهادىء الذي ألوذ به خارج المدينة من صخب الحياة ؛ إن النفوس الانسانية لتشعر بالتقارب والتداني في حالات هدوئها ، حتى إذا ما عجّ بها عجيج الحياة ألفيتها متنافرة متعاركة ؛ لا عجب أن يكون الناس جميعا سواء وهم نيام ، ثم يأتي الموت – وهو نوم طويل بغير آخر – فيسوّي بينهم الى الأبد .

وخشيت أن ينتقل صاحبي بذكر الموت الى حالة من حالاته الكئيبة السوداء ، فغيرت موضوع الحديث ، وجعلت موضوعه

أقرب ما وقعت عليه يدي فوق المنضدة الصغيرة الوطيئة التي كانت أمام مقعدي .

قلت : ما هذه المكعبات الخشبية الملونة المصورة ؟

قال – وكان ورائي مشتغلا بإخراج الفناجين والأكواب من خزانة خشبية صغيرة في ركن غرفته – تلك لعبة من لعب الأطفال اشتريتها لألهو بها ؛ إنها مكعبات تُرَصُّ فتكوِّن صورا لا نهاية لعددها .

ودنا مني « الأحدب » وأشار باصبعه الى اللعبة وقد رص ما يقرب من نصفها ، فإذا هي صورة حصان عليه راكبة ، ولم يبق من الصورة إلا أرجل الحصان .

قلت : أحسبك كنت في سبيل إتمام الحصان بأرجله ؟

قال : هذا ما حِرْتُ فيه ؛ حاولت عبثا منذ ساعة الغداء ، فلم تستقم للحصان أرجل ، حتى لقد مللت فوقفت أنظر من نافذتي حين رأيتك قادما

قلت : وما فائدة الحصان بغير أرجله ؟ إن راكبه المسكين سيظل مشلول الحركة حتى تتم لحصانه الأرجل فيسير .

هنا وضع « الأحدب » قد حين كانا في يده ، وضعهما على ظهر مكتبه ، وجلس ؛ إنه ساعتئذ هو نفسه « الأحدب » الذي رأيته هناك على الجدار ، وهو نفسه « الأحدب » الذي رأيته في الطريق ،

وليس هو « الأحدب » الذي تلقّاني بالبشْر والـترحاب ؛ لقد عبس وجهه وتجهم ، ثم استرخى استرخاء مَنْ َفقَـــدَ القدرة على الوقوف والحركة ؛ وابتسم لكنها ابتسامة غير التي لقيني بهـا ، فهي ابتسامة صاحب النفس المريضة المعبأة بالهموم ؛ ألا َما أسرع التغير في سماء هذا الرجل : صفو في لحظة وغمام كثيف في اللحظة التي تليها .

قال : لعل ذلك بعينه هو ما أعجزني عن إقامة الحصان على قوائمه ؛ واذن فما أشبه جدّ حياتي بلعبها ! كأني بك يا صـديقي قـــد أتيتني لتستطلع شيئاً من أمري ، فهذا هو أمري قد انكشف لك في لحظة واحدة ؛ ففي هذا الحصان المقعد تتلخص قصة حياتي ؛ ولكل امرىء جواده ، ومن الجيـــاد ما يستقيم على قوائمه فيسرع الجري ، ومنها مـــا تعوزه الأرجل فيقبـع ؛ وجوادي كسيح ، فجسمه هنا وأرجله هناك ، لكن بصري يقصر دون أن يلتمس للأرجل مكانها من البدن ، وليس النقص في الأجزاء ولكن النقص في المهارة التي تقيم بناءها ؛ ان الذي يرى أحرف الهجاء أمامه ولا يستطيـع أن ينشىء منها قصة أو قصيدة يكون العجز فيه ولا يكون العيب في الأحرف .

قلت : دع عنك الآن هذا الحصان ولعبته ، وأنظر ماذا أردت أن تضع في هذين القدحين من شراب ... ...

لكنني صممت أن أستطلع قصة « الأحدب » لعلى أردّ هذا الحدب الذي تورّم به ظهره الى عناصره .

الفصل الثاني

حصان من الحلوى

١

أخذت أحفر تحت هذه النبْتة الملتوية لأتعقبها الى جذورهـــا العميقة الدفينة في تربة الارض ، لعلي بذلك أَصِلُ الخيوط بين الأول والآخر ، بين البداية والنهاية ، بين البذرة والثمرة ، بين الجرثومة والمرض ، بين ظروف النشأة الأولى وهذا القتب فوق كتفيْ صديقنا الأحدب المسكين .

فربطت أواصر الصداقة بيـــني وبينه ، أزوره كلما واتتـــني الظروف ، ويأنس لزيارتي واصحبتي ، ولم تكن الصحبة الا الى ذلك الملاذ الهادىء خارج المدينة بعد الغروب ؛ وتركت الحديث بيـــني وبينه يجري بجراه الطبيعي ليُخرج لي بعض المعالم التي كنت أستند اليها في متابعة بحثي بعيداً عنه : فأين كان مولده ، وأين نشأ وتربى ، ومن هما والداه ، ومن هم الذين أحاطوا به في مراحل حياته ؟ وكنت خلال ذلك كله أتلمس اللحظات التي ظننتها تكوّن من حياته معالمها .

فليست اللحظات في حياة الانسان كلّها سواءً من حيث فعلها في توجيه الأحداث ؛ فمنها ما قد يمضي ولا أثر له ، ومنها ما يكون له من بُعد الأثر وعمقه ما يظل يؤثر في مجرى الحياة الى ختامها ؛ وان النظر الى حياة انسان بمجموعة أحداثها ، لكالنظر الى مشهد طبيعي أو الى صورة فنية ؛ فالعين لا تبدأ النظر من حافة الاطار اليمنى ثم تسير في خط أفقي مستقيم حتى تنتهي الى حافة الاطار اليسرى ؛ بل إنها لتقع أولا على نقطة بارزة هنا أو هناك ، كشجرة على يمين الصورة أو جبل على يسارها أو قمر ساطع في وسطها ، ثم من هذه النقطة ينساب البصر في مختلف الاتجاهات ؛ فكأنما هذه النقطة البارزة ينبوع تفجرت منه بقية الأجزاء ؛ وهكذا يكون النظر الى حياة انسان بمجموعة أحداثها ، فعندئذ أيضا يتجه الانتباه الى لحظات بارزات ، كانت حاسمة في توجيهها ، ومن تلك اللحظات ينساب البصر الى سهول تلك الحياة ووديانها .

ولم تكن لحظة الميلاد — بالنسبة لصاحبنا الأحدب — واحدة من لحظاته الحواسم ، فكأنما هي جزء من حياة غيره أكثر منها جزءاً من حياته ؛ انه يحددها بشهادة الميلاد ، مفترضا الصدق فيمن كتبها ومن أملاها ، لأنه لا يملك في دخيلة نفسه دليلا على صدقها أو على كذبها ؛ ولو إحتكم الى حياته الباطنية لما وجد فرقا بين أن يكون قد عاش على ظهر الأرض خمسين عاما أو خمسة آلاف عام ؛ فكل الشواهد التي يُستَدَلُّ بها على مدى ما قد عاشه من سنين ، شواهد خارجية ليس فيها شاهد باطني واحد ؛ ان ذاكرته لا تقفل راجعة إلى ساعة ميلاده،

واذن فالأمر كله مرهون بشهادة غـيره : فهكذا يقول الوالدان ، وهكذا تثبت دفاتر الحكومة .

٢

ان ساعة الميلاد الحقيقية هي أول ما تستطيع الذاكرة أن ترتد إليه ، ولقد جعلتُ « الأحدب » يكـدُّ الذاكرة كـدًّا راجعـــا القهقرى ، لعله يظفر بأولى لحظات خبرته الحية ، فوقفتُ به عند ليلة مظلمة شديدة الظلمة ، حين عاد به أبوه من القاهرة الى بلده في الريف ، وهو بلد يقع في شمالي الدلتا بالقرب من البحر ؛ وكان المسافر اليـــه يركب القطـار الى أقرب محطة في الـبر الغربي من فرع دميـاط ، ثم يستقل مركبا يعبر به النيل الى ضفته الشرقية منحرفا بعض الشيء الى جنوب ، حتى اذا ما رسا أمام القرية المطلة على النيل ، صعد جسراً ؛ وفي صعود صديقنا الأحدب ذلك الجسر مع أبيه في تلك الساعة المعتمة من جوف الليل ، كان الطفل — وهو عندئذ في الرابعة من عمره — يحمل ربطة فيها حصان من حلوى المولد النبوي ، اشتراه له أبوه أثناء الطريق ؛ صعد الصبي الجسر مع أبيه ، حلواه في يسراه وأبوه يجذبه من يمنـــاه ، وكلاهما يتعثر في الصعود وتنغرس قدمـــاه في الحصى والتراب ؛ فقال له أبوه — وهما في طريق الصعود يتعثران ويلهثان — كأنما أراد بقوله أن يخفف من حدة الصمت ومن شدة المجهود : « أريد أن أراك رجلا عظيما » ؛ ولم يكد ينطق بحرف الميم في آخر عبارته ، حتى سقط الصبي على وجهه ، فانفلتت يده اليمنى من قبضة أبيه ، وانفلتت ربطة الحلوى من يده اليسرى ، وتهشم ما فيهـا ؛ فأنهضـه

أبوه ، والتقط له الحلوى المهشمة التي كان غلافها الورقيّ قد تمزق من بعض جوانبه ، فتسرب شيء من التراب والحصى الى داخل ، وتسرب شيء من الحلوى الى خارج .

قصّ عليّ « الأحدب » هذه القصة ، وأردف يقول : « لست أدري ما الذى دار في رأسي عندئذ ، لكنني حتى هذه الساعة لا أقرن الكثير الذي رجوته لنفسي أيام "صبا" ، بالقليل الذي حققته منه في الواقع ، الا وأذكر على الفور تلك الحادثة ؛ ترى هل كان هذا هو الخاطر الذي طرأ لي عندئذ – ولو بصورة مبهمة غامضة – أعني هذه المفارقة المؤسفة بين الأمل الذي عبّر عنه والدي ، وهو رغبته في أن يراني رجلا عظيما ، والخيبة العاجلة التي جاءت كالإجابة الهازئة من قدر ساخر ، أقول : ترى هل كانت هذه المفارقة الحادة بين الرجاء المأمول والخيبة الواقعة هي البذرة الأولى التي منها انبثقت على مدى حياتي هذه الرغبة الملحة في الوصول ثم هذا الشعور القوي بأنني لم أصل ؟ »

قلت للأحدب : ليست هذه حالة خاصة بك أنت وحدك ، برغم هذه القصة التي قصصتها ؛ فمن خصائص الطبيعة الانسانية كلها هذا التطلع الذي يتشوّف وراء الكائن الفعلي المحصّل الى ما هو غائب مجهول مرتقب ؛ نعم ان من خصائص الطبيعة الانسانية كلها هذا القفز من المتحقق بالفعل الى ما يجب أن يتحقق ، هذا القفز من الواقع الى الممكن ، من المكسوب الى المأمول ؛ فهذا التطلع من الانسان ، تطلعا يجاوز به دائماً حدود الواقع الى

عالم الممكن ، هو الذي يدفع به من حالة النقص الى حـــالة الكمال .

قال : لكني ما زلت أتساءل : لماذا كلما رأيت الفرق شاسعا بين ما رجوته لنفسي وبين ما حققته ، وثبت الى ذاكرتي عبارة أبي في تلك الليلة التي طمست بظلامها معـــالم الأشياء على مرتقى الجسر ، مصحوبه بعثرتي الـــتي عفّرت وجهي وهشمت حلواي ؟

كنت عندئذ في زيارة « الأحدب » عصر يوم من أيام الجمعة ، ولما كانت نافذة غرفته مطلة تجاه الغرب ، فان أشعة الشمس قد سبقتني الى غرفته ، وفرشت له الأرض بمستطيل من ضوئها ، دخلهـا خــلال الستارة الرقيقة فكان رماديّ اللون الا عند بُقَع صغيرة تقابل خروق الستارة ؛ وكان الشهر في أوائل الصيف ، فـــلم تكن حرارة الشمس من الضعف بحيث نحتمل الجلوس في مستطيل الضوء ، كما لم يكن في الغرفة الا تلك النافذة الغربية فكان لا بد من تركها مفتوحة ؛ ولذلك فقد جلسنا على كرسيين متباعدين بعض الشيء ، يقع مستطيل الضوء بينهما ؛ فكان وهو يقصّ عليّ قصة الحصان المهشّم ، يميل على كرسيه أحياناً ويشير بذراعيه ، فيحدث ظلا على مستطيل الضوء كثيرا ما كان يتخذ أشكالا غريبة ، حتى لقـد جعلت أنصت إليـــه بنصف انتباهي ، وأتتبع تلك الأشكال الغريبة بالنصف الآخر ؛ فالظـــل أحيانا على شكل نعجة تمط عنقها الطويل ، وأحيانا أخرى على شكل أرنب مُقْعٍ ، وأحيانا ثالثة يصبح كالطائر الذي نشر جناحيه .

ولعلي قد تعمدت أن ألهو بهذا الظل وأشكاله حتى لا أربكه بتركيز انتباهي كله فيما يقول ، فينطلق مرّ العبارة ، ناضحا ذكرياته البعيدة من أعماق نفسه ؛ ولقد اعتقدت أني بهذه القصة الصغيرة التي رواها ، وقعتُ على مفتاح شخصيته التي أردت فتح مغاليقها والكشف عن أسرارها .

كان عند « الأحدب » جهاز صغير يصنع فيه الشاي وهو في غرفته ، وهو اناء ذو قابس كهربائي ، يضع فيه الماء فلا يلبث أن يغلي بحرارة الكهرباء ؛ ولم يكد ينتهي من قصة الحصان ، حتى نهض فملأ الإناء من صنبور في البهو ، ووضع القابس في مقبسه من الحائط ، وراح يخرج فنجاني الشاي من خزانتها الصغيرة ، ومعها سائر الأدوات ؛ حتى اذا ما أعدّ كل شيء وجلس على مقعده ، نظر اليّ فكأنما راعه صمتي وتصويب نظري الى مستطيل الضوء لا أتحول عنه ، لأنني كنت لا أزال أراقب ظل الأحدب وهو يعبر الغرفة ، لأستخرج منه بخيالي كل ما استطعت من صنوف الحيوان .

ناولني فنجاني ، وراح يقول استئنافا لحديثه السابق : اني لأذكر الآن موقفا آخر في طفولتي ، وكنت عندئذ في الخامسة من عمري ..

فقلت في هدوء : وكيف عرفت أنك كنت في الخامسة ؟

قال وهو يبتسم : انني أعتمد في تحديد مراحل عمري بالنسبة الى الحوادث الباكرة في حياتي على المساكن التي سكنّاها ،

فالحادث الفلاني قد حدث ونحن في المنزل الفلاني ، والحادث الآخر قد حـدث ونحن في المنزل الفلاني ، وهكذا ، ثم أحـدد تواريخ سكناتا في هذا المنزل أو ذاك مستعينا بشواهد معينة من تاريخ أسرتنا .

فقد كنا – وأنا في نحو الخامسة – نسكن منزلا في حي المنيره بالقاهرة ، أذكره الآن جيداً ، وأذكر « خالتي أم محمد » – صاحبـة المنزل وصديقة الأسرة – وهي تسكن منزلا على السطح ، وأمـام منزلها مسطح كبير مفتوح الى السماء ، فيه يُنشر الغسيل وفيه دكة خشبية كبيرة مشققة الألواح من لفحة الشمس ، وتحتها تربض سلحفاة كبيرة ، ولكَم دخلتُ تحت هذه الدكة أمد ذراعي بين إقـدام وإحجام حتى ألمس ظهر السلحفاة لمسة خفيفه ثم أسرع خارجاً وأنا أقهقه قهقهة الغازي المنتصر .

وفي شقة من ذلك البناء كانت تسكن الأسرة وقـد حـدث ذات يوم أن زارنا رجلان من الأهل أو من الأصدقاء لا أدري ، لكن أحدهما مـا تزال صورة شاربيه عالقة بذاكرتي ، لا لكـبر فيهما ، ولكن لاهتزاز في أطرافهما غريب كلما حرّك الرجل شفتيه بالكلام او بالضحك ؛ ودعاني ابي من الداخل لأحيي ، وكان قد حفّظني عن ظهر قلب ماذا أقول عند التحية وبماذا أرد التحية ، وكثيرا ما كنت أخطىء فألـقَي اللوم إما ساعتها او على انفراد ؛ كما حدث يوما حين ناولني احد اصدقائه شيئا قائلا : تفضّل ، فأجبته بكلمة « العفو » واعاد الرجل قوله « تفضّل » وهو يضحك ، فأعدت جوابي بكلمة

« العفو » ، فأمهلني أبي حتى انفرد بي وأخذ يُقَرِّعني على هذا الخلط المصيب الذي خلطت به كلمة « العفو » بكلمة « متشكر » .

دعاني أبي يومئذ من داخل البيت لأحيي ذينك الرجلين ، وحييتهما بما حفظت من عبارات التحية .

فقــال صاحب الشارب الراقص : هل تذهب الى المدرسة ؟

قلت : نعــــم .

قال : تَهَجَّ اسمك .

قلت : ر ي ا ض : رياض .

قال : ما شاء الله .

فأراد أبي أن يزيد الصورة جــــلاء ، وسألني سؤالا في الحساب ، لكني لم أسرع له بالجواب ، فضربني بكتاب ضخم على رأسي ، فقال صاحب الشارب الراقص وهو يضحك : « أهكذا تضربه بالدنيا كلها على رأسه ؟ » ولم أفهم لهذه العبـــارة معنى ساعتئذ ، لكني أذكر كيف عز على نفسي أن أُضرب بالدنيا كلهــــا على رأسي ، فانفجرت باكيا ، كما يحدث كثيرا للطفل أن يبكي مؤخرا فقد يصاب بجرح وهو لا يدري ، حتى إذا ما نبهوه أن دماءه تسيل ، أخـــذ في البكاء .. ودارت الأيام ، وجاء يوم كنت فيـــه تلميذا بالمدرسة الابتدائية ، وتسلمت الأطلس الجغرافي بين مـــا تسلمته من الكتب أول العـــام

الدراسي ، وأخذت أقلب صفحاته وأدير فيها البصر معجبا بألوانها ، فاذا جاري يهمس لي : « هذه هي الدنيا كلها في هذا الكتاب بين يديك » ، فعندئذ فقط فهمت الجملة التي قالها صاحب الشارب الراقص ؛ انفجرت باكيا لتلك الجملة ولم أفهمها ، فطلب مني والدي أن أكف عن البكاء ، ولما عجزت عن طاعته ، صفعني وأعاد لي أمره بأن أكف عن البكاء . ولست ادري الآن كيف استطعت أن أقف البكاء ، لكنني فعلت ؛ وأعاد والدي سؤاله الحسابيّ من جديد وأراد الجواب السريع ، لكنني كنت في هذه المرة أعجز عن الجواب مني في المرة الاولى ، فحملني بين ذراعيه حملا ، وقذف بي خارج الغرفة كما يقذف اللاعب بالكرة ، وقال متجها نحو صاحب الشارب الراقص في نغمة هادئة : لن يعيش لي ولد خائب ، فاما أن يفلح أو يموت .

كنت والاحدب يقص عليّ هذه القصة الثانية ،أشخص له ببصري ، وأتتبع انفعالاته على وجهه ، والابتسامة الخفيفة لم تزل على شفتيه ، لكنه كان يروي ويمثل الأحداث بيديه وذراعيه ولفتات وجهه ، وفنجان الشاي في يدي ، وفنجان الشاي في يده ، فلا شربتُ ولا شرب ، حتى فرغ ، وضحكنا معاً ، وأخذنا نشرب لا أتكلم ولا يتكلم ، وأبصارنا مرسلة خلال النافذة ، ووجهانا مبتسمان ؛ وكان مستطيل الضوء قد امتد حتى أخذ طرفه الداخلي يصعد على الجدار المقابل ، وزحزحنا كرسيينا قليلا لنكون في الظل ، فبعدت المسافة بيني وبينه ؛ لا أدري ماذا كان في رأسه عندئذ ، وأما أنا فقد ازددت يقينا أنني وقعتُ على المفتاح ؛ فها هو ذا رجل قد شدّ بصره

منذ الطفولة نحو الممكن لا نحو الواقع ، فكلما حدث واقع وتحقق ، توقع ما وراءه وهو يائس ؛ وكلما قصرت قدرته مرة دون بلوغ الممكن – ولا بد ان تقصر إذ « الممكن » ما ينفك يتراجع أفقه خطوة فخطوة الى الوراء – تكونت على ظهره طبقة رقيقة من الهمّ ، ولبثت الطبقات تتراكم على مر السنين ، فاذا هذا القتب الذي يحمله فوق ظهره مشحونا بهموم حياته كلها لا يخفف منه ما يصيبه من نجاح ، لأن عينيه لا تنظران أبداً إلى ما قد تحقق ، إنما تمتدان إلى ما لم يتحقق والذي كان من الممكن أن يكون .

٣

كانت الشمس قد دنت من الغروب ، وزيارتي قد طالت عند الاحدب اكثر مما قد عوّدتُه وتعودت ، لكنني وجدتها فرصة سانحة أن يستطرد في ذكريات طفولته ، فتذرعت بذريعة الشمس الغاربة ورغبتي في ان أرى الشفق من سطحه ذاك الذي تقع فيه غرفته ، فسألتُه هلاّ أذن لي في أن أقف معه قليلا خارج الغرفة حتى نشهد غياب الشمس وراء الافق ؟ وخرجنا معا من غرفته ، فحانت مني التفاتة الى جلدة كتاب ملقاة كما اتفق ، كتب عليها « رياض عطا » فعرفت بذلك اسمه كاملا ، إذ لم يتبرع هو قبل ذاك أن يذكر لي اسمه ولا طلب مني أن يعرف اسمي ، كأنما نحن فكرتان مجردتان التقتا في ذهن إنسان ، أو كأننا شبحان من الأشباح التي تُذكَر بنوعها لا بأفرادها التي تعيّنها الأسماء ، وحتى تلك الساعة لم

أكن قد عرفت ماذا يعمل هذا الاحدب ، وممَّ يكسب قوته وأين يقضي بياض نهاره .

وما كدنا نقف على السطح المكشوف متكئين على حافته التي تعلو الى نصف إنسان واقف ، حتى أَثرْتُ حديث طفولته من جديد ، حافزا له أن ينطلق في ذكرياته ، بأن أخذتُ أمدح فيه هذه الذاكرة التي ما زالت تعي حوادث كهذه قد طال عليها الأمد ، مع أنني مهما كددتُ الذاكرة إلى ذلك العهد البعيد فما تعود إليّ بشيء ذي بال .

فأحسَّ بشيء من الزهو بنفسه ، وأستطرد يقول : إن من الأحداث التي وقعتْ لي وأنا في نحو الخامسة – وأستطيع تحديد هذه السن بتاريخ سكنانا عند مدخل درب الجماميز من ناحية قسم بوليس السيدة زينب – حادث سرقة ،اشتركتْ فيه معي ابنة عمي – وكانت في مثل سني – فقد كان أبي وعمي وأسرتاهما يسكنان شقة واحدة ، ولبثا حريصين على هذه المشاركة في السكن الواحد أعواماً طويلة ، وساعدتهما ظروف الحياة على أن ينتقلا معاً كلما انتقلا ، وأن يستقرا في بلد واحد كلما استقرا .

كان على ناصية الشارع والميدان بقال يرص أكياس الحلوى على نضد رخامي سميك يَسد ما امتدت فتحة الدكان إلا منفذا صغيرا على يمين الداخل ؛ ولو وقف الصغير ذو الأعوام الخمسة ملصقا جسده بالنضد الرخامي من جانبه الخارجي في الطريق ، لما رآه صاحب الدكان من داخل ،ثم لو رفع مثل هذا الصبي ذراعه ، ومد أصابعه

وشبّ عـــلى أطراف قدميه ، استطاع أن يمسك كيسا من أكياس الحلوى المرصوصة عند حافة النضد ، فيجذبه ولا يراه صاحب الدكان، خصوصا إذا أحسن الصغير اختيار اللحظة الملائمة .

ولست أدري كم مرة وقع منا هذا الاختلاس ، لكن المرة الواحدة التي أذكرها ذكرا ناصعا ، قد كانت ذات صباح – ولا بد أن قد كان الوقت صيفا،لأن خلفية الصورة التي أذكرها الآن مليئة برجال الشرطة وقد لبسوا بذلاتهم البيضاء ، وقوفا أو سائرين في حركة بطيئه عند مدخل قسم البوليس القريب من ذلك الدكان ؛ فما كدنا في تلك المرة نجذب الكيسين بأصابعنا كما كنا نفعل ، حتى نزلت علينا يدان كل يد منهما تمسك بواحد منا ، وقبضتا على أعناقنا قبضـا وأخذتا ترّجاننـا رجًّـا ؛ ونصعـد بوجهينا إلى أعـلى لنرى مـا الخبر وكيف حُمّ هذا القضاء ، فاذا عينان تلفظان الشرر وشاربان يهتزان على شفة راجفة من شدة الغضب ، وفي أحرف متقطعـة من شدة الانفعـال ، قـال الرجل – وهو صاحب الدكان – إنه لبث أياما طويلة يعجب بأي أيد خفية تختفي أكياس حـلواه ، حتى قبض علينـا متلبسين ؛ فأخذنا نستعطف الرجل ونعده بالثمن ، زاعمين له أن لم يسبق تلك المرة مرات ماضية ، وأننا كنا نأخذ مـا نأخذه عندئذ شراء لا سرقة ، فأطلق سراحنا متوعدا أن يبلغ الأمر الى والدينا ، وقد كان بيتنا مجاورا لدكانـه ، فـكان يرى الوالدين وهمـا يخرجان من البيت ويدخلان فيه .

اذن فقد قضي الأمر ونزلت الصاعقة ! فما الفرق بين أن يعلم أبيُ بالأمر وبين الموت ؟ تسللتُ الى البيت خفية كأني الظل ، وزحفت تحت السرير حيث قبعتُ هنـــاك من الصباح الى ساعة متأخرة من الليل ؛ كانت الشقة التي نسكنها مظلمة ، وكانت غرفة السرير أشد ظلاماً ، ثم كان ما تحت السرير كأنه الليل الدامس ؛ وحسبتُ أني قد أصبحتُ من الخطر في مأمن ، وإذا كنت أذكر جيدا ، فاني أذكر أنني في مخبئي ذاك لم أشعر بخوف ، كأنما الطامّة قد بلغت بهذا الملاذ ختامها ، لكن لم يمض طويل وقت حتى سمعتُ أصوات المتحدثين في غرف الدار وفي بهوها ، من أب وأم ، إلى عم وامرأة عم ، يسألون : أين رياض ؟ ثم يتوجهون بالسؤال الى ابنة عمي مرة بعد مرة بعد مرة ، كأنما المرة الواحدة أو المرتان لا تكفيهم سؤالا : لقد كان رياض معك في الصباح فأين ذهب ؟ فتجيب ابنة عمي قائلة في كل مرة يوجهون اليها السؤال : تركته أمام الباب في الشارع ، ولا أدري بعد ذلك شيئا.

إنني لا أزال أذكر حتى هذه الساعة ، أذكر كيف أخذ الفزع يزداد بهم شيئا فشيئا ، فتارة تسكت الأصوات ، كلها وتخلو الدار من ساكنيها جميعا ، لأنهم خرجوا يبحثون عني في مظانيّ ، كل يذهب في طريق ؛ وتارة تعود الدار فتعجّ بأصواتهم يتساءلون في فزع جازعين ؛ وجاء الليل واشتدت عتمته واشتد معها خوفهم ، حتى شاء الله لذراع أن تمتد تحت السرير لتجر قفصا صغيرا مخزونا هناك ، وراحت الذراع الممدودة تتحسس حتى أحسّت حركة خفيفة ، هي حركة جسمي يزحزح نفسه قليلا الى ناحية الجدار ، فرفعتْ الذراع ملاءة السرير المدلاّة ،

واذا بالشارد الضال مختبىء هناك في كهف ! فصرخت صاحبة الذراع – ولا أذكر من هي – صرخة امتزجت فيها الفرحة بالدهشة بالترحيب بالوعيد بكل العواطف الانسانية حين تمتزج في خليط واحد ؛ وأُخرِجتُ من مكمني جرًّا الى البهو ، يسألونني ولا أجيب ؛ وأخيرا جاء أبي من دورة بحثه عني ، فاذا هو يلقاني فيدهش فيسأل ، ولا جواب إلى هذه الساعة .

وضحك الأحدب ضحكة صافية من كل شوائب السخرية التي كثيرا ما يمزج بهـا ضحكاته ، وقال : أحسب أن صاحب الدكان لم يقل شيئا لوالدينا ، وأن ابنة العم كتمت أمرها وأمري ، فلم يزد أهلي عندئذ على أن أضافوا هذا « الفصل » الى فصول أخرى كانوا يحصونها عليّ ولم أكن أدري من أمرها شيئا ، مما كانوا يتخذونه دليلا على زَعمٍ لهم عني ثبت عندهم ورسخ ، وهو أني « عبيط » ، وهـا هوذا شاهد على « عبطي » جديد ، فكان مما يتندرون به دائما أني وأنا صغير – الظاهر أن سن الخامسة عندهم كانت سنًّا كبيرة – كنت آخذ منهم خمسة القروش أو عشرة القروش ، لأشتري لهم شيئا من الطريق ، فأغيب عنهم قليلا ثم أعود لأقول : لقد أكل الحمار قطعة النقود ، فيذهب منهم ذاهب ليجد قطعة النقود موضوعة في فجوة كانت بين أحجار الحائط عند مدخل البيت .

فرغ رياض عطا من ذكرياتـه ، وهو منبسط النفس ، منشرح الصدر ، معتدل القامة ، حتى كدت لا أرى على ظهره قتبا ، وكأنمـا

النشوة التي شاعت في أساريره قد قللت من عمره فجأة عشرة أعوام كاملة ؛ وكانت الشمس قــد غـابت وبقايا الشفق القرمزي منتثرة في الأفق ، حين حييته وانصرفت الى مدخل الدرج ، ونزلت أتحسس الطريق بقدمي درجة درجة حتى كنت في الطريق ؛ أسير الهوينا من عمق انشغالي بالأحدب وقصته .

أيّ مفتاح تريد لشخصيته أجلى وأوضح من هــذا الذي ذكره الآن ؟ إن اختفاءه في الظلام اتقاء لشر مرتقب ، ثم إرهاف الحس ليتتبع مجرى الحوادث من حوله دون أن يغادر مخبأه ، فيهما محور حياته كلها : انطواء من ناحية ،وتسلل بالسمع وبالبصر في الخفاء إلى ما يدور في العالم من وقائع وأحداث من ناحية أخرى ؛ إنــــه كمن يريد أن ينظر الى العالم من ثقب الباب ، يريد أن يَرَى ولا يُرى ؛ إنــــه ليخيــل اليّ أن شخصيته نسيــج من ثلاثة خيوط ؛ يــأس أكثر من الرجاء ، وانطواء أكــثر من الظهور ، ورغبة في إقــامة البرهان على قدراته ليمحو بها تهمة « العبط » التي اتهموه بها وهو صغير ؛ أمـــا اليأس فقد كانت بداية خيطه حادثة الحصان المهشم ، وهي الحادثة التي تلاحق فيها الأمل والخيبة تلاحقا مباشرا ، وأما الانطواء فقد كانت بداية خيطه حادثة كيس الحلوى حين أحس الطمأنينة في مخبئه تحت السرير ، وأما تهمة « العبط » فقد بدأت قبل أن تعي ذاكرته أولى الحوادث التي كانت تسوّغها .

الفصل الثالث

حلم ليلة في منتصف الصيف

١

انقطعت صلتي بالأحدب لبضعة أسابيع ، وذلك أن عملي مفتشا في وزارة التربية والتعليم اقتضاني السفر حينا ، وكانت الجولة التي اعتزمت القيام بها تدور بين بعض عواصم الوجه البحري ، وفي صبيحة اليوم التالي لآخر لقاء بيني وبين الأحدب ، لم أكن قد قررت بعد في أي اتجاه أسير ، أأجعل وجهتي هذه المرة شرق الدلتا أم غربها ؟ ولم أحسم الأمر إلا وأنا أناول استمارة السفر إلى « قاطع التذاكر » في المحطة ، ففي آخر لحظة ملأت الاستمارة بكلمة « المنصورة » وأخذت تذكرتي وانصرفت مسرعا إلى القطار ، وجلست في مقعدي رقم ٢١ الذي أختاره دائما ما وجدت الى اختياره سبيلا ، لأنه مقعد فرداني من جهة ، ويتجه الجالس عليه مع سير القطار من جهة أخرى ، ثم يواجهه مقعدان يغلب أن يشغلها زميلان فيتحدثان ، فأتسلى باستراق السمع إلى ما يقولان من جهة ثالثة .

ولم أكد أنشر صحيفة الصباح بين يدي ، حتى فوجئت بما لم أكن أتوقع حدوثه ، وهو أن يكون شاغلا المقعدين اللذين يواجهان مقعدي هما صديقي فريد – صديق النشأة والشباب – وزوجته عفاف ؛ وكنت لم أرهما منذ خمس سنوات ؛ فاضطربت لرؤيتهما اضطرابا ، لأن اللقاء مباغت ، فأسقطت بقيامي من مقعدي لأسلم عليهما حقيبة صغيرة من يده ، كان يرفعها ليضعها على الرف ؛ ولبث ثلاثتنا يتحركون ويتكلمون في غير هدوء ولا انسجام حتى لقد سددنا الطريق على المارة من المسافرين ؛ وأخيرا استوينا على مقاعدنا ، لا ندري أين نبدأ الحديث ولا كيف نبدؤه بعد هذا الغياب الطويل الذي لا ندري على وجه الدقة ما الذى أحدثه بعد أن كان اجتماعنا المطرد المتكرر جزءا لا يتجزأ من حياتنا .

كنت زميلا لفريد في الدراسة الثانوية وفي المرحلة الجامعية ، وكنا نأنس أحدنا بالآخر أنساً حتى ليقصد أحدنا الى الآخر في كل صغيرة أو كبيرة من أحداث حياته ، يطلعه على خفايا نفسه وأزماتها ، وعلى مشكلاته التي تنشأ في علاقاته مع سائر أفراد أسرته ، وكنت أحس وأنا أتحدث إليه كأنني أحدث نفسي ، لا أكتم سرا ولا أدعي غير الحق ، فلا أتظاهر بثراء لا وجود له ، ولا بفقر أبشع من الفقر الذي كنت فيه ؛ ذلك كله على الرغم من أن بين شخصيتينا خلافا جوهريا ، فهو يُعلي العمل على الفكرة ، وأنا أُعلي الفكرة على العمل ؛ وهو يضحك من قلبه وأنا أضحك من وراء قلبي ؛ وهو يحب الناس لأشخاصهم لا لآرائهم ، وأنا أحب الناس لآرائهم لا لأشخاصهم ،

ولذلك فهو محدود في صداقاته بالناس الحقيقيين الذين يملأون عليه حياته ، وأما أنا فصداقاتي قد امتدت إلى المؤلفين وإلى الشخصيات الوهمية التي تحيا على صفحات القصص والمسرحيات ؛ هو يريد من صديقه أن يبادله النكات وهما يشربان أقداح الشاي ، وأنا أريد من صديقي أن يجادلني في فكرة أو في مذهب نظري ، هو لا يميل إلى القراءة ويكره الكتابة كراهية شديدة – ولعله كان يستطيعها لو أراد – وأنا أميل إليهما معا ؛ وفوق هـذا وهذا وذاك من بذور الخلاف بين الشخصيتين أنه كان يبحث عن شريكة حياته بعد إذ تخرجنا بقليل ، لأنه لم يتصور حياة بغير زوجة وأبناء ، وأما أنا فقد كانت فكرة الزواج عندي أمرا لا يَرِدُ على التصور ، كما لا ترِد فكرة الدائرة المربعة ، إذ لم يكن التضاد بين نفسي وبين هذه الفكرة أقل من التضاد بين التدوير والتربيع .

وكان صديقي فريد أثناء بحثه عن زوجة مناسبة ، لا يفوته أن يجعل من البحث موضوع فكاهة نضحك لها كلما اجتمعنا ، فقد كان أمس يزور أسرة ليرى فتاة مقترحة له ، فيروي لنا ما دار بينه وبين والدها أو والدتها ، أو يروي ما دار بينه وبين الخطيبة المقترحة من أحاديث ، فنجد في روايته مواضع كثيرة تثير الضحك إذا ما كانت الأسرة المقصودة أعلى مما ينبغي أو أخفض مما ينبغي ، ففي كلتا الحالتين نضحك على مفارقات الموقف ، في الأولى يتظاهر هو بما ليس فيه ، وفي الثانية يتظاهرون هم بما ليس فيهم .

وانتهى هذا الهزل كله بجد الزواج نفسه ، زواجه من عفاف ، وما زالا منذ تزوجا على بُعْدٍ نفسي بعض الشيء أحدهما من الآخر ، فهي تُدِلُّ عليه بفرق يسير بين أسرتها وأسرته ، وهو يتعاظم عليها بفرق كبير بين ثقافته وثقافتها مع أن حقيقة الأمر عند العارفين هي أنها - بمعنى الثقافة العام - أكثر ثقافة من زوجها ، لأنها أكثر منه اهتماما بحركات الفن والأدب ؛ أما هو فامتيازه عليها منحصر في دراسة التخصص وحدها ، فهي فتاة وقف تعليمها في مدرسة فرنسية عند مرحلة ثانوية ، ومع ذلك فمحال عليها ألا تضع ألفاظا فرنسية في حديثها حتى مع من تَعَلَّم هي أنهم لا يعرفون من الفرنسية كلمة واحدة ؛ ثم محال عليها كذلك ألا تدع بعض الاشارات تتساقط في كلامها أو في سلوكها لتَدُلَّ بها على أنها ليست كسائر النساء اللائي تلتقي بهن في زمرة أصدقاء زوجها أو أقاربه .

والحق أنها كانت ذات ذوق جميل في بساطة لا يستطيعها إلا من دُرِّب عليها تدريبا طويلا ، غير أن هذا الذوق الجميل البسيط نفسه كثيرا ما كان مثار اشتباكات بينها وبين زوجها ، لأنه - في واقع الأمر - باهظ التكاليف ؛ فالثياب التي من هذا الطراز غالية الثمن ، والأثاث الذي يحقق مثل هذا الذوق قد لا يكون هو الأثاث الذي يلائم أقاربه وأصدقاءه إذا ما أرادوا زيارته زيارات قصيرة أو طويلة؛ فأين تنام أمه إذا قضت عنده أسبوعا ، إلا إذا كان في البيت مزيد من حشايا ووسائد لا مكان لها إلا ظَهْرَ خزانة الملابس ؟ وكيف يتوضأ أبوه إذا لم يُعِدَّ له قبقابا خاصا ، لأن ذلك هو ما ألفه أبوه وليس من

السهل أن يبدأ في إلف جديد ؛ ثم الأصدقاء حين يجتمعون عنده يريدون أن يشربوا الشاي على الطريقة التي تعودوها وهم طلاب ، ويريدون أن يضحكوا ضحكات عاليه وأن يرفعوا أصواتهم بالحديث والجدل ، وكل هذه أمور يأباها الذوق الجميل البسيط الهادىء الذي كانت ترجوه صاحبتنا في منزل الزوجية .

فكان فريد وعفاف في صراع خفيٍّ لا يدركه إلا العارفون ببواطن الأمور ؛ وقد كنت أحسب أن خمسة أعوام غبْتُ عنهما خلالها كانت كفيلة أن تُسَوّي الأرض عاليها بواطئها فيعتدل الأمر الأمر بين الطرفين ؛ لكني ما كدت أبدأ الحديث معهما حتى تبين أن الأعوام الخمسة لم تغير من الصراع الباطني شيئا ، فما زالت هي تُدل عليه بارتفاع أسرتها وما زال هو يُدل عليها بعمق ثقافته ؛ لكني كنت أحس دائما أنها في هذا الصراع أشد إخلاصا لنفسها منه لنفسه ، فهي حين تُدِل بأسرتها تعلم يقينا أن مِلْكية الأسرة لمائة وعشرين فدانا من جيد الأرض بالقرب من المنصورة أمر لا يغالط في أهميته الاجتماعية إلا مكابر ، وأما هو حين يتعاظم بعلمه ، فقد كان يعلم جيدا أن إلمامه بالأدب الفارسي قد يجعل منه رجلا موقرا في دوائر العلماء ، لكنه لن يجعل منه شيئا إذا ما كان الأمر أمر درجات تعلو أو تسفل في السلّم الاجتماعي ، ومن هنا كنت أحسّ دائما كلما أخذا يرميان الحديث رميا هادفا ، أنها هي الظافرة وأنه هو المغلوب في حقيقة الأمر ، حتى لو لم يكن الأمر كذلك في ظاهر الحديث ، ولما كنت أنا أقرب إلى نوعه هو مني إلى نوعها هي ، فقد كنت أسنده كلما نشب

بينهما صراع كهذا ، غير أني كنت أفعل ذلك بلباقة شديدة لأنني كنت في الوقت نفسه لا أحب أن أثير عداوتها ، خصوصا وأني كنت أحسّ برباط خفيف من « الميْل » بينها وبيني ، فكانت – دون أصدقاء زوجها جميعا – تستريح إلى زيارتي لهما ، وتصرّ على أن تطول السهرة ما أمكنها ، كأن وجودي همزة وصل بينها وبين زوجها ، تستطيع أن تتحدث إليه في حضوري ، فإذا ودعتهما وانصرفت ، ساد بينهما الصمت وجفّت ينابيع الكلام .

سألتهما بعد أن استقرت نفوسنا بعد اللقاء المفاجىء في القطار : إلى أين ؟ طبعا إلى كفر بدواي (حيث تقع أرض الزوجة) .

فقال : أي والله ، إلى الأرض التي لا يأتينا من جرائها إلا وجع الدماغ ، إذ ليس لنا فيها لا سمن ولا عسل .

فردّت عفاف كطلقات البارود : يكفينا السمن والعسل اللذان يأتيان إلينا من أرضكم صفائح صفائح .

فقال وهو ساخر ويملك زمام أعصابه : أرضي هي وظيفتي ، ومنها نأكل ونسكن ونلبس ، وكذلك ندفع أجرة القطار إلى أرضكم .

فقلت مهدئا : أرضي وأرضكم .. أما تزالان في هذا النزاع القديم بعينه ؟

قال فريد : أنا لم أقل أبدا « أرضي » لأنني رجل لا أرض لي ، بل ولا أريد أن يكون لي أرض ، ما دمت من ثقافتي أعيش في سماء .

فلوت عفاف وجهها نحو النافذة ، ورسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة ، وقالت في تمتمة هازئة : يا فرحتي بثقافتك التي لا تطعم الجائع ولا تكسو العريان !

والحق أن صديقي فريد إذا كان قد أفلح في أن يجعل من الأدب الفارسي صناعة يرتزق منها ، فلا أظن قد أفلح في أن يجعل منها ثقافة يحياها ويكسب منها وجهة نظر خاصة إلى الحياة ، فما يزال مزاجه أقرب إلى المزاج الريفي — أو على الأصح مزاج أولاد البلد القاهريين — في طريقة عيشه كلها ، ومن هنا كانت الفجوة كبيرة بين الزوجين في النظر الى الأمور .

أردت أن أغير جو الحديث الذي ساده التوتر ، فقلت — وكان القطار عندئذ قد هدأ من سرعته ليقف في محطة طنطا — إن مسألة غريبة تشغلني لسبب لا أدريه ، فلأمر ما شغلت برجل عجيب قابلته صدفة ، لكنه أثار اهتمامي الشديد بغرابة سلوكه وعمق لفتاته الفكرية وبشذوذه في أشياء كثيرة ، فيستحيل عليك أن تخطئه إذا ما رأيته وسط زحام الناس في الطريق ، لأنه فريد ...

فقاطعتني عفاف قائلة وهي تضحك في نشوة طبيعية : صدقت ، إنه شاذ وهو فريد (مشيرة الى اسم زوجها) .

فقلت : لا ، لست أقصد فريدنا هذا ، فلا تستغلي كل موقف لصالحك؛ فصاحبنا الشاذ ذاك اسمه « رياض عطا » .

قال فريد في اهتمام ظاهر عليه وعلى زوجته معاً :رياض عطا المدرس ؟

قلت : لا أعلم ماذا يعمل ؛ لم أجرؤ على سؤاله ، بل ان اسمه نفسه لم أعرفه إلا بمصادفة عابرة .

قال فريد : أهو أحدب الظهر قليلا ؟

قلت : إنه أحدب الظهر كثيرا لا قليلا .

قال : لا بد أن يكون هو رياض عطا الذي كان منذ خمسة وعشرين عاما يشتغل بالتدريس في مدينة ميت غمر ، فأثار انتباه الناس جميعا عندئذ ، وما يزال بعضهم يذكره حتى اليوم .

قلت : حدثني عنه ، أسرع قبل أن يصل بنا القطار إلى المنصورة فتذهب في طريقك وأذهب في طريقي — وقد صممت في تلك اللحظة نفسها أن أجعل مدينة ميت غمر أول ما أبدأ به جولتي ، لأتعقب أخبار الأحدب ما استطعت سبيلا .

قال فريد — وكان قوله التقاء أسماعنا ، حتى لقد مالت رءوسنا الثلاثة في وضع يجعل منها مجموعة تصلح لرسم لوحة يطلق عليها اسم « الراوية » — قال :

٢

حدثني صديق فقال : كنت مدرسا بمدرسة ميت غمر الابتدائية ، ولم أكد أقضي فيها بضعة أشهر حتى جاءنا مدرس جديد للغة الانجليزية فلفت إليه الأنظار فور مجيئه ؛ ولم تكن الأنظار لتلتفت إليه بكل قوتها كما فعلت لو كانت كل غرابته محصورة في تشويه ظهره بالقتب الذي يقوّسه بعض الشيء ، ولكن ما وُجّه إليه انتباهنا وانتباه الناس جميعا ، هو مسلكه في حياته الخاصة ، الذي جعل منه إنسانا متميزا متفردا ؛ فقد كان يلبس منظارا ذا عدسة واحدة يضعها على عينه اليسرى ، بغير إطار يحيط بها ، وفي العدسة خيط أسود يمتد حتى يدور حول عنقه ، وهي طريقة لم يكن أحد منا قد ألفها فيما شاهد فوق أعين الناس من مناظير ، وقد حسبنا أول الأمر أن عينه اليمنى قد تحررت من المنظار لقوة إبصارها ، لكننا عرفنا فيما بعد أنها عين لا رجاء فيها لأنها لا تبصر ، فآثر صاحبنا أن يقصر منظاره على العين الواحدة التي ترى ، فلم يكن عجيبا أن أسماه بعضنا بأبي نظارة ، على الرغم من أن كثيرين غيره كانوا ممن يستخدمون المناظير .

سكن دارا وحده ، وكانت العادة بيننا أن يشترك أكثر من واحد في دار ، ولبث أشهرا طويلة لا نكاد نسمع صوته مُحَدِّثا إلا وهو يلقي دروسه على التلاميذ ، وهي دروس كان ينطق فيها كلمات اللغة الانجليزية وجملها بلسان غير عربي يحاول به أن يقلد أصحاب اللغة

التي يعلمها ، فزاد هذا في غرابته ، كأنما غرابته هذه كانت تتبدى إذا أخطأ السلوك وإذا أصاب ، لانه في كلتا الحالين كان ينحرف عن المألوف ؛ وندخل حجرات الدراسة بعده لنرى ماذا كان يصنع لعلنا نقع على أشياء جديدة فيه نجعلها مدار التعليق ، فنرى السبورة مزدانة بالطباشير الملون هنا وهناك ، فكلمات يكتبها باللون الأحمر وأخرى يكتبها باللون الأزرق ، فضلا عن اللون الأبيض ، بل نراه يكتب الكلمة الواحدة بعدة ألوان فنضحك ونخرج لننشر الخبر بين سائر الزملاء .

يدخل المدرسة صامتا ويخرج منها صامتا ، ولعل صمته لم يبلغ حده الأقصى مرة كما بلغه ذات مساء ، حين سمع في حجرة المدرسين نبأ تدور به الألسنة بأن مدرسا جديدا للغة العربية سيصل إلى المدينة في المساء ، فأين عساه ينزل يا ترى ؟ ومن ذا سيقابله في المحطة ليؤويه في هذا البلد ؛ سمع هذا فلم ينطق بكلمة ، لكن — فيما علمنا بعدئذ — ذهب إلى المحطة في المساء ، خشية ألا يقابل المدرس القادم أحد فتأخذه الحيرة كما حدث للأحدب نفسه ليلة وصوله ؛ فلما لم يجد أحدا هناك سواه ، صمم على أن يضطلع بهذا الواجب ، وأمعن النظر فيمن نزلوا من القطار ، حتى اهتدى بالسليقة إلى شاب نزل ومعه حقيبة وسلّتان ، وضعها أمامه وراح يَتَلفَّتُ ، فاقترب منه الأحدب وسأله إن كان هو المدرس الجديد ؟ ولما علم من جوابه أنه هو ، سأله إن كان له مكان يبيت فيه ؟ وعلم أن لا مكان ، فدعاه الى المبيت معه في منزله حتى يدبر أمره في الصباح ؛ وعاونه على حمل أمتعته ، وذهب كلاهما إلى الدار ، ولم يكن بها إلا سرير واحد ، فأنزل صاحبنا

الأحدب اللحاف وفرشه على الأرض ورقد ، تاركا السرير للضيف .

كل هذا جميل ، ولكن القبيح في الأمر هو أنه منذ قبل الضيف دعوته وهما في المحطة ، ختم الأحدب على شفتيه بخاتم الصمت فلم ينطق بكلمة واحدة إلى ضيفه هذا الذي تبرع بمقابلته وبدعوته ، ففي صمت تامّ سارا ، وفي صمت تامّ دخلا الدار ، وفي صمت تامّ أعدّ الأحدب فراشه على الأرض ، وفي صمت تام قضى الليل ، وفي صمت تام استيقظ في الصباح وأعدّ لضيفه الفطور ، وارتدى ثيابه وخرج ؛ وترك وراءه الضيف الغريب لا يدري ماذا يصنع بنفسه ، حتى شهدناه وهو يلتقي بالأحدب في بهو المدرسة ليسلمه مفتاح منزله شاكرا ؛ ولقد روى لنا المدرس الجديد قصته هذه وهو في عجب شايد من هذا المضيف الذي تطوع بالفضل ، ثم سلك هذا السلوك الشاذ كأنما قد أحسّ بالندم على الفضل الذي تطوع بأدائه مختارا ؛ وقل ما شئت فيما أحدثته هـــذه القصة من دويٍّ في مجالسنا الخاصة ، لأنها جاءت آية جديدة تفسِّر غوامض هـــذا الرجل الفريد ، فهو يؤدي الواجب أداء كاملا ، ثم ينسحب مختفيا عن الأنظار والأسماع .

الفردية هي طابع هذا الرجل ، فهو لا يطمئن نفسا إلا إذا تفرد واختلف عن غيره قليلا أو كثيرا ؛ فقد حدث لنا ونحن ما نزال ندرس في المدرسة الابتدائية ببيت غمر ، أن زار البلد رئيس الوزراء ، واستعدت الحكومة المحلية في المدينة بألوان من الترحيب مما يطوف بالخيال وما لا يطوف ، ومن ذلك أن أُعِدّ سرادق فسيح ليحشد فيه

الناس حشدا كي يخطب فيهم القادم الكبير ؛ وكان رئيس الوزراء عندئذ حاكما مستبدا ظفر بمنصبه كرها وغصبا ؛ وكان على الموظفين جميعا ، وعلى المدرسين بصفة خاصة ، أن يذهبوا ليُرَصُّوا على المقاعد مع سائر من يُرَصّ من أبناء الاقليم ؛ وذهبنا جماعة واحدة كما أُمرنا أن نذهب ، كأنما نحن قطيع من الغنم يسوقه الراعي مجتمعا حتى لا تشرد منه غنمة فتضلّ الطريق - ذهبنا جماعة واحدة إلى السرادق ، ومعنـــا الأحدب بنظارته ذات العدسة الواحدة على عينه اليسرى ، وكان مقدرا للمدرسين أن يجلسوا في صفوف خلفية ، وفعلوا كما أُمروا إلا صاحبنا الأحدب فقد نَفَـر كالقط المفترس ، وفي خطوات فسيحة مندفعة قصد إلى الصف الأول في السرادق حيث اتخذ مجلسه ؛ فلما أن نبهه المنظمون أن ليس هذا موضعه رفض حتى أن يلتفت إليهم بنظره أو أن يجيب ، فحدثت حركة ملحوظة بين جماعة المنظمين ومعظمهم من ضباط الشرطة ، حتى جاءوا له برئيسهم ، فلم يعرف هذا إلا أن يخيره بين أمرين فإما أن يجلس حيث يجلس زملاؤه ، وإما أن يأمر رجاله فيقذفوا به في الطريق ؛ وهنا أخرج له الأحدب تذكرة الدعوة من جيبه ، وقـال : إنـــه تلقى هذه الدعوة فجاء ملبيا ، ولم يكن بالدعوة ما يدل على مكان معين للجلوس ، ولذلك فهو مصرٌّ على البقاء حيث هو ، وليفعل صاحب الشرطة ما شاء ، فإن قذف به في الطريق كما توعده ، فقد خدمه بذلك خدمـة سيشكره عليها ، لأنـــه ترك مسرحية « حلم ليلة في منتصف الصيف » مقروءة إلى نصفها ولأنْ يُتمّها خيرٌ له من أن يسمع ما جيء به ليسمعه ؛ فاستشاط الضابط

غضبا وصمم أن يعلمه درسا ، بادئا بأن نفذ مـــا قد توعد به ، وأمر رجاله أن احملوه وارموا به خارج السرادق ، لكن رجاله لم يجدوا من يحملونه ، لأن صاحبنا الأحدب ترك مكانـه وخرج ، ولا أدري هـل أصابه بعد ذلك سوء أو لم يصبه شيء .

تفردٌ غريب في هذا الرجل كما وصفه لي صديقي .. » لما كان فريد قد بلغ من قصته هـذا المدى ، كان القطار قـد أوشك على دخول المنصورة ، وكنت راغبا في المزيد من أخبـار الأحدب ، فقـال لي فريد : « تستطيـع – إذا زرت ميت غمر – أن تتحدث في الموضوع مع الاستاذ كامل راغب ناظر المدرسة الثانوية هناك لأنه هو صاحب الرواية ، وقد قضى حياته منذ ذلك الحين في ميت غمر ، لم يغادرها إلا فـترة قصيرة ، فهو أعـلم الناس بقصص ميت غمر ومدارسها ومدرسيها » .

ولم أترك فريـداً وزوجته عفـاف في محطة المنصورة ، إلا وقـد قطعت لهما وعدا أكيدا أن أزورهما في القاهرة بمجرد عودتي إليها ، لأنهما لن يمكثا في كفر بدواي إلا ليلتين .

٣

بيني وبين المنصورة حنين الوليد إلى أمه ، فلها عندي طعم تتميز به في نفسي دون سائر المدن جميعـا ؛ أعرفهـا بهوائهـا ذى العبـير والطراوة ، كما أعرف هواء البحر إذا ما دنوت منه دون أن أراه ؛

ولأهل المنصورة طريقة في تنغيم الكلمات أميزهم بها وأطرب لسماعها ؛ أهكذا يكون الرباط المقدس بين الانسان ومسقط رأسه ، وهو الرباط الذي تجيء النشأة والثقافة فتقويه فيصبح حب الانسان لوطنه؟ لقد ولدت في قرية بين المنصورة ودمياط ، هي نفسها القرية التي أُسر فيها لويس التاسع وسيق منها إلى سجنه بالمنصورة ، فلئن كان للمسلم عامة وللمصري خاصة شعور بالزهو أن أذلّ ملكا من ملوك الحرب الصليبية ، فلي إلى جانب ذلك الزهو زهو أخصّ ، هو أني سليل أسرة هي نفسها التي قامت لوطنها ولعقيدتها بهذا الواجب الشريف ، ولست أدري إذا كانت هي مصادفات التاريخ أو كانت نتيجة طبيعية لخُلُق عند أهل هذه القرية ، أن كانوا هم كذلك الذين قاموا بدور مذكور في الثورة على رجال الحملة الفرنسية ... ومهما يكن من أمر فاني أحس بزهو الانتماء إلى هذه البقعة من الأرض ، ثم أنقل شعوري هذا من القرية إلى المدينة — مدينة المنصورة ، فما أنفكُّ مرتبطا بها مهما طال أمد البين ومسافته .

لهذا كله تراني لا أمرّ خلال المنصورة إلا وأحسستُ فرضا عليّ أن أسير في شوارعها وأن أجلس على مقاهيها حتى ولو كان ذلك لبضع دقائق قليلة ، قبل أن أستأنف السفر ؛ وذلك ما قد حدث عندما ودعت صديقي وزوجته ، معتزما أن أواصل طريقي إلى ميت غمر ، لكن بعد أن أكون قد أديت فريضة المكث ساعة في المنصورة ؛ وحملت حقيبتي الصغيرة في يدي ، وسرت بها على طول « السكة الجديدة » ، ثم انثنيت إلى «شارع البحر» — والبحر هو النيل — حيث

جلست تحت الشجرة التي طالما خلّدت في أدبنا أدبا ، ففي ظلها جلس شعراء وكتّاب فأنشدوا الغناء ونضدوا الكلم المنغوم .

جلست تحت تلك الشجرة الموحية وسرحت ببصري على امتداد النيل ، ولبثت هكذا حتى فرغت من احتساء قهوتي على مهل شديد ، ولما هممت بالانصراف سمعت قهقهة عالية من جماعة جلست إلى مائدة قريبة مني ، فنظرتُ لأرى ، ومن ذا أرى إلا صحبة قديمة ، وبينهم الاستاذ كامل راغب ناظر المدرسة الثانوية بميت غمر ، الذي أوصاني فريد أن ألقاه لأنه مخضرم عتيد في ذلك البلد ، يعرف كل من وفد إليها ومن ذهب عنها منذ ربع قرن أو يزيد .

الدنيا مصادفات وما أحلاها من مصادفة هذه التي أوقعتني على هدفي كأنه جاءني يسعى ؛ لكن كيف أصل نفسي بهذه الجماعة التي باعدت الأيام بيني وبينهم حتى لأتذكرهم الآن كما يتذكر الانسان أحداثَ ماضيهِ بعد أن تجردت من نبضها الحي وأصبحت أشباحا صامته كصور الأشياء في المرآة ؟ ثم كيف أعزل عنهم أحدهم ، وإذا عزلته عنهم فكيف أفتح معه الحديث عن الأحدب دون أن أضعه في موقف الحذر ؟ لا ، إنني سأدع هذه المصادفة تمضي كأن لم تكن ، وسأسافر غدا إلى ميت غمر ، لأجعل من العمل الرسمي فرصة طبيعية أقابل فيها الرجل وأتحدث معه حديثا أدبّر طريق سيره حتى يقع على ذكرياته التي أتصيدها منه .

لكن للمصادفة منطقا أقوى من التخطيط المدّبر ؛ فقد كان بعض

أفراد الجماعة قد عرفني برغم تقادم العهد ، كما عرفتهم ، وفكر في أن يصلني بجماعتهم كما فكرتُ ، وأخيرا جاءني أحدهم ، ولم يكد يقف مبتسما الى جوار المائدة التي كنت أجلس إليها ، حتى قفز إلى ذهني اسم « حبيب » ولم أذكر بقية اسمه :

قال : الاستاذ حسام ؟

قلت : نعم ، أهلا بالاستاذ حبيب ، أهلا بصديق الشباب .

قال : أما زلت تذكر اذن ؟

قلت : ما زلت أذكر ؟ وهل أذكر إلا بعض نفسي ؛ فأنت هو أنت كما عهدتك ، لولا هذا الصلع وهذا الشيب في فوديك .

قال : ها هم ثلة من الاخوان ، يريدون أن يحيوك .

فحانت مني التفاتة سريعة ، وملتُ إلى حقيبتي لأحملها ، لكنهم كانوا أسرع انتقالاً إلى حيث كنت ، وسلّموا وجلسوا ، فوضعت الحقيبة في مكانها وجلست ، وصفقت بيديّ في حركة عصبية لأؤدي لهم حقوق الضيافة ، غير أنهم أصروا بأصوات جماعية مختلطة على أنني أنا الضيف ، ضيف المدينة بأمرها .

وبدأت ذكرياتنا عن الماضي تتوارد ، فذكرى تستجلب ذكرى ، وذكر لي أحدهم شيئا عني أول اشتغالي بالتدريس ، وذلك أن ناظر المدرسة — وقد كان موضع استخفاف من المدرسين لتفاهته — قد استدعاني ذات يوم يطلب مني أن أعطي ابنه —

وهو تلميذ في المدرسة — درسا خاصا في اللغة الانجليزية لأن ابنه هذا كان مشكلة عويصة في عجزه عن الكتابة الاملائية الصحيحة ، فلا يكاد يكتب كلمة واحدة برسمها الصحيح ؛

فقلت له : وماذا تريدني أن أصنع لابنك ؟

قال : تُعَوِّده على كتابة الاملاء ، وأنت الرجل « الفني » القدير .

قلت : علاج ابنك هو أن يلعب كرة الطاولة .

قال في دهشة : يلعب كرة الطاولة ليصلح أخطاءه في الاملاء ؟ !

قلت : نعم

قال : وكيف ذاك يا مولانا ؟

قلت : إن ابنك حين يُطلب إليه هجاء كلمة ، تهجاها صحيحة ، فاذا كتب أخطأ ، واذن فالضعف هو في العلاقة بين المخ وحركة اليد ، وقد تنضبط هذه العلاقة بلعبة توثق الصلة بين مركز إصدار الأمر في مراكز المخ وأداة التنفيذ الحركي في الذراع واليد .

وبُهت الرجل لهذا « الفن » التربوي العجيب ، ودارت الرواية في المدرسة كلها ، وأصبحت من النوادر التي تروي ؛ وحتى حين ذكرّني بها هذا الصديق القديم ، انفجرت ضاحكا وانفجر معي بقية الجالسين ؛ وأردفت لهم قائلا : إنني أذكر

جيـدا الآن أنني كنت إلى العبث بالرجل أقرب مني إلى الجـد ، فقــد أردت أن أبين له اتساع الهوة بين جيله من المدرسين غير المؤهلين ، وجيلنا نحن الذي خرج إلى مدارس الأرياف لأول مرة في تاريخ التعليم ، يحمـل معـه علمـا جامعيا وفنـاً تربويا مجتمعين .

وقف الحـديث لحظة ، فانتهزتها ، ووجهت الكلام إلى كامل راغب :

قلت : سمعت أنك يا أستاذ راغب ما زلت في ميت غمر

قال : نعم ، ناظر المدرسة الثانوية هناك .

قلت : لقد كانت خطتي أن أستقل سيارة الآن متجها الى ميت غمر للتفتيش .

قال – وقد ظنني أوجه إليه لوما غير مباشر لتركه مكان عمله – كنت هنا لقضاء أعمال رسمية ، وكانت خطتي كذلك أن أعود الآن .

قلت : اذن هيا بنا معاً .

كان الوقت ظهرا ، وأراد بعض الزملاء استبقاءنا للغداء ، لكني – بعد جهـد – وفقت في التخلص وفي تخليص كامل

راغب ، الذي استمهلني بضع دقائق ، عاد بعدها يحمل حقيبة صغيرة ، وذهبنا معا إلى سيارة تقلنا الى ميت غمر ، فكنا وحدنا في الطريق ، وكانت الفرصة الذهبية أمامي سانحة .

٤

أخذت أنكت الماضي ، وأروي قصة من هنا وقصة من هناك ، ثم قلت متنهدا : هيه ! لكم مرّت عليّ وجوه !

قال مؤيدا : أي والله كم مرت وجوه وشخصيات .

قلت : وما زال الانسان يلقى الجديد ما دام حيا ؛ أظنك كنت في ميت غمر حين جاءكم مدرس اسمه « رياض عطا » .

قال : ومن لا يذكر « رياض عطا » ؟

قلت : أكان غريب الطباع عندئذ كما هو غريبها اليوم ؟ أم جاءه حب العزلة مؤخرا ؟

قال : لقد لفت الأنظار بغرابته منذ اللحظة الأولى ، لكنك لا تكرهه لغرابته تلك ، بل سرعان ما تحبه حين تعرفه .

قلت : أين هو الآن ؟

قال : استقال من مهنة التدريس منذ عشرة أعوام ، وقد بلغني أنه

يكتب ليعيش .

قلت : يكتب ؟ يكتب ماذا ؟

قال : لا أدري ، فلست بمن يعلم الشيء الكثير عن عالم الكتابة والكتب ، ولكني أظنه يكتب في المجلات الأدبية .. وعلى كل حال ، فقد كنا نعلم عنه هذا الميل القوي إلى الكتابة منذ أول عهدنا به .

وسكت الاستاذ كامل راغب قليلا ، ثم استطرد يقول بعد أن ضحك ضحكة خفيفة :

أذكر مرة أنه أثار حوله ضجة كادت تودي بـه في أول اشتغاله بالتدريس ؛ فقد كان يكتب – فيما أظن – مقالات كثيرة في مجلة أدبية كانت صدرت حديثا في تلك الأيام ، ولم نكن نحن نتتبع ما يكتبه إلا عن طريق الإشاعة ، حتى فوجئت المدرسة ذات يوم بخطاب من المدير يطلب من ناظر المدرسة أن يحقق معه في شكوى رُفعت إليه من شيخ أزهري في المدينة كان يعرف باسم « الدكتور غراب » ، وكان الشيخ قد أرفق بالشكوى عددا من المجلة فيه مقالة للاستاذ رياض عطا هذا ، ورد فيه رأى عن أحد الفلاسفة بأن الله لم يكتمل وجوده بعد ، ولكنه في طريق التكوين ، وأنه ليس الصواب هو أن نقول إن الله قد كان ، بل الصواب هو أن نقول إنه سيكون ؛ وكلام كثير من هذا القبيل ؛ فطلب المدير في خطابه أن يُسأل الكاتب

إذا كان يقول كلاما كهذا للتلاميذ ؟

وقـــد ارتعد ناظر المدرسة لهول الواقعة ، ففي مدرسته مدرس ملحد وهو لا يعلم ! وأما الأستاذ عطا فقد كان ثابت الجنـــان ولم يزد في التحقيق على قوله : إن ناقل الكفر ليس بكافر ، وأنه من البديهي أنه لا يقول كلاما كهذا أمـــام تلاميذ مدرسة ابتدائية ؛ وأرسلت إجاباته الى المدير ، الذي أحال الأمر كله بدوره إلى القاضي الشرعي في مديرية الدقهلية ، فأفتى بأن ليس على هذا المدرس لوم ما دام قد اعترف بأنه لا يأخذ بمثل هذا الرأي الذي ينقله ، وبأنه لا يتحدث في موضوعات كهذه أمام التلاميذ .

لكن المسألة وإن تكن قـــد انتهى أمرهـــا من حيث الادارة والتحقيق ، إلا أن نبأها سرعان ما انتشر في المدينة حتى على أفواه عامة الناس ، وأخذوا يروون إشاعات من خلق أوهامهم ، يصفون بها كيف أن الله يرسل لهذا الملحد نذره ليستقيم بعد ضلال ، من ذلك أنـــه كان يسير ذات يوم في شارع السوق والهواء عاصف ، فسقطت كتلة ضخمة من الخشب على بعد قدم واحدة منـــه هاوية من سطـــح مرتفع ؛ فما هو إلا شاع في الناس أن الله جلت قدرته قد أراد أن يتوعده هذه المرة ، فان لم يرتدع أنزل عليه شديد العقاب .

واتجهت الأنظار إلى الشيخ الدكتور غراب ، لترى ماذا هو صانع بعد أن فسدت شكواه الأولى التي طلب فيها من مدير الاقليم أن يعزل المدرس لأنه خطر على أبنائهم ، فأخذ صاحبنا الشيـــخ يترقب فرصة

أخرى ، ومرعان ما سنحت ، ذلك أن المدرسة قد أعدت للبلد برنامجا ثقافيا يلقى فيه مدرسو المدرسة محاضرات عامة ؛ وكان أن اختار الاستاذ رياض عطا موضوع الأحلام وتفسيرها على الطريقة العلمية الجديدة ، قائلا للناس إنها لا شأن لها بالغيب ، وأنها تعكس الماضي ولا تصور المستقبل إلا باعتباره امتدادا للماضي ، مختتما محاضرته بقوله : « فاذا كنت قد هدمت لكم عقيدة راسخة عن نبوءة الأحلام ، فليس الذنب ذنبي أنا ، ولكنه ذنب العلم الحديث » . وكان الدكتور غراب من الحاضرين ، فلم يلبث أن أقامها حربا عنيفة على هذا الذي جاء « ليهدم العقيدة الراسخة » على حد قوله ؛ وبدأت الحرب بأن نهض فورا ليسأل المحاضر : وماذا تقول في تأويل الأحلام على لسان سيدنا يوسف عليه السلام ؟ فأجابه المحاضر على البديهة : لو كان مثل هذا التأويل في وسع الناس كافة ، لما عُدّ معجزة لنبيٍّ من أنبياء الله ، لكن هذه الأمور في مثل هذه الظروف لا تسير بالحجة ، بل تسير بصرخات الانفعال ، وهذا هو ما كان يومئذ ، مما أوقف رياض عطا بعد ذلك موقفا فيه الشهرة وفيه الخطورة في آن معاً .

ولست أدري ماذا كان شعوره الداخلي إزاء هذا كله ، لأنه لم يكن يخالطنا بما يكفينا لنعلم دخيلة نفسه ؛ ولم يمض بعدئذ أسبوع واحد ، حتى فاجأنا بغرابة جديدة .

فقد كان التلاميذ يجتمعون ساعة الغداء تحت سقيفة كبيرة في فناء المدرسة ، وكان كل منهم يجيء ومعه غداؤه منذ الصباح ، ومعظم

التلاميذ من القرى المحيطة بالمدينة ، فثيابهم – كما تعلم – عنوان الفقر كله والبؤس كله ، وكذلك طعامهم الذي كانوا يصرونه في مناديلهم القذرة إلى أن تحل ساعة الغداء ؛ وإذا بصاحبنا يذهب إلى تلك السقيفة ذات يوم ، والأولاد مجتمعون على غدائهم ، فيقف أمامهم صامتا ، ينقّل فيهم عينيه ، ثم يبدأ لهم في درس يعلمهم به كيف يجعلون ثيابهم أقرب الى الذوق الجميل ، وطعامهم أدنى الى قواعد الصحة ؛ وقد خرجنا نحن المدرسين من حجرتنا « لنتفرج » على هذا « الامام الواعظ » ماذا يقول لأطفال صغار ينوء أهلوهم تحت فقر فظيع وجهل أفظع ، فكانت أول عبارة سمعتُها ، قوله : « فلا تختر ملابسك من ذوات الألوان الفاقعة ، ولا تجعلها ظاهرة الخطوط » إلى آخر هذه القواعد التي تفترض أن الطفل السامع في وسعه أن يختار بين ألوان وألوان ، وبين خطوط وخطوط ، كأنه لم يعلم أن سامعيه كانوا من فقر آبائهم بحيث لا يكون في الأمر اختيار بين ثوب وثوب وبين طعام وطعام .

لكنه التعلق بالمثل العليا – والحق يقال عن هذا الرجل – هو الذي أظهره في صورة الشاذ الحالم ؛ إنه يتمنى الأمنية ثم يحاول تحقيقها فيوفق حينا ويعجز أحيانا ، فيأخذه اليأس لعجزه أكثر مما يأخذه السرور لتوفيقه .

لم يكن كثير الذهاب إلى المقهى عندما جاءنا مدرسا ناشئا ، وكان في البلد شبه نادٍ يرتاده الموظفون عادة ، فقصد إليه وحده ساعة العصر

من يوم قارص البرودة ، وأراد أن يأوى من المكان إلى ركن دافىء ، ففتح بابا مغلقا ليجد نفسه في غرفة خالية إلا من قطع الأثاث التي تبدو للرائي على الفور أنها أعدت لفئة ممتازة من المرتادين ؛ ولم يتعب نفسه بالتأويل والتفسير وبالسؤال والجواب ، فحسبه أن وجدها غرفة نظيفة تحقق له الهدوء والخلوة ؛ وما هو إلا أن جاءه المناول — وكان يونانيا — وشيء من الفزع على وجهه ، ففاجأه الأحدب بطلب فنجان من القهوة .

المناول : هل تسمح — من فضلك — بالذهاب الى الناحية الثانية ؟

الأحدب : أية ناحية ثانية ؟

المناول : هناك ، مع الناس ، هناك في القهوة .

الأحدب : وما هذه الغرفة إن لم تكن جزءاً من « القهوة » ؟

المناول : هذه غرفة الحكومة .

الأحدب : غرفة الحكومة ؟ ! ماذا تعني ؟

المناول : أعني البك المأمور والبك القاضي والبك وكيل النيابة والبك الدكتور .

الأحدب : وما رأيك في البك المدرس إذا أراد الجلوس هنا ؟

المناول : ممنوع

الأحدب : اذهب وهات فنجانا من القهوة ، سكّره قليل .

المناول : من فضلك هذا ممنوع ، في هذا ضرر يلحق بي .

الأحدب : اذهب وهات فنجانا من القهوة ، سكره قليل ، ولا تنطق بكلمة واحدة بعد هذا .

ذهب المناول وعاد ومعه القهوة ويصحبه رجل آخر لعله صاحب المقهى ، وحاول الاثنان حمل صاحبنا على العدول عن الجلوس في تلك الغرفة الخاصة ، قائلين له إنه لا مانع من أن يشرب قهوته هناك ، أما بعد ذلك فالأفضل له أن يجلس حيث الناس كثيرون .

لم يلـق لهما بالا ، وأخرج من جيب سترتـه كتابا صغيرا ، وراح يقرأ كأن لم يكن واقفا إلى جانبه أحد .

ولبث هناك نحو ساعة ، والباب مغلق عليه وحده ، واذا بالباب ينفتح فجـأة وبعنف شديـد ، بيد رجـل ضخم دخل الغرفة وهو يضحك بـأعلى صوت تستطيع أن تخرجـه حنجرة بشرية ، ووراءه اثنـان يضحكان معـه في صوت خفيض كأنهما أرادا أن يكونا بمثابـة البطانة الضاحكة الـتي تحيط بضحك الزعيم لتبرزه .. لكن ذلك العجل البشري الهادر المنقضّ على الهواء أمامه كأنه يريد أن يبتلعه كله في جوفه الكبير ، ما كاد يخطو باحدى قدميه داخل الغرفة حتى رأى صديقنا الأحدب بفرد منظاره على عينه اليسرى ، وقد جلس في ركن الغرفة يقرأ ، لا يحرك ساقـا ولا ذراعا ، ولا يخرج عينـه من وراء صفحات الكتاب .

وقف الثلاثة لحظة ، راح العجل البشري خلالها يلفظ من فمه خوارا غير مفهوم ، ثم صفق بكفيه تصفيقا مدويا ، جاء على إثره المناول اليوناني يهرول .

— ما هذا ؟ أيباح للجمهور استخدام غرفتنا ؟

المناول : يا سعادة البك المأمور ، أتعبنا أنفسنا معه فلم يخرج .

المأمور : إذا جاءت بقية الإخوان فقل لهم إننا مجتمعون في منزل البك وكيل النيابة .

وخرج الثلاثة ولم يعودوا ؛ ومنذ تلك الليلة أصبحت الغرفة الخاصة غرفة للمدرسين ؛ فقد سمعوا بالخبر وهم في بهو المقهى ، وجاءوا فجلسوا مع الأحدب يشدون أزره ويؤيدونه ؛ أما الأحدب فلم يكن يعنيه ذلك لأن ارتياد المقهى لم يكن جزءا من حياته ، وأما رجال « الحكومة » فلم يعد أحد يراهم هناك ، وقيل إنهم اتفقوا على أن يجعلوا من بيت وكيل النيابة الأعزب مقرا جديدا لهم .

كانت السيارة قد بلغت بنا مشارف ميت غمر ، فاعتدلت في جلستي وقلت تعليقا على ما قد سمعته طول الطريق : مسكين هذا الفتى ، فلقد صدق ما قلته فيه منذ قليل يا أستاذ راغب ، من أنه يحزن لفشله أضعاف أضعاف ما يفرح لنجاحه ؛ فها هو ذا قد حاول مرارا أن يحفظ لنفسه ولطائفته قدرها وكرامتها ، فكان يوفق فيما يختص بموقف جزئي واحد ، لكنه يفشل في تغيير وجهة النظر عند

الناس ، وهي هي موطن الداء ومصدر العلـّة ؛ فهل يخلق شعبا غير الشعب وقوما غير القوم ، ليستحدث قيما غـير القيم السائدة في تقدير الناس ؟ فأي عجب أن يتورم ظهره بهذا القتب الذي لست أراه إلا مُجمَّاع ما قد شهده المسكين في حياته طفلا ورجلا .

— ها نحن أولاء قد وصلنا يا أستاذ راغب ، ولم يعد في النهار — كما ترى — متسع لزيارة التفتيش ؛ ولكن الليل بيننا طويل ، وأحب أن أسمع منك المزيد .

— ما دمت على هذا الاهتمام بأمره ، فسأهدي إليك تحفة نفيسة ، هي كراسة بخط يده بها مذكرات متقطعة عن نشأته ، لعلها كانت مسودة نقل عنها ثم تركها بين مهملاته .

— إيتني بها معك في المساء ، وإلى اللقاء في « غرفة المدرسين » من ذلك المقهى ، فمن حقه علينا أن نذكره فيهـا الليلة بروح من العرفان بالجميل .

الفصل الرابع

أطلال دوارس

١

أخذت كراسة المذكرات في لهفة شديدة ، لأنني اعتقدت أني واقع فيها على كنز ثمين ، ففي صفحاتها سأشاهد الأحدب وجها لوجه ، فيعفيني مشقة البحث والتنقيب ، ولكني وجدتها ممزقة منقوصة الصفحات مطموسة الفقرات ، مما أكد لي أن كاتبها لا بد أن قد استغني عنها بنسخة عنها أتم وأكمل ؛ أو ربما أحسّ بعبث الجهد في الكتابة عن نفسه ، فكتب ما كتبه ثم مزقه وألقى به في سلة المهملات ، كما يفعل كثير من الأدباء والشعراء حين يقرنون حيواتهم الفانية بالأبدية فيرونها أقل شأنا من أن تشغل الوقت بالكتابة عنها .

ومهما تكن الحال فقد أسرعت العودة إلى الفندق في تلك الليلة ، نافذ الصبر مشوقا إلى استطلاع المنشورات التي بقيت مما كتبه الأحدب ، ولم أنم حتى أتيت عليها تمحيصا وضمًّا لما يمكن ضمّه من أجزائها ، وهأنذا أثبت ما ظفرت به من فقرات مرتبة بحسب

ترقيم الصفحات :

ليست لحظات الزمن في حياة الانسان سواسية كلّها من حيث قوتها في توجيه الأحداث ، وأثرها في تكوين الشخصية وتشكيلها ، فمنها ما قد يمضي ولا أثر له ، ومنها ما يكون له من بعد الأثر وعمقه ما يظل يؤثر في مجرى الحياة إلى ختامها ، ولا عجب أن تجيء حيوات الأفراد متفاوتة الوزن والقيمة ، متباينة الخصوبة والثمر ؛ فمنها ما تتتابع فيه اللحظات على وتيرة واحدة ، حتى لكأنها في نهاية الأمر لحظة واحدة مكررة معادة ، فضلا عما تتصف به هذه اللحظة الواحدة من خواء ، ولذلك فهى حياة تمضى وكأنها لم تكن شيئا ؛ ولكن منها كذلك حياة تجيء لحظاتها ثقالا بأحمالها ، فتمضى تاركة وراءها أثرا يبقى على وجه الدهر أمدا طويلا ؛ وبأمثال هذه اللحظات الحبالى تصنع الحضارات وتبنى .

إن النظر إلى حياة بمجموعة أحداثها ، لكالنظر إلى صورة فنية لايسير عليها البصر في خط مستقيم بادئا من حافة الإطار هنا إلى حافة الإطار هناك ؛ بل إنه ليقع أول ما يقع على نقطة مركزية فيها ، كشجرة فارعة على يمينها ، أو قمة شامخة على يسارها ، أو بقعة لونية في أي موضع منها تلفت النظر إليها لتكون له نقطة ابتداء ، ثم ينساب البصر في مختلف الاتجاهات ، عائداً آنا بعد آن إلى نقطة البدء ؛ فكأنما هذه النقطة المركزية ينبوع تفجرت منه سائر النقاط ؛ وكذلك قل عند النظر إلى حياة فرد من الأفراد بمجموعة أحداثها ،

فهاهنا كذلك يتجه الانتباه إلى لحظات أمهات كانت حاسمة في توجيه صاحب تلك الحياة .

فما هى تلك اللحظات الأمهات في حياتي ؟

ليس منها ساعة الميلاد ، لأن تلك اللحظة جزء من حياة سواى أكثر منها جزءا من حياتي ؛ فقد فُرِضت عليّ ولم أُرِدْها ، ولم يكن لى حيلة في إلغائها أو في إرجائها أو في تغيرها ؛ إنني أحددها بشهادة الميلاد ؛ مفترضا صدق أولئك الذين أملوها والذين كتبوها لأنني لا أملك في دخيلة نفسى شاهدا على صدقها أو على كذبها ، إذ لو احتكمت إلى حياتي من باطن لما وجدت فرقاً بين أن أكون قد عشْتُ على ظهر الدنيا خمسين عاماً أو خمسة آلاف عام ؛ فكل الدلائل التي يُسْتَدَلُّ بها على مدي ماعشته من سنين ، دلائل خارجية عنى ، وليس فيها شاهد باطنى واحد ؛ لأننى إذا ركنتُ في الشهادة على ما تسجله الذاكرة ، ألفيت الذاكرة لا تقفل راجعة إلى ساعة الميلاد ؛ وقصاراها أن ترتد إلى السنوات الأولى بعد الميلاد ثم يكتنف الضباب كل شيىء فيطمسه ؛ وإذن فالأمر كله – بالنسبة إلى ساعة ميلادي – مرهون بشهادة غيرى ، فهكذا يقول الوالدان ؛ وهكذا تسجل دفاتر الحكومة ؛ أليس عجيبا بعد هذا كله أن يتمنى إنسان لو استطاع أن يُمَدّ له في الأجل مائة أو مائتين أو ألفا من السنين ؟ إنه لا يحمل في جوفه دليلا على أنه لم يعش هذا الأمد الذي يتمناه لنفسه ، ولو كان متوحدا معزولا فلم يجد أحدا من حوله يروي له نبأ مولده ونشأته الأولى ، لما كان في وسعه أن يعلم متى ولد وكم عاش .

لا ، ليست لحظة ميلادي من اللحظات الأمهات التي أعنيها ، لأنني لا أعلم عنها شيئا من باطن نفسي ، وكل علمي بهـا آت من سواي ، فهي إذن أقرب إلى أن تكون جزءاً من حياتهم منهـا إلى أن تكون جزءاً من حياتي ؛ ومن بـين مـا يروونه لي أني ولدت في منزل من قرية ، زرته فوجدته بيتا نصفه الأسفل من حجر ونصفه الأعلى من قش وطين ؛ لكنهم إذ يحكون لي أني في هذه الغرفة التحتانية المعتمة ولدت ، وفي تلك الغرفة الفوقانية المضيئة ُختنت ، أحسُّ كما لو كانوا يحكون لي تاريخ طفل لا شأن لي به الآن،فليس في جسدي اليوم خلية واحدة من خلاياه التي ولد بها ، ولم تكن في رأسه عند ولادته فكرة واحدة مما هو في رأسي اليوم .

إنه لوهم غريب هـذا الوهم الذي يوهم الانسان باتصال شخصه من لحظة الميلاد إلى لحظته الراهنة ؛ نعم إنها وسيلة نافعة لغيري من الناس ان يعدُّوني فردا واحدا متصل الحياة ، بدأ في اللحظة الفلانية ولبث يتنقل هنا وهناك حتى انتهى إلى ما هو عليه الآن ؛ أقول إنها وسيلة نافعة للناس لكي يسهل عليهم عَدُّ الافراد عند الإحصاء ؛ ولكن ما لي أنا وما ينفع الناس عند العدِّ والحساب ؟ المرجع عندي هو خبرتي كما أحياها واعياً بهـا ، وليس ذلك الطفـل الذي يروون لي عن زمان مولده ومكانه جزءاً من تلك الخبرة الحية الواعية ... ...

٢

العجيب أني حينما أعود بالذاكرة إلى سني الطفولة الأولى ، فسرعان ما أصطدم بشخصية أبي تمـلأ مسرح الحوادث ؛ ولكني مهما حاولت

فلا أعثر على صورة أمي عندئذ ، فأين كانت ؟ هل كانت من الخفاء والانطواء بحيث تنمحي من صفحة الذاكرة فلا يسمع لها صوت ولا يظهر لها أثر ؟

والحق أن اختلاف الخصال كان بعيدا بين أبي وأمي ؛ فهو منبسط لا يكاد يخفي من نفسه شيئا ، وهي منطوية لا تكاد تظهر من نفسها شيئا ؛ هو لا يخشى الناس ولا يفر منهم ، وهي تخشاهم وتفر ؛ هو حريص على إثبات وجوده وهي أحرص على إنكار وجودها ؛ هو لا يضحي بنفسه إلا قليلا ، وهي تضحي بنفسها بحيث لا تُبقى لنفسها إلا قليلا ؛ يغلب عليه المرح الصاخب إلا في ساعات قليلة تراه قد سكن وكأنما هو غارق في فكر عميق ، ويغلب عليها الهدوء الصامت في غير جهامة وعبوس ، إلا في ساعات قليلة تراها قد أخذت تصيح زاعقة في هذا أو في هذه ، كأنما تُنَفّس عن طاقة مكبوته ؛ كلاهما يتعبد ويؤدي الشعائر كلها ، لكني طالما أحسست أن تعبُّده موجات على السطح ، وأما تعبُّدها فخفقات من القلب ؛ يثور على الناس فتهدئه ملتمسة لهم الأعذار ، حتى أطلق عليها أبي اسم « الهلباوي » مشيرا بهذا إلى نهوضها للدفاع دائما ، وأما هي فاذا ثارت على أحد من الناس فانه ينفخ لها في النار لتزداد اشتعالا . . . نعم قد كان اختلاف الخصال فيهما بعيد المدى ، ولكن هل بلغ ما بينهما من حدة التباين أن حفظت ذاكرتي كثيرا عن أبي وأوشكت ألا تحفظ شيئا عن أمي ؟ إنه مهما تكن حقيقة الأمر ، فيقيني هو أني عن أبي أخذت الذكاء وعن أمي أخذت الخُلُق ؛ عنه أخذت النفس القلقة الطامحة في عجز ، وعنها

أُخذت الرغبة في التخفي عن قناعة ورضى ؛ ومن مزج النقيضين وقع الصراع .

٣

... ... التشاؤم والانطواء صفتان في حياتي بارزتان ؛ فمن شأن المتشائم اعتقاده بأن نتائج الأشياء وأواخر الأحداث عبث كلها في عبث ؛ اعتقاده بأن الحياة عملية معقدة من جمع وطرح وضرب وقسمة ، فيها أعداد صحيحة وفيها كسور ، وفيها ربح وفيها خسارة ، لكن الناتج النهائي صفر دائما ، لأن الناتج النهائي عدم محتوم ؛ إنه سيجيء اليوم الذي تبرد فيه الشمس ، وعندئذ تتعادل حرارة الكون شمسا وأرضا ، وعندئذ تكف الأرض عن دورانها ويسكن كل شيء في مكانه ، فلا نماء ولا دثور ، ولا حياة ولا موت ، ولا ليل ولا نهار ، ولا صيف ولا شتاء ، ولا ريح ولا مطر ... فأين عندئذ يكون فرد من الناس بكل ما قد بذل من جهود وما قد حقق من نجاح ؟

وهكذا تراني أنظر إلى الأشياء وإلى الأحياء وإلى المواقف وإلى الحوادث ؛ ولكنها نظرة لا تمنع عندي جهاد الحياة ولا تحول دون السعي نحو التقدم ، بنفسي وبغيري من الناس ؛ برغم كوني أحس في أعماق نفسي أنه جهاد وأنه سعى تمليهما ضرورة الحياة ما دامت الحياة قائمة ؛ وأما الحياة نفسها فهي — كما قال المعري — عبث ، لكني لا أعجب — كما يعجب المعري — من راغب في ازدياد من ذلك العبث

لأني أعلم أن « الرغبات » شأنها شأن العقل في كونها من صميم الحياة ولبها ، فليس من حق العقل أن تكون له وحده الكلمة فيما يُعمل وما لا يعمل ، لأن « للرغبة » اللاعقلية مجالها ، وها هو ذا المعري قد أملى عليه عقله أن الحياة عبث كلها ، وأنه إنما يعجب من راغب في ازدياد من ذلك العبث ، فهل كفّ المعري نفسه عن « الرغبة » في الزيادة ؟

على أن نظرتي المتشائمة هذه كثيرا ما تقتضيني أن أسارع إلى استحضار الضد الأسود أمام ذهني كلما مرّ بخاطري ضده الأبيض ؛ فاذا كان لي نجاح في أمر ، سارعت إلى ذكر ما أصابني من إخفاق في أمور أخرى ؛ أنظر إلى المرأة الجميلة فأقول : ولكن جوفها يحمل العَفَن ؛ وأنظر الى الطير الصاعد فأقول : إنه لا بد بعد صعوده هابط ، واختصارا فإني أنظر إلى كل إناء ملىء إلى نصفه فأقول : لكنه كذلك فارغ في نصفه الآخر — وهي بغير شك نظرة معوقة لصاحبها في ركب الحياة ، لكنها هي نظرتي .

وأما انطوائي فهيهات أن يرى منه الرائي بمقدار ما أحسّه في باطني ، لأن فيما يراه مني الرائي تكلفا وتصنعا قد يَخْفَيَان إلا على الخبير بطبائع الناس ؛ إنني كلما عدت إلى داري بعد عمل اليوم أحسست — وأنا أغلق الباب من دوني — بنشوة العائد الى مكمنه بعد أن تعرض لأهوال الغابة ؛ ولست أعرف كيف يحس الأرنب المطارد حين يلوذ بجحره ، لكنني كلما عدت إلى داري بعد عمل

اليوم ، ارتسمت في ذهني صورة لأرنب راجف ، عادت إليه الطمأنينة بعد أن لاذ بمأواه ؛ إنني لأخاف الخروج من مكمني كما يخاف العليل برئتيه أن يُعَرِّض نفسه للفحة البرد .

وقد أتشجع فأواجه الناس ، لكنني وحدي أعلمُ الناس بما يرتجف من نفسي عندئذ ، فمثل هذه الشجاعة الظاهرة كثيرا ما تكون خجلا معكوسا ؛ قل إنه ضعف ، وقل إنه مرض ، لكن هو الواقع على حقيقته — ومرة أخرى أقول إنها طبيعة معوقة لصاحبها عن السير السريع في ركب الحياة ، لكنها هي طبيعتي .

ماذا تظنني أمرح إليه حين أسترسل في أحلام يقظتي ، لا أقول مرة في الشهر ، ولا مرة في الأسبوع ، بل أقول مرة أو عدة مرات كل يوم ؟ إنني في أحلام يقظتي أسرح باحثا عن مكان ملائم ألوذ به لأعيش هناك في عزلة الرهبان : هل أختبىء في غرفة من مكان مجهول على شاطىء البحر — لأني أضيق بالحر ضيقا شديدا — ؟ أو هل يكون مخبئى في موضع من الصحراء ؟ ولكن أين ؟ أيكون في دير من أديرة الرهبان النصاري ، وهل يجوز يا ترى للمسلم أن يعيش مع رهبان المسيحية في أديرتهم دون أن يُشابَ إسلامه بشائبة ؟ ... صور من هذا القبيل تتلاحق ، وأظل في كل صورة منها أعيش مع الخيال برهة لأحسّ حسناتها وعيوبها قبل أن أنتقل إلى الصورة التي تليها — لكنها أحلام يقظة لا ألبث بعدها أن أمارس عملي كأنني مقبل على الحياة مع المقبلين .

إنه لا تناقض بين أن يميل المرء بوجدانه إلى شيء ، وأن يخضعه بعد ذلك لتحليل العقل فلا يجده على ما كان الوجدان قد صوره ، وعلى ذلك فلا تناقض بين أن أختار لنفسي – بالوجدان – أن أعيش منطويا على ذاتي ، غاضًّا نظري عن الدنيا التي حولي ، وبين أن أرى بعقلي بعدئذ أن دفعة الحياة تقتضي أن نخرج من ذواتنا إلى حيث الأشياء المادية المحسوسة ؛ فكأنما أريد الحالة الوجدانية الأولى لنفسي، وأريد الحياة العقلية الثانية للناس .

هأنذا أُشهد الله والناس أني ما قرأت مرة عن المتصوفة في صدورهم عن عرض الحياة الدنيا ، وفي ازدرائهم لشهوات الجسد وإشباعها ، إلا ووجدت لهم في أغوار نفسي صدى عميقا ، كأن هذه النفس قد أُعدت وهيِّئت لمثل هذه الحياة العزوف ؛ ومع ذلك فانني أتمنى أي شيء لقومي إلا أن يسود فيهم هذا العُزوف عن تيار الحياة الحسية المادية العملية العقلية العلمية ، التي تعنى كل العناية بتطبيقات العلوم على الزراعة والصناعة وباصطناع القوة المادية في شتى مظاهرها – وهكذا ترى وجداني على هوى وعقلي على هوىً آخر ، ولا تناقض بينهما ما داما يجيئان على تعاقب .

٤

... ... إنني حتى الخامسة من عمري لم أكن – فيما تعيه الذاكرة – قد شعرت بأني عضو من أسرة ، تربطني بأفرادها علاقات تختلف باختلاف مواقفي من أفرادها ؛ فكلما تذكرت نفسي في

الخامسة أو قبلها ، تذكرت كيانا مستقلا بذاته ، يرتبط بغيره من الأفراد ارتباطا خارجيا لا ارتباطا باطنيا .

أما حين أنتقل بالذاكرة إلى عامي السادس وعامي السابع ، فإنني أتذكر على الفور أنني جزء من جماعة ؛ فقد كان أبي قبل ذلك هو الشخص « الآخر » الوحيد الذي يكوّن مع وجودي محورا أدور حوله أو أسير بإزائه عن خوف أو عن رضى ؛ أما الآن — في العام السادس وما بعده — فأمي قد أخذت تظهر بوضوح ، وكذلك أخي ، وكذلك عمي وامرأة عمي وأبناء عمي ، وكذلك نفر من ذوي القربى كانوا يعاودون زيارة بيتنا زيارة تقصر حينا ، وتدوم عدة أيام حينا آخر .

وإنما يعين الذاكرة على انتقالها هذا بين المرحلتين المتعاقبتين : مرحلة الكائن المفرد ، ومرحلة الكائن الاجتماعي ، انتقالنا المادي عندئذ من بيت إلى بيت ، فقد انتقلت الأسرة .. والأسرة إلى ذلك الحين معناها أبي وعمي ومن يتبعهما — انتقلت إلى مسكن آخر في حارة السناجرة — أو ما كان يسمى بهذا الاسم حينئذ بالقرب من مسجد السيدة زينب ، لأن القاهرة قد تبدلت في يومها عن أمسها ، فاتسعت شوارع لتبتلع ما كان يصب فيها من الحواري — انتقلت الأسرة إلى مسكن آخر ، وفي هذا المسكن الجديد تحددت الروابط بيني وبين أبي — وقد كانت لها بدايات سابقة — وبيني وبين أمي ، وبيني وبين أخي بصفة خاصة ؛ فلأول مرة أشعر بوجود أمي معي ،

تحميني دون أن تقتضيني مقابل هذه الحماية خوفا ، فلم أكن أبـــدا لأخشى بـأسها مهما يكن ما اقترفته جسيما ، وذلك برغم صرامتها في معاملتي ضربا و « قرْصاً » وشتما وزجرا ؛ لكن هذا كله منها كان كالموج الذي يُطمْئِنُ السابح على حياته بدفعه إلى شاطيء الأمان ولا يهدده بالغرق ؛ ولقد لبث هذا هو الفارق الواضح بـين علاقتي بأمي وعلاقتي بأبي : كلاهما يحمي ، لكنه — دونها — يتوقع مقابلا لحمايته فزعا منه وخشية لبأسه مما كان يسميه « أدبا » .

وكذلك تحددت عندئذ علاقتي بأخي على نحو لم يتغير قط مـــع تقدم السنين ، فكأنما نحن منذ تلك السن الباكرة قد تعاقدنا تعاقدا صامتا غير منطوق ولا مكتوب ، أن يكون كل منا حليفا للآخر فيما عسى أن تفاجئنا به الأيام من هجمات المهاجمين ، والمهاجم الخارجي قد يتغير نوعه ، لكن موقفنا في التحالف ثابت ؛ فكل منا يطلع أولا فأولا على ما يقترفه الآخر من زلات العصيان ، لكن أحداً منا لا يشي بالآخر عند الوالدين أو عند غيرهما ممن يعنيه الأمر ؛فاذا سئل أيٌّ منا عن خطأ وقع : من فعل هذا ؟ أجاب : لا أعرف ، وتكون النتيجة دائما أن يُضْرَبَ كلانا ؛ فقد كان أخي مغرما بكشط قطـع الأثاث بالمبراة ، لا يردعه عن فعل ذلك توعد ولا وعيد ، لكنه كلما كشَطَ ، وسُئِلتُ : من ؟ أجبت : لا أعرف ؛ وكذلك حدث مرة أن اشتروا له معطفا جديدا ولم يشتروا لي نظيره لجدّة معطفي ، فقصصت معطفي بالمقص شرائط شرائط ، حتى أرغمهم على شراء معطف آخر ، وسئل وسئلتُ : من ؟ وكان الجواب من كلينا : لا أعرف ، فنال العقاب منا

على السواء ، على الرغم من أنهم يعلمون أتم العلم أنه هو كاشط الأثاث ، وأنني أنا الذي قصّ المعطف .

هكذا تآزرنا على الخير وعلى الشر منذ تلك السّنّ البعيدة ، كما يتآزر المعرّضون لخطر مشترك ؛ وتلازمنا قياما وقعودا ومشيا وجريا وخروجا ورجوعا ولعبا وجدا ، حتى تلازم اسمانا على الأفواه ، فلا ينطق أحد باسم أحدنا غير مقرون باسم الآخر ، فيقال « رياض وعماد » — لا ينفصل شق فيه عن شق إلا إذا نودي أحدنا بحرف النداء .

ولعل حارة السناجرة التي سكنّاها عندئذ أن تكون الحارة الوحيدة في حياتنا التي نزلنا بها لنلعب مع أطفال الجيران ، وحتى عندئذ فقليلا ما فعلنا ، ومن طريف ما أذكره في هذا الصدد أن أفراد الأسرة جميعا قد ذهبوا لبعض شأنهم ذات عصر ، وتركوا معنا مفتاح البيت ، على أن نلعب في الحارة مع الأولاد إلى أن يعودوا ؛ ولست أدري أي فكرة مجنونة طافت برأسينا عندئذ ، أن نقيس مقدار شجاعتنا بأن نعري جسدينا ونسير هكذا في مواجهة الأولاد لنرى ماذا في وسعهم أن يصنعوا ؛ لكننا وجدنا من سخريتهم ما لم نحتمله ، فصممنا أن نسارع الى العودة الى دارنا ؛ ونبحث عن المفتاح فاذا المفتاح مفقود ؛ فوقعنا بين نارين : حملة السخرية التي أخذت تشتد كلما ازددنا أمامها ضعفا ، والقلق الشديد المهموم المغموم على هذا المفتاح الضائع ، وربما كان ذلك من أول الدروس التي لقنتنا إياها الحياة

الاجتماعية فيما ينبغي أن تكون عليه علاقة الفرد بالمجتمع ، فإما أن تكون متجانسا مع الآخرين إذا أعوزتك قوة المقاومة ، وإما أن تتصف بالجرأة المتبوعة بصفاقة الوجه إذا أردت أن تتفرد وحدك بسلوك خاص ؛ أما أن تتحدى المجتمع بالعصيان الذي يأبى التجانس دون أن تكون مزودا بما يلزم هذا من سلاح المقاومة ، فذلك إنما يؤدي بك حتما إلى اختلال في اتزان عناصر النفس ، ومن ثم إلى صراع داخلي فانطواء ؛ وما هي إلا أن عادت طلائع الأسرة الغائبة لتُصدم بهذا الموقف الغريب ، وراحت عيونهم تلفظ أوار الغيظ الكظيم ، تمهيدا لما هو لاحق بنا حتما إذا ما انفتح الباب ودخلنا ؛وجيء بنجار ، وكسر الباب ، ودخلنا ، وكان ما كان من عصيٍّ تهوى على جسدينا العاريين .

وفي تلك الفترة من عمري دخلت المدرسة الأولية ، وكان اسمها مدرسة السلطان مصطفى ، عند مدخل حارة الكاشف بجوار المدرسة السنية للبنات ؛ وهي دار أثرية قديمة ، ولا أذكر منها شيئا إلا سلالمها التي كانت تبدأ من الباب الخارجي مباشرة — فليس للمدرسة فناء ، وكان التلاميذ الصغار يتجمعون في حارة الكاشف ، المحظوظ منهم يأكل البليلة وغير المحظوظ تأخذه العزة فيبعد ، أو لا تأخذه فيقترب سائلا — وكانت السلالم عالية الدرجات على من كان في مثل عمرنا ؛ وكذلك أذكر شعاعا من الشمس ساعة العصر ينفذ من جهة الغرب خلال النافذة ذات الزجاج الملون ؛ كنت أرتقب سقوط هذا الشعاع على درجي كل عصر فارغ الصبر ، ولا أدري هل كان ذلك بسبب

الألوان الجميلة التي كان يلقيها ذلك الشعاع أمامي ، أو كان ذلك لأ علامة على دنوّ ساعة الانصراف .

وعلى أي حال فقد كان ارتفاعي في درجة الوعي عندئذ بما يشبه القفز والطيران ؛ ففي عام واحد أو عامين ، انتقلت انتقالا كالمفاجىء من طفـــل لا يعي إلى صبي تفتحت حواسه ، ولا أدَلّ على ذلك من متابعتي لمـــا كان يقوله ابن عم لي وابن عمة يكبرانني بخمسة أعوام ، وكانا عندئذ تلميذين في مدرسة محمد علي الابتدائية ، فكانا يفخران أمامي بما يعلمانه مما لست أعلم : كلمات انجليزية وعبارات ؛ فكنت أسارع إلى حفظها عنهما لأسايرهما فيما يعلمان .

لكن الذي لم أستطع قط أن أسايرهما فيه ، هو ما كانا يسميانه « مطارحة » بالشعر ، فيقول أحدهما بيتـا من الشعر ، لـــيردّ عليه الآخر ببيت يبدأ بالحرف الذي انتهى به البيت السابق ؛ فمن أين لهما بهذا الكلام ؟ أين يجدانه وكيف يحفظانه ؟ وقـد مضيت الآن منـذ ذلك العهد عشرون عاما ، وما زلت أذكر بيتا قـــاله أحدهما في المطارحه وأعجبني لفظه فحفظته عنه لساعته ، فرسخ في الذاكرة — وذاكرتي يغلب عليها الضعف — لسبب لا أدريه ، وهو :

نونان نونان لم تكتبهـما قـلم   وفي كل نون من النونين عينان

حفظته ولم أعلم ماذا عساه يعني ، بل لا أظن أن قائله كان يعلم .

كذلك تحددت في تلك الفترة من العمر علاقتي بالجنس الآخر ، بمعنى أنني أدركت إدراكا واضحا ماذا يكون بين الجنسين في تستر وخفاء ؛ فلست أنسى ذات مساء والبيت يعج بزواره ، كيف اتفقت مع طفلة من الأسرة الزائرة أن نلعب زوجا وزوجة ، وانثنينا إلى غرفة بعيدة عن الأعين ، وأغلقنا من دوننا بابها ؛ ولم أكن أعلـّم الطفلة من قواعد اللعبة أكثر مما علمتني ، ولم تكن تعلمني أكثر مما علـّمتها ؛ فالطفل والطفلة كلاهما – وهما في السابعة أو نحوها – كانا يعلمان ما يكفي ؛ كما حدث في هذه السـّنّ نفسها أن سافرتُ مع أهلي إلى القرية لنقضي إجازتنا بها ، وكنت في الضحى ذات يوم ألعب على سطح الدار مع طفلة ريفية من الجيران ؛ فما هو إلا أن تفاهمنا ، وكان إلى جوارنا « سحارة » كبيرة عميقة ، بابها مربع خشبي صغير يغطي فتحة على وجهها الأعلى ، فقفزنا إلى سطح السحّارة ، ورفعنا بابها وهبطنا واثنين إلى جوفها ؛ ولكن كيف الخروج والسحارة عميقة كأنها البئر ؟ وعبثا حاولنا ، فكان لا بد للسر أن يفتضح ، فأخذنا ندق جوانب السحارة بقبضات أيدينا ، ونركلها بأقدامنا ، ونصيح في بكاء الفزع ، حتى سَمِعنا مَنْ سَمِعنا ، وانتشلنا ، وما كادت القصة تسري ، حتى كانت الضحكات من هذه « الشقاوة » ؛ ولكن هل أدرك الراشدون مدى ما قد ذهب إليه لهو الطفلين ؟ لا أظن ذلك – وهذه هي براءة الأطفال ، وهذه هي طهارة الريف ، وتلك هي سذاجة الراشدين .

هكذا كملت جوانب الشخصيه الاجتماعية بين السادسه والسابعة ،

وتحددت لها طرائق مختلفة في ردود الأفعال لمختلف البواعث ؛ أو قل هكـذا نشأت بمجموعـة الأشخاص الـتي تكوّن جوانب نفسي « الواحدة » ، وما كان على الأيام بعـد ذلك إلا أن تطرد هـذا الذي بدأ : فموقفي إزاء أبي هو هو نفسه موقفي إزاء كل سلطان متحكم ، أثور عليـه في داخـلي تارة ، وأنفجر بالثورة العلنيـة تارة ؛ وأكتب لأهدم ما أراه طغيانا — سواء في ذلك الأشخاص أو النظم — فتجيء الكلمات كأنها شواظ وشرر ؛ وكثيرا ما دهش من لم يكن يعرفني ثم رآني ، فرأى شخصا تغلب عليه الوداعة والهدوء ، فكيف يمكن أن تجيء تلك الثورة من هذا المستكين ؟ وموقفي إزاء أمي هو موقفي من الصديق أحبه حبا خالصا غـير ممزوج بالحذر والخوف ، وهو الموقف الذي أقفه ممن تربطني بهـم علاقة الود وأصطفيهم دون سائر المعارف ؛ وموقفي من أخي هو نفسه موقفي من نفسي ، أُسِرُّ إليه بما لم أكن أسر به الى أب أو أم أو صديق ، أطلب منه النصح جادا ، وأعتصم بـه آمنـا ؛ وموقفي من أقربائي الذين كانوا يكـبرونني ويسبقونني في مراحل التعليم ، هو موقفي من كل سابـق في طريـق العلم ، أجدُّ السير لألحق به ؛ وأما موقفي من الجنس الآخر ، فبرغم العبث الطفلي الذي عبثت بـه مع الطفلتين إلا أنه سيتحدد بفعـل شيطانة من الجن في سنّ المراهقة .

إنهم يَصْدُقون حين يقولون عن الأسرة إنهـا نواة المجتمع ، لأنهـا هي المجتمع الصغير الذي يتعامل الطفل مع أفراده ، فيعامل كلا منهم

بما يحقق له صالحه كما يتصوره ، يحب هذا ويخشى ذاك ، ويخلص الود هنا ويمكر بالحذر هناك ، حتى اذا ما خرج إلى المجتمع الكبير ، جسَّد في مواقفه وفي ناسه ما كان قد لقيه في المجتمع الأسريّ الصغير ؛ فكم ثائر ثار على الدنيا حتى غيَّر وجهها ، تراه – اذا ما رددت ثورته هذه الى أصولها – إنما يثور في الحقيقة على أب طغى به وهو صغير ، فانتقم منه في سواه حين استطاع ؛ وقد يجيء هذا الانتقام المقنَّع خيرا فيكون صاحبه من الأبطال المصلحين ، أو قد يجيء شرا فيكون من المفسدين ؛ وكم ملحد أنكر وجود الله إذا ما رددت إلحاده هذا وإنكاره الى أصولها ، تبيّن كذلك أنه في الحقيقة يريد أن يكفر بالوالد أو بالمعلم الذي أغلظ له القسوة وهو ضعيف ؛ وهكذا حلّل حب المحبين وكراهية الكارهين وعبادة العابدين وزهد الزاهدين ، وحلّل نشاط العالم في معمله ، والرحالة في ارتياده للمجهول ، تجد كل ذلك امتدادا لأصول نشأت في النفس وهي ناشئة بين رعاتها ولداتها ، فكان ما كان بعدئذ من خسّة هنا ومجد هناك . . أتقول لي : لكن هذه نظرة متشائم إلى القيم الانسانية العليا ؟ لكن كانت كذلك ، فلا حيلة لي في نظرتي المتشائمة ، لأنها وليدة حياتي التي عشتها حتى بلغت السابعة أو نحوها .

٥

انتقلت الأسرة إلى السودان والصبي في تاسعته ، كان له ما كان من

أحداث الحياة ، لكنه ذهب والأحداث مكنونة في جوفه لم يظهر بعد منها شيء على ظهره ؛ ذهب والظهر معتدل وعاد والظهر مقوس معوج ؛ لقد طفح الداخل إلى خارج وتكور .

الشمس فوق رأسي كأنها عين فتحت في جهنم ! ذلك هو أول انطباع تلقيته في الطريق من المحطه إلى المنزل ، إذ جلست فوق الحقائب المحملة على عربة لأحرسها ؛ ولست أذكر بعد ذلك شيئا سوى أنني أرقد مصابا بضربة الشمس تحرسني عناية الأبوين نهارا وليلا لبضعة أيام ؛ صحوت بعدها وجُلْتُ قليلا ، فتبينت أننا قد انتقلنا من الظل إلى الوهج ، ومن رطب إلى يابس ، ومن حركة إلى سكون ، ومن غزارة حياة وصلات إلى تخلخل وتفرّق ؛ فالمسافة بين بيت وبيت هنا أبعد ، وبين دكان ودكان أطول ؛ والناس قليلون والأفراد متناثرون ، والشارع ميدان والميدان فلاة ، والمشي كأنه وقوف والجلوس كأنه رقاد ؛ وشدة الحر تزيد الناس بعثرة بعضهم عن بعض ، لأنهم لائذون بالسقائف ، حتى ليتعذر على الخيال أن يتصورهم « جمهورا » بمعنى الحشد المتجمع في مكان ، كما يتعذر على العقل أن يتصور قيام رأي عام ينتقل بين الأفراد بطريق العدوى ؛ وفي ظني أن ظروفا للعيش كهذه من شأنها أن تزيد من اعتداد الفرد بنفسه وبفرديته ، لقلة صلته الطبيعية القريبة بسائر الأفراد ، وبالتالي فهي تقلل من استعداده للتفاهم السهل مع سواه ؛ فعوامل تكوين « الرأي » الواحد هنا مفرقة مبعثرة ، وحوافز التفكير واهنة ، لأنه لا تفكير بغير مشكلات ، وإذا قربت الحياة من البساطة فلا مشكلات .

أنا لا أتحدث عن السودان الآن ، لكنني أتحدث عن موقف الصبي الذي ذهب إليه وهو في التاسعة ، وكان ذلك منذ أمد بعيد ، ذهب إليه وإحدى قدميه ما تزال مغروسة في أرض الطفولة ، والأخرى أخذت تخطو نحو نضج الشباب الباكر ؛ وقــد بدأت خبرات الصبي هناك بموقفين متضادين في آن واحد ، كان في أحدهما طفلا لاهيا وكان في الآخر إنسانا مسئولا .

فأما أولهما ففي الكتّاب الذي أُرسلنا إليه لنقضي بعض أشهر حتى يبدأ العام الدراسي في كلية غوردون ؛ وفي الكتّاب عرفت ما « الفلَقة » وعذابها ؛ فالكتّاب كله غرفة واحدة لا أذكر أن لهـا نوافذ ، يفتح بابها على سقيفة مفروشة بالحصير ، ولذلك فهي — أعني السقيفة — مضيئة وللهواء فيها حركة ، إذا قيست إلى الغرفة في ظلمتها وسكون هوائها ؛ وتحت السقيفة كان يجلس الشيـخ الدرديري — صاحب الكتّاب والقائم فيه بالتعليم كله — وإلى جانب مقعده منضدة وطيئة عليها ُقلّتان ؛ وحدث ذات صباح أن وجدت المقعد خاليا من شيخه ، ورأيت القلّتين تلمعان بما يبلل سطحيهما من مـاء ، فأخرجت من جيبي قلما من أقلام « الكوبيا » وطفقت أخطّ به على القلتين ، ولم أكن أتوقع أن أجد هذه المتعة كلها في التخطيط بالقـلم « الكوبيا » على سطح مبتـل ، فانطلقت أرسم الأشكال وأكتب الأحرف ، فتسيـح الخطوط وتتشابك في زخرف جميـل ؛ وهـنة « طبّ » الشيخ فجأة ، فأخذته صاعقة لمـا رأى ، وأمر فَمُدّت

« والفَلَـقة » ورُبطت فيهـا قدماي ، وطُرحت على الأرض ظهرا ، ورُفعت القدمان مزمومتين في شِقَّـيْ الفلقة ، والفلقة يحملها ولدان أمسكها كل منها بطرف ؛ والشيخ الدرديري يهوى عليَّ بالسوط في غير رحمة كأنما نسي أنهما متصلتان بكائن حي ، وعـــدت إلى البيت مورَّم القدمين ... وغير هذا الحادث لا أذكر من هذا الكتّاب شيئا ، إلا أن زائرين كثيرين كانوا يزورونه ، فإذا دخل الزائر انتفضنا واقفين واضعين أكفّـنا الصغيرة على جباهنا « تعظيم سلام » ، مرددين في صوت عالٍ بيتين حفظناهما لهـذه المنـاسبات ، أظنهما يجريان هكذا :

من نال العلم وذاكره — حسنت دنياه وآخرته

فحيـاة العـلم مذاكرة — وحياة العـلم مذاكرته

نمطُّ الهاء في آخر الشطر الأول مطًّا منغما موصولا بالشطر الثاني ، وكذلك نقف قليلا عند التنوين في آخر الشطر الثالث وأخيرا نجعل الوقف على الهاء الأخيرة كضربة الطبل معلنة ختام التحية ؛ وعندئذ نؤمر بالجلوس .

وأما الموقف الثاني الذي وقفت فيه موقف رجل مسئول ، فهو أن لصوص المنازل قد كثروا خلال ذلك العام كثرة قيل إنها لم تُعهد من قبـل ، وكان مردّ الأمر إلى قـلة في المطر وقحط في المحصول ، وما يتبع ذلك من عوز وجوع ؛ وقد رأى الموظفون – ومنهم أبي –

أن يساعدوا رجال الشرطة بأن يكونوا من أنفسهم دوريات تجوب الشوارع أثناء الليـــل ، لتُفْزِعَ اللصوص كما تُفْزِعُ العصافير من فوق الغصون بقرعات خفيفة على الصفيح ؛ فلصوص ذلك العـــام لم يكونوا لصوصا محترفين لهم جرأة وتدبير ، بل كانوا لصوصا تدفعهم الحاجة الماسّة العاجلة إلى أي شيء يؤكل أو يُلبس أو يباع ، إلى أقل شيء ، إلى رغيف يأكلونــه ، إلى قميص يلبسونه ، إلى إناء يخطفونــه ليبيعوه في السوق برغيف أو قميص؛ وإذن فتخويفهم أمر ميسور تكفي له هذه « الدورية » من الموظفين تجوب شوارع المدينة ليلا .

لكن كان لا بد للبيوت كذلك من حراسة بالليل ؛ فعلى كل أسرة أن يتناوب أفرادها في اليقظة لتكون هنالك العين الساهرة دائمـا ، والشاخصة نحو الأسطح وحوافي الجدران الخارجية ، فاللص إما أن يهبط إلى فناء الدار من سطح الغرفات — والدور كلها من طابق واحد يتوسط غرفه فناء يحيط به السور الخارجي — وإما أن يهبط إليـــه واثبا فوق السور المحيط به ؛ وكان يقال لنا إن أقل صوت يصيح به الحارس اليقظان إذا رأى لصا يهمّ بالهبوط إلى الفناء ، كافٍ لتخويفه فيفر كأنه الظل يختفي بلا صوت .

ومن ذا في بيتنا تقع عليه هذه الحراسة سواي ؟ إن أخي أصغر من أن يوكل إليه هـــذا العمل الجريء ، وأمي وحدها لا تغني لأنهم يريدون للحراسة « رجلا » ؛ و « رَجُل » البيت في غيبة أبي هو أنا الصبيُّ ذو الأعوام التسعة ، لأنني أنا « رشيد العائلة » كما كان يحلو لأبي

دائما أن يقول ؛ كان عليّ إذن أن أقف في وسط الفناء ، ممسكا بيدي حطبة من حطب الموقد — وحطب الموقد هناك قطع غليظة من فروع الشجر الجافة — وأظـــل أتطلع بعينيّ إلى حافة السطح وإلى حوافي الأسوار ؛ وإنني لأكتب هذه الأسطر الآن وما يزال في نفسي مزيج المشاعر التي كانت تملؤني أثناء عملية الحراسة بضع ساعات من كل ليلة : فشجاعة ٌ مصطنعة تجعلـني أشدُّ بقبضـتي على الحطبة الخشنة ، وزمٌ للشفتين وحبْسٌ للأنفاس ، ودفعٌ بالصدر إلى أمام ، وتثبيت للقدمين على الأرض ، ووراء كل هـــذا رجفة الخوف تعتريني من الرأس الى القدم ؛ وماذا تتوقع من صبي صغير أُمر أن يضع في إهابه رجلا ؟ إنه لا مناص من أن تكون الرجولة البـــادية الظاهرة مُبَطَّنَة بطفولة خافية مستترة ... ألا ما كان أرهبها من لحظة تلك اللحظة من جوف الليل الساكن ، التي نظرت فيها إلى حافة السطح المطلة على الفناء ، لأشهد ساقين تدلتا وجذعا في سبيله إلى الظهور ، ولم تكن بعدئذ إلا حركة واحدة من الواثب ليكون معنا في فنـــاء الدار ؛ فارتعشت ركبتـاي ، وزعقت في صوت مكتوم مـــاتت حروفه في حلقي ، ولكني استطعت أن ألفظ الكلمتين : « امسك الحرامي » — فيـــا لعجبي من تلك الزفرة المبحوحة من طفـــل راجف ، تكفي لطرد الشبح إلى حيث لا أدري ؛ وقل ما شئت عمـا ملأني من شعور بالزهو لشجاعتي المزيفة ، فكأن تلك الليلة كانت مولدا لمركّبٍ شعوريّ أحسبني لا أزال أحمـله بـين جنبيّ ، هو مركّب الشجاعة الخائفة ، أو الخوف الشجاع .

٦

كانت النقلة واسعة مما كنتُ عليه في كتّاب الشيخ الدرديري ، إلى ما أُصبحتُ فية بكلية غوردون ؛ فهي نقلة من طفل يفرض فيه أنه لا يعرف شيئا ولا يُعلّم شيئا إلى طفل يُفرض فيه أنه يعرف كل شيء ويتعلّم أي شيء .

كان المدرسون في المرحلة الابتدائية أكثرهم من المصريين وأقلّهم من أبناء السودان : هذا هو مدرس اللغة العربية الذي تولانا أول من تولى ، أستاذ أزهري من المصريين ، فيه من الجد والصرامة ما لو قُسّم بين عشرين مدرسا ، لكان من كل واحد فيهم مدرس ناجح ؛ إنه أوشك ألا يفرق بيننا نحن الصغار الذين جاءوا إليه ليبدءوا حياتهم الدراسية ، وبين متخصص في دراسة اللغة العربية من علماء الأزهر ؛ فقد كان يأمرنا أن نسطر له هوامش كتاب النحو المقرر بخطوط مائلة ، لنكتب عليها ما يمليه من إضافات ، على نحو ما تكتب الحواشي في الكتب القديمة ؛ ويعلمنا الإعراب فيما أشكل من آيات الكتاب الكريم أو من أبيات الشعر الجاهلي ، بعد أن يشرح لنا هذه وتلك شرحا وافيا ؛ لكنني كنت أحفظ الإعراب عن ظهر قلب دون أن أفهم من مصطلحه شيئا ، فما زلت أحفظ من تلك السنة الأولى أن « إذا ظرف لما يستقبل من الزمان ، خافض لشرطه منصوب بجوابه » ولا بد أن يكون ذلك الأستاذ القدير قد شرح

المعنى المقصود بكل هذا ، لكنني كنت أعجز عن استيعابه ، فكلمة « الظرف » عندي لم تكن تعني إلا الظرف الذي يوضع فيها « الجواب » — خصوصا وكلمة « الجواب » واردة في آخر العبارة ؛ و « الاستقبال » عندي لم يكن إلا استقبالا للضيوف ، و « الشرط » لا يكون إلا فرقا في الثوب ، فما علاقة « اذا » بهذا كله ؟ لم أكن أدري ، ولكني أحفظ عن ظهر قلب ، والأستاذ يحدوه فينا أمل يجاوز قدراتنا .

وهذا هو مدرس اللغة الانجليزية : شاب مصري شاحب الوجه حاد الفكّين ، لا فرق — في الصرامة والجد — بينه وبين مدرس اللغة العربية إلا في الزّيّ ، فذلك شيخ وهذا أفندي؛نعم كان بأيدينا كتاب المطالعة الذي يبدأ يدرس عن ثور يركبه صبي فلاح ؛ لكن هل كان يكفيه هذا ؟ كلا ، فالمادة المضافة لا أول لها ولا آخر ، وأعمدة الأفعال وتصريفها ، وقوائم الكلمات التي نحفظها كل يوم كانت تلاحقنا بلا هوادة ، إلى الحد الذي كنا نخرج معه إلى فناء المدرسة بعد درس الإملاء ، فيسأل بعضنا بعضا (وهذا مثل حقيقي تعيه ذاكرتي منذ ذلك الحين) : كيف كتبت كلمة boy ؟ — كتبتها هكذا ؛ فيعود السائل ليقول : لا ، إنها buoy التي معناها « عوامة » وإلا لما كان للجملة معنى ؛ وكيف كتبت كلمة story ؟ — كتبتها هكذا ؛ فيعود السائل ليقول : لا ، إنها storey التي معناها الطابق في البناء ، لأن كلمة « قصة » لا تجري مع السياق ... وهكذا عبأنا الأستاذ بمادة اللغة تعبئة لا أكاد الآن أصدق مداها حين أذكرها .

ولما بلغنا السنة الرابعة الابتدائية ، تولى تدريسنا الانجليزية ناظر المدرسة – وكان مصريا – وهو رجل غاية في الأناقة والنظافة والدقة والنظام ؛ بذلاته بيض من تيل هزاز ، ويخيل إليك أن له في كل ساعة من ساعات النهار « غيارا » نظيفا ؛ وكان لا يمسك الطباشيرة إلا وهي ملفوفة إلى نصفهـا بالورق ؛ فهو يعيّن تلميذا خاصا لإعداد هـذا الطباشير المكسوّ بالورق ، ليمده به كلما طلب ، وكنت أنا في فرقتي صاحب هـذه الحرفة ؛ كان من عـادته أن يكلفنا شراء زجاجات من المـداد الأحمر ، لأن طريقته في تصحيحنا لأخطاء الهجاء ، هي أن نكتب الجزء المغلوط من الكلمة بالمداد الأحمر .

وأما الحساب فحيّـا الله أستاذه وأكرمه إن كان ما يزال حيـا ، وأسبغ الله عليه رحمة واسعة إن كان ميتا ، لأنه موهوب ؛ ولك أن تضيف إلى موهبته تلك الحماسة التي كانت تسري فيه وفي زملائه لتعلم أي أستاذ كان .

وقد كانت لنا في الترجمة دروس خاصة ، من الانجليزية إلى العربية ومن العربيـة إلى الانجليزية ، ووالله لا أذكر مستواها إلا ويأخذني العجب ؛ كان يدرسها مدرس سوداني طويل نحيل ، أرسل لحيـة قصيرة جعداء الشعر في أُخريات أيامه ؛ وما أخريات أيامـه تلك إلا تهمة بالسرقة وجهت إليه ، وغاب عنـا ، وكانت له في نفوسنا هيبة حتى لقد صدقنا من قال إنها تهمة مزورة أريد بها الانتقام منه لأسباب

سياسية ؛ ومضت بعد ذلك شهور ، ثم شاءت المصادفات أن أكون بمحطة السكة الحديدية على استعداد مع بقية الأسرة للسفر إلى مصر ، فمن ذا أرى هناك يقف محروسا بجندي مسلح ، إلا مدرسنا ذاك في وقاره وهيبته ، فما كان مني إلا أن نطقت باسمه ذاهلا دهشا ، فالتفت الرجل نحوي بحركة لا إرادية فما هو إلا أن نَهَرَه السجان بصوت غليظ أجش : انظر أمـــامك يا مسجون ! .. ومسحتُ عن وجهي دمعة سالت .

لكنني كذلك لا أنسى قسوة مدرسينا في المدرسة الابتدائية — من مصريين وسودانيين — قسوة جاوزت كل حد معقول ؛ وكانت لهم فيها فنون : كان مدرس الجغرافيا شيخا سودانيا ، وكان يطلب منا أن نحفظ خمسين صفحة من صفحات الكتاب بين ليـــلة ويوم ، بحيث نتلوها كما تُتـْلى الفاتحة — على حـــد عبارته — وإلا فسوطه القصير المخبـــأ في كم ردائه على استعداد أن يهوى فوق الظهور ، ولم يكن مدرس اللغة الانجليزية يكفيه أن تُمَـدَّ له الأكفّ ليضربها بالمسطرة — والمسطرة عنده هي أداة العقاب — بل كان يضفر قلما في أصابـــع اليد ، ثم يضرب على ظهر الكف لا على بطنها ، وبسنّ المسطرة لا بعرضها ؛ وكانت العقوبة عند مدرس اللغة العربية جلوسا على الركبتين فوق البلاط ، وقد لا يكتفي بذلك فيجعل حصاة تحت كل ركبة ، ثم قد يضيف إلى هذا وذاك رفـع الذراعين الى أعـلى ؛ وأمـا ناظر المدرسة فكانت طريقته أن يستعـين بمـدرس الألعـاب الرياضيـة و « جَلـْدتـه » ، فيجيء فراشان ويشدان المذنب المعاقب على ظهر

كرسي من الخيزران ، فينثني المعاقب فوق ظهر الكرسي ، وكل فراش ممسك بذراع ، ومدرس الألعاب يضرب بالجلدة على مؤخرة الجسم عدد الجلدات الذي يقرره حضرة الناظر ؛ وكان في المدرسة مدرسان للألعاب الرياضية ، كانا « صول َلين » في الجيش أكملا فترة التجنيد ، أحدهما يدعى ابراهيم والآخر يدعى فرنسيس ، وكلاهما مصري ؛ أما ابراهيم فشديد السمرة غليظ الكبد لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ، وأما فرنسيس فأشقر اللون أصفر الشعر طيب القلب رحيم ، إذا أُمِرَ بجلد تلميذ فتراه يُنزل الجلدة خفيفة ، ولذلك كان الناظر حريصا دائما على أن يكون ابراهيم هو أداته في تنفيذ العقاب .

وننتقل إلى المدرسة الثانوية فيتغير المنظر تغيرا جوهريا،فالتدريس هنا كله بالانجليزية ، والمدرسون أكثرهم انجليز ، ومن أول المدرسة الثانوية يبدأ التخصص المهني ، لينتهي بنهايتها ، لكن هذا التخصص كان يتركز في السنتين الأخيرتين ، ففيهما يكون قسم للمهندسين ، وقسم للمدرسين ، وقسم للقضاة الشرعيين وهكذا .

على أن أهم ما يميز الدراسة هو الحياة الاجتماعية والرياضية ، فالتلاميذ مقسمون الى « بيوت » أربعة — وهو ما نسميه في مدارسنا المصرية بنظام الأسر — يختص كل بيت من البيوت الثلاثة الأولى بالتلاميذ الوافدين من جهة معينه من جهات السودان ، فهؤلاء من الجنوب ، وأولئك من الشرق أو من الغرب ، وأما البيت الرابع فللتلاميذ « الخارجية » ومن هؤلاء كان المصريون جميعا .

وكانت كرة القدم إجبارية على التلاميذ كافة ، فيقسّمون أحد عشر درجة بحسب قدراتهم ؛ وكلما أظهر اللاعب قدرة ارتفع إلى فريق المستوى الأعلى ؛ حتى يصل إلى الفريق الذي يلاعب الفرق الخارجية باسم المدرسة ، وكانت كلية غوردون محاطة بملاعب لكرة القدم كثيرة العدد ، حتى لتمتد رقعتها إلى مسافة بعيدة .

ولا أذكر هذه الملاعب إلا وأذكر عقوبة أمر عليّ بها الرئيس الانجليزي الذي يشرف على « البيت » الذي كنت أنتمي اليه ، وذلك لأنني أخرجت ساعتي خلال الدرس ، وكانت العقوبة أن تؤخذ مني الساعه أولا ، وأن أظل ثلاثه أسابيع ، مدة ساعتين كل يوم ، أجمع الأحجار الصغيرة التي قد تكون مخبوءة في العشب النامي على الملاعب ؛ على أن يكون ذلك بالطابع بعد نهاية اليوم الدراسي نحو الساعة الرابعة عصرا ، وأشهد أني تمتعت خلال هذه العقوبة أكثر مما تألمت ، لأنني كثيرا ما كنت أنعم بالجلوس مع الزملاء « الداخلية » على العشب — وكانوا يجلسون حلقات حلقات — وأشرب معهم الشاي الجيد بلونه الذهبي في أكوابه الخاصة ؛ والذي كنت أعجب له أنهم يجلسون بجلابيبهم البيضاء من العشب فلا تتسخ ، وأجلس ببذلتي البيضاء فأقوم وعليها رقعة خضراء (كانت الثياب البيضاء شرطا واجبا فالسودانيون يلبسون الجلابيب البيضاء والعمائم السودانية البيضاء ، والمصريون يلبسون بذلات بيضاء ، وأربطة عنق سوداء ، على ألا يكون الحذاء إلا بُنيّ اللون) وقد تفتقت حيلتي ذات عصر عن طريقة ظننتها تنجيني من تلك الرقعة الخضراء إثر الجلوس مع

الزملاء على العشب ساعة الشاي ، وهي أني خلعت حذائي وجلست عليه ، فإذا الرقعة هذه المرة مزيج من البني والأخضر ، وأسأل نفسي الآن : ولماذا لم أستخدم ورقة أو منديلا فرشاً أجلس عليه ، ولا أستطيع الآن أن أقع على التعليل ، لأني نسيت .

على أن أهم ما أقلقني من تلك العقوبة – فضلا عن الرقع الخضراء التي كنت أعود بها كل يوم فتستشيط أمي غضبا – هو ساعتي وضياعها ، لأني أخفيت أمرها عن والديّ ، وكنت في خشية دائمة أن يجيء الوقت الذي أُسأل فيه أين الساعة ؟ فلا أجد الجواب ، لكن الله سلّم في آخر لحظة من العام الدراسي فبينما أنا هابط السلّم مع طابور التلاميذ ، إذ ناداني العريف (رئيس البيت من الطلاب) وأخذني إلى غرفته حيث أعطاني ساعتي بعد نصح وتقريع ؛ فأخذتها وهرولت أنزل السلالم درجتين درجتين ، وأنا أصيح بأعلى صوتي لأُسمع أخي الذي سبقني مع الطابور :

فلعلها ولعلها ولعلها ولعل من عقد الأمور يحلها

٧

لكني لا أكتب هذه المذكرات لأقصّ تاريخا ، بقدر ما أكتبها لأتعقب عِلَّتي إلى جذورها ، فمهما يكن لزملاء كلية غوردون عليّ من فضل ، فقد أساءوا إليّ – من حيث لا يشعرون – إساءة لا أخطىء كثيرا إذا قلت إنها كانت هي الحد الفاصل بين أن أكتم علتي في جوفي

وبين أن يفلت مني زمامها فتخرج — كما خرجت — قتبا على ظهري ؛ وذلك أنهم غرزوا في أعماق نفسي عقدة نقص ما زالت تسيطر عليّ إلى يومي هذا ، ثم ما زالت تتفرع في شعاب النفس أشكالا وألوانا ، كأنها الأخطبوط ، إذا بترت منه خيطا نبتت خيوط .

والبداية بسيطة ككل البدايات ؟ ذلك أن صغار الزملاء قد أدركوا — ونحن بعد في أول المرحلة الابتدائية — ما في بصري من قصر ملحوظ في زرّى لعيني اليمنى كلما أردت النظر إلى شيء ؛ وأعجب العجب أني لم أكن أعلم قبلئذ أن بصري يقصر دون أبصار الناس ، كلا ولم يكن يعلم ذلك أحد من أهلي ، حتى وجدته موضع السخرية من هؤلاء الزملاء الصغار .

كل ما أذكره قبل ذاك حادث عابر جاء وذهب في لحظة قصيرة ، فقد كنا نعبر النيل عند الخرطوم في مركب اشترته جماعة من الموظفين الأصدقاء ، الذين يسكنون من النيل في ضفة ويعملون في الضفة الأخرى ، ليكون المركب تحت تصرفهم دائما ، على نحو ما يملك المالك اليوم سيارة خاصة ؛ واصطف الراكبون صفين متقابلين ، وفي الصف المقابل لي ، كان والدى وكان أحد أصدقائه ، وأحسبني قد زررت عيني اليمنى ، حين قال ذلك الصديق : « أتزرُّ عينك منذ الآن يا بني ؟ فماذا أنت صانع إذن حين تتقدم بك السنون ؟ » ومع حرف النون الأخير في عبارته وقعت كفُّ والدى على وجهي صافعة ، وهو يزجر : « افتح عينك حين تنظر » .

لم أكن أعلم قبل ذلك – اذن – ولا كان أهلي يعلمون أن بعينيّ ضعفا ، حتى كشف لي الأمر صغار الزملاء من السودانيين ، حين راحوا يطلقون عليّ أسماء من قبيل « الأعور » و « الأعمش » ، ثم استقروا أخيرا على مصطلح لم أفهمه بادىء ذي بدء ، وهو قولهم « ٧ و ٤ » أحيانا ، و « ٥ و ٦ » أحيانا أخرى ، ولطالما عجبت من العلاقة بين هذه الأعداد وبيني ، لكنني كنت على يقين عندئذ أن الإشارة في هذا كله إلى عينيّ ، وأخذت أحاول أن أنظر كما ينظر أصحاب النظر السليم ؛ فالكتابة على السبورة لا أراها لكني أكتم الخبر ؛ وقد حدث ذات يوم أن أقبلت عليّ طائفة من الزملاء ، وأحاطت بي ليرى من لم يكن قد رأى كيف أني أزرّ عينا دون عين ، فأردت أن أدحض لهم دعواهم ، وبالغت في فتح عيني حتى أبرهن لهم أن ليس بهما عيب يعاب ، فازدادوا ضحكا ، وازددت عجبا وريبة ؛ ولما عدت إلى الدار ، وقفت أمام المرآة لأفتح عينيّ كما فتحتهما في الصباح ، لأرى كيف ظهرتا للمشاهدين ، وإذا بالزملاء معذورون ، لأنها في الحق حملقة تضحك من قصد إلى السخرية والعبث .

ومنذ ذلك العهد الباكر من حياتي ، وعيناي العليلتان مصدر عجيب لكل ضروب العوامل التي تدفع صاحبها إلى الأمام مرة ، وتردّه إلى الوراء مرة ؛ فقد كان مما قيل في أوساط الأسرة – وقد عُرِفَت حقيقة بصري – أنه لا جدوى من أن أكمل مراحل التعليم الى آخر أشواطها ، ما دام هذا البصر الكليل عقبة في سبيل التوظف على كل حال ؛ فالتعليم عندهم وعند الناس أجمعين في ذلك العهد طريق

للوظيفة ، فاذا لم يكن الطريق موصلا إلى غايته بطل أن يكون طريقا ، وكان عبثا ومضيعة للجهد والوقت والمال ؛ وسمعتُ هذا اللغط يسري بين من يهمهم أمري ومن لا يهمهم من أفراد الأسرة الكبار ، فزادني صلابة وعنادا وإصرارا على المضيّ فيما أرادوا أن يصدوني عنه ؛ فاذا قال القائل : لا تقرأ حِرصا على بصرك ، كان ردّ الفعل عندي أن أقرأ ضعف ما أردت أن أفعل ؛ ولست أشك في أن أقوى ما دفعني إلى حياة الدراسة ، هو ذلك العزم الذي بدأ عنادا أول الأمر ، ثم انتهى إلى ميل وعادة .

ولست أنسى يوما — وكنت في السنة الثانية الابتدائية — حين « سرحت » عن الدرس ، وسبحت بنظري خلال النافذة شاخصا إلى قطع السحاب تتسابق مع الريح ، وتتخذ لنفسها أشكالا عجيبة ، فجعلت أتأمل ماذا عساها أن تكون ؟ فهذا جمل ذو سنامين وخمسة أرجل ؛ وتلك بطة سابحة تلوي عنقها ذات اليمين مرة وذات الشمال مرة ، وذلك تمساح فتح فكيه ليبتلع سمكة تجري أمامه ولا يلحقها ؛ ثم جاءت سحابة ضخمة تشبه وجه الرجل الكهل بلحية طويلة وشاربين كبيرين ، وعلى الوجه جلال وعظمة ، فقد رأيته وكأنه يأمر بقية السحاب فتجري بأمره وتقف بأمره ؛ فمن ذا يكون هذا الآمر العظيم ؟ آه ، لقد عرفت ، إنه « الله » فقد حكوا لي أنه يسكن السماء ؛ يا سلام ! هذا — اذن — هو « ربنا » ؟ !

هكذا كانت خواطري تجري وأنا أنظر إلى قطع السحاب ، حين

جاءتني ركلة بالقدم في جنبي، وضربة بِجُمْع اليد في كتفي ، ومجموعة الأولاد في الفصل تنفجر ضاحكة ، ونظرت مذعورا إلى الضارب — الذي هو المعلم - واذا به يكشر عن أسنانه اللوامع البيض : فيم زررت عينك يا أعور ؟ وإلى أي شيء في السماء تنظر ؟

وليت المعلم يعلم الآن أن العين العوراء ما زالت تنظر إلى السماء باحثة عن الله — لكنها هذه المرة تبحث عن وراء قطع السحاب — سائلة عن الكون ونشأته وعن الانسان ومصيره ؛ وليت المعلم يعلم كذلك كم كانت تلك العين العوراء حافزا وكم كانت مصدر ألم ممضّ ؛ فمنذ ركلته بالقدم ، وضربته بجُمع اليد ، في تلك اللحظة الهائمة المتأملة ، قد أصبحت العين العوراء همًّا مقيما على صدري ، لا ينزاح ولا يزول ، تبعث في نفسي كل صنوف المخاوف بما قد تضرب به الأيام فتصيب مني مقتلا ؛ إنها هي الشبح المخيف والظل الكئيب ، الذى أراه مطروحا أمامي في الطريق أينما سرت ، فيظلم الأفق ويصدّ عني شعاع الشمس المضيء .

٨

كان للغلام فيما بين عامه العاشر وعامه الخامس عشر سبحات شاطحات في أحلام يقظته ، معظمها يدور على محورين :أحدهما هو أن يكسب مالا كثيرا يقيم به الدليل على « شطارته » ، والآخر هو أن يضلّ في التيه طريدا شريدا .

فما سار يوما من البيت إلى المدرسة — ذلك الطريق الطويل برماله الغزيرة وشمسه الحارة وهوائه المغفر — إلا وقد طأطأ الرأس مثبتا

عينيه في قدميه ، وشاردا بخياله ... إلى أين ؟ إلى غابات الجنوب — وكان قد سمع عنها ما يثير خياله — فيتاجر مع أهلها ، فيكسب المال الكثير ؛ وأهله أثناء غيبته لا يعلمون أين ذهب ، فيبحثون عنه حتى يأخذهم اليأس ، فيقولوا ! مات ، أو فُقِد لغير رجعة ؛ فاذا به بعد أعوام يعود إليهم ومعه صُرَرٌ كبيرة ، يسألونه : ماذا تحوي ؟ فيجلس بينهم ويفتحها ، فيتدفق المال ؛ وتنفغر الأفواه من عجب ؛ فيوزع عليهم أنصبتهم ، ويبقى لنفسه نصيبها ...

وما جلس وحده يوما ، إلا وقد راح يحلم بأنه يخبط في فجاج الأرض طريدا شريدا ، يأكله الجوع فلا يجد اللقمة ، ويقتله العطش فلا يجد جرعة الماء ، وتتمزق ثيابه ، وتنهدُّ قواه ، وربما اضطر إلى التسوّل ليقيم الرمق وهو في عزلة الشريد المجهول .

فأما موضوع المال وكسبه ، فقد همّ الغلام عندئذ باخراجه من دنيا الأحلام إلى دنيا الواقع بصور شتى ، فيها السذاجة الشديدة التي انتهت به ذات يوم إلى « علقة » ترده إلى صواب العقلاء ؛ فمن ذلك — مثلا — أنه فكرّ : لماذا لا يتاجر ليكسب ؟ ومرّ بالدار ساعتئذ — وكان أهله في زيارة — بائع الدجاج ، فاشترى منه زوجين ، وعاد الأهل من زيارتهم فظنوه اشترى الدجاج لحسابهم ، وحمدوا له الصنيع لأنه دجاج جيد بسعر رخيص ، لكنه في الحقيقة كان يضمر في نفسه تجارة ، فبعد يومين مرّ بائع للدجاج آخر ، معروف للأسرة لكثرة تردده على البيت بائعا ، وهو رجل ضرير اسمه « صيام » ؛ فلم

يجد في الدار غيري ، وما فتحت له الباب حتى بادرني بقوله : عندي دجاج سمين ؛ فقلت له : وأنا كذلك عندي دجاج أسمن ، فهل لك في الشراء ؟ فتعجب الرجل لبيتنا يُباع منه الدجاج وكان الظن أن يباع له ؛ لكنه طلب البضاعة المعروضة ليفحصها ؛ وأمسكت بدجاجاتي من فناء الدار بعد جَرْي وراءها وهي مع بقية الدجاج في الفناء تندفع مذعورة هنا وهناك وتصيح كأنها تطلب الغوث ممن يغيث ؛ أمسكت بدجاجاتي وعرضتها على « صيام » فراح يتحسسها ، ثم سعَّرها بثمن يشتريها به ، وهو ثمن يزيد قرشين عما كنت دفعته لشرائها ؛ فأسلمته الدجاج وقبضت الثمن فرحا بكسبي ؛ وعاد شمل الأسرة فاكتمل : أبا وعما وأما وامرأة عم ؛ وعلموا بالأمر ؛ فأخذتهم الدهشة المحيّرة التي لم تنفك عنهم أسبابها إلا بالعصا ... ولم تكن حيرتهم في أمري بأشد من حيرتي في أمرهم ! لماذا تضربونني وقد اشتريت الدجاج لأتاجر فيه؟ فتزداد العصا أداء لمهمتها في تقويم غلام فسد واعوّجت به السبيل .

ومن مغامرات الكسب أيضا أن اشتريت من جار لنا في مثل عمري بضع صور من بطاقات البريد المصورة ؛ باع لي البطاقة بقرش ، وكان مشروعي هو أن أقيم من تلك البطاقات ما يشبه السينما فأربح منها الكثير ؛ وكيف ذلك ؟ بأن أضع الصورة داخل زجاج المصباح ، فينظر إليها الناظرون وهي خلف زجاج ! .. وانتظرت الزبائن من أولاد الجيران وبناتهم ، ولكن لا زبون ؛ وكلما أغريتهم ازورّوا عني واشتدوا نفورا ؛ ولم أدرك كم أخطأتُ الظن إلا حينما عرضت على من كنت اشتريت الصور منه ، أن يجيء ليتفرج عليها لقاء مليمين للمرة

الواحدة ؛ فدهش وقال : ماذا تريدني أن أرى ؟ ما الفرق بين رؤيتها أمام الزجاج ورؤيتها خلف الزجاج ؟ !

ومغامرة ثالثة للكسب مشروع شاركني فيه أخي عماد ، وهو أن اشترينا نعجة قبل فصل المطر – ويسمونه في السودان بفصل الخريف ، وهو في حقيقته فصل الصيف – أملا في أن نطعمها بما ينبته المطر من عشب ، فتكبر ، فتلد ، فنبيعها هي ونبقى على الحملان لتكبر وتلد وهلم جرا ؛ فما أكثر ما سمعنا عن أغنياء بدءوا حياتهم مثل هذه البداية البسيطة ؛ لكن لم يكد ينبت العشب في الأرض الفضاء الفسيحة خارج البلد ، ولم نكد نأخذها إلى هناك مع الصباح لتغتذي ، ونعود بها ساعة الظهر ، أقول إننا لم نكد نفعل ذلك أسبوعا أو أسبوعين ، حتى نفقت النعجة بعد انتفاخ شديد أصابها ؛ وقال العارفون من جيراننا إنها لابد أكلت عشبا ساما كانوا هم يعرفونه ويجنبون أغنامهم إياه ، لكن من أين لنا مثل هذا العلم بالعشب والغنم ؟

وأما أحلام التشرد والتسول والعزلة الضاربة في القفار ؛ فما تزال هي هي الأحلام التي تعاودني بعد أن هذبها نضج الدراسة ، فأصبحت أحلاما تحلم بعزلة المتصوفة الزاهدين .

ضلال ليس بعده ضلال في فهمنا لأنفسنا وفهمنا للناس ، أن نلتمس محورا واحدا ندير حوله أحوال النفس جميعا ؛ فلكل نفس محاور عدة تدور حولها في تصريفها لشئون حياتها ؛ فلو قلتُ للناس – مثلا – إنني في أعماق نفسي زاهد في زخرف الدنيا ، لا أريد مالها ولذائذها ،

قيل لي : لكنك تجدّ ساعيا في كسب المـــال وادخاره ؛ وتزيد في حياتك من أسباب الراحة والترف ؛ وإن قلتُ للناس : إنني في أعماق نفسي أحب العزلة ، قيل لي : لكنك تأنس لحديث الأصدقاء ؛ وإن قلتُ للناس : إنني أجعـــل من ذاتي وخبرتها أساسا أولا وأخيرا في تقويم الأشخاص والأشياء ، قيل لي : اذن ففيم دعواك التي قلبت بها الأرض وأوجعت بها الدماغ ، في وجوب أن يكون معيـــار التقويم دائما موضوعيا مستقلا عن الذات وأهوائها ... وهأنذا أصيح بملء فمي : نعم ، نعم ، إنني هذه الجوانب كلها ، وقولوا ما شئتم أن تقولوا .

٩

... ... إنني إذ أرتد إلى أعوام المراهقة الباكرة ، أجدني ملتقى أخلاط عجيبة تشابكت أطرافها من دين وجنس وشعر ؛ فقد أحاطت بنا جماعة من الأصدقاء لا تكاد تنطق بكلمة واحـدة في أحاديثها إلا ولها صـلة بأمور الجنس ؛ وكانوا يكبروننا بأربعة أعوام أو خمسة ؛ فكان لهم من الخبرات ما لم يكن لنـا بـــه علم ؛ وكنـا نستمع إليهم وكأننا نستمع إلى قادم من عالم مسحور يروي عن ضروب من الحياة والأحياء لم ترها عين من قبل ولم تسمعها أذن ؛ نعم لقد حدث لي قبل ذلك بسنوات أن أخذت أدرك أن بين الجنسين أمرا يحرص الناس على أن يجري في خفـاء وتستر ، لكنني لم أكن أحسّ شيئا من هـذه الفتنة الفاتنة التي يحدثنا عنها الأصدقاء ؛ وإذن فلا بد أن تكون أبواب

هذا العالم المسحور مغلقة عندي حتى ذلك الحين تنتظر مزيدا من النضج يتميز بعلامات حفظتها عن هؤلاء الأصدقاء حفظا ، وجعلت أرتقبها مشوقا إليها ، وأتعجل حدوثها كمن يتعجل قدوم الغائب الحبيب ؛ لكنها ارتقاب وتعجل لم يخلوا من شعور المرتاع من داهم مجهول .

كان منزلنا يبعد عن النيل مسافة نصف الساعة مشيا ، وعنَّ لي ذات عصر أن أحمل حصيرة صغيرة وأقصد بها إلى شاطىء النيل ، فأفترشها لأنظر الى غروب الشمس على صفحة الماء ؛ وأظنها كانت أول مرة أقصد فيها إلى شاطىء النيل في تلك البقعة بذاتها ، إذ لم أكن أعلم أن عشرات السابحين يلهون بالسباحة في النيل عند ذلك المكان وفي تلك الساعة من النهار ؛ لقد اخترت المكان عفوا ، لأن الطريق إليه كان يشق حديقة من شجر الليمون ، توهِمُ الانسان بأنه سائر في ظل الشجر ؛ والحقيقة أن لم يكن هناك ظل يحميه ، لأن الأشجار قصيرة ومعراة من الورق والثمر ؛ وعند شاطىء النيل افترشت الحصيرة وجلست وحدي ، لا أجد ما أسند ظهري إليه ، فكنت أستند إلى ذراعيّ من خلفي حينا ، وأقرفص مشبِّكا ذراعيّ على ركبتيّ حينا آخر ، وأستلقى ناظرا إلى السماء حينا ثالثا ؛ فربما ظهر هذا التغير في الأوضاع لمن يشاهده كأنه قلق في النفس ، لا مجرد بحث من الجسم عن وضع يريحه ؛ فجاءتني فتاتان سودانيتان ما زلت أذكر منهما لمعة العيون التي تناديك في إغراء بل في إغواء صامت دون أن ينطق اللسان بكلمة ؛ كما أذكر منهما صدورا ناهدة تستثير أصابع

القديسين أن تمتد لتجمش ؛ كانتا سمراوين أفتح لونا من اللون السائد بين نساء السودان ، وأغمق لونا من اللون السائد بين نساء مصر ؛ جلستا على الحصيرة واتكأتا على الذراعين ، راكعتين على الركبتين ، كأنما دُرِّبتا أن تقوما بهذه الحركة معا في توقيع موسيقي ؛ وشخصتا إليّ بعيون ضاحكة وشفاه باسمه كاشفة عن أسنان ناصعة البياض ؟ وقالت إحداهما — ورددت الأخرى قولها — « إنك لتتململ قاعدا راقدا ، باسطا ذراعيك قابضا لهما ؛ كأنما في القلب جمرات نحن نعرفها » فأخذتني رعشة هزّت كياني هزًّا ؛ من أعلاه إلى أسفله ومن باطنه إلى ظاهره ؛ فكأنني هذه الساعة أسمع ما دقّ به قلبي دقا عنيفا ؛ وتذكرت الدنيا المسحورة العجيبة التي طالما حدّث عنها الأصدقاء ، والتي طالما ارتقبتها ، وخيل الي ّأن تلكما الفتاتين هما اللتان أرسلهما الغيب لتفتحا الباب الذي لبث حتى تلك اللحظة مغلقا ، لا أدري ماذا وراءه إلا عن طريق الرواية ؛ لكني تذكرت كذلك أن علامات النضج التي هي جواز المرور إلى داخل العالم المسحور لم تظهر بعد ؛ فقلت لهما بأنفاس متقطعة : « لكني ما زلت صغيرا » ، فضحكتا في دلال لا يعرفه إلا من عرف كيف تُدِل الفتاة السودانية بأنوثتها ؛ وقالت إحداهما — ورددت الأخرى قولها — « صغير ؟ ! هذه هي السن التي جئنا نبحث عنها » ؛ فلم أشعر عندئذ إلا بالقشعريرة الشديدة تلمّ ببدني كأنها المرض الداهم ، وجمعت حصيرتي وأسرعت عائدا ، تاركا ورائي فتاتين تضحكان ضحكات عالية الرنين .

ذلك كان نوع الارتقاب الذي كنت أرتقب به دخول العالم المسحور، ارتقابا مشوبا بالفزع؛ وتلك كانت هي نفسها الأيام التي سمعنا فيها عن ألف ليلة وليلة؛ لكننا سمعنا عنها من أفواه أولئك الأصدقاء الذين استعرت نيران الجنس بين جوانحهم، فأقبلنا على قراءتها لا من حيث هي أدب من الأدب القصصي الرفيع، بل من حيث هي كتاب فيه لمسات من الدعارة المحرمة، ولذلك وجب أن يقرأ في خفاء عن أولياء الأمر؛ فطفقنا أياما متلاحقة في إجازة الصيف، نجتمع الصباح كله والعصر كله في منزل زميل لنا كانت له في داره غرفة خاصة لا أثاث فيها إلا حصيرة ممزقة على أرضها؛ فنضع الكتاب على الأرض وننكب عليه، أحدنا يقرأ في صوت مسموع، والآخرون يتابعون قراءته بالنظر الصامت، حتى فرغنا من قراءة أجزائه جميعا.

وكانت تلك هي نفسها الأيام التي أخذ فيها الشعور الديني يملأ قلوبنا؛ فالأمر هنا لم يقتصر على صلاة تؤدي في أوقاتها، وعلى صوم نصوم به شهر رمضان في حر يجفف الحلوق ويحيلها حطبا يابسا؛ بل تجاوز أمر التدين عندنا كل هذه الحدود، حتى كاد يبلغ بنا حد «الدروشة» أو قل إنه قد بلغها وأوغل فيها؛ فكما أرادت لنا أيام المراهقة صحبة من أصدقاء تفتح أعيننا وآذاننا على عالم مسحور هو عالم الجنس، فقد أرادت لنا كذلك أن نجتمع بحلقة دينية، يتولى إمامتها شيخ وقور من أهل السودان، قيل لنا إنه قد تخرج في الأزهر؛ وكانت الحلقة تمتد ما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء.

ففي ميدان فسيح بالقرب من دارنا ، مبنى صغير يعلو عن مستوى الأرض درجتين أو ثلاث درجات ، له بوابات بغير أبواب من جهات ثلاث ، كان معدا ليكون مكانا يقف فيه حاكم السودان عند الاحتفال بالمولد النبوي ، لتمر أمامه الفرق الصوفية ببيارقها ، وأما بقية العام ، فالمبنى متروك خلاءً لمن شاء أن يأوي إليه في ليل أو في نهار ؛ وفي هذا المبنى كانت تعقد الحلقة الدينية كل مساء بين صلاة المغرب وصلاة العشـــاء .

وكان أعضاء الحلقة يستأجرون دكانا صغيرا على بعـد أمتار قليلة من ذلك البناء ، يخزنون فيه الحصر ،حتى إذا ما قربت ساعة الغروب ذهب منهم متطوع يرش أرض المبنى بالماء رشا خفيفا ، ويكنسه ، ثم يجيء بالحصر من مخزنها ذاك فيفرشها ؛ فاذا ما أذّن المغرب يكون الأعضاء قد تكاملوا ، فيقيمون الصلاة ، يؤمهم شيخ الحلقة ورائدها ومعلمها، وهو الشيخ أبو قرين ، حتى إذا ما فرغ المصلون من صلاتهم، جلس الشيخ النحيل الوقور وحوله الأعضاء ، وأخـــذ يقرأ الدرس الديني ويشرح ، إلى أن يحين موعد صلاة العشاء .

تلك كانت هي الحلقة الدينية التي وصلنا أنفسنا بها في ذلك العهد الذي أتحدث عنه ؛ ثم ما هي إلا أن أصبحنا نحن ... أنا وأخي ... العضوين اللذين يوكل إليهما – إما معا أو بالتناوب – رشّ المكان بالماء وكنسه وفرشه وملء القلل بالمـــاء البارد ، إعداداً للصلاة وللدرس الديني ؛ ولو كان هذا الدرس اليومي مقتصرا على شرح أصول الدين

وقواعده ، لما كان منه في نفوسنا إلا حصيلة من علم ، قد تلتمس طريقها إلى الرءوس دون أن تمس من القلوب شغافها ؛ إذ لا بد من التفرقة بين من « يعلم » أصول الدين وقواعده ، وبين من يتحول ذلك « العلم » في قلبه إلى « وجدان » ؛ فهذان جانبان مستقل أحدهما عن الآخر ، قد يجتمعان في إنسان واحد ، وقد يتوافر أحدهما دون الآخر ، فهنالك العالم المتبتل ، وهناك العالم في غير تبتل ، وهناك المتبتل عن غير علم ، وهناك من يخلو من العلم والتبتل كليهما : أربعة أنماط من الناس ، لا بد من التفرقة بينها حتى لا نظن أن كل علم بالدين مقرون بالشعور الديني — وإنما قصدت بهذا أن أقول إن ذلك الدرس الديني الذي لبثنا نستمع إليه أشهرا طويلة لا نتخلف عنه يوما واحدا ، بل يحلو لنا أن نقوم نحن بإعداد العدة له ، في تلك السن الهائجة بمشاعرها ، لم يكن درسا دينيا للعلم وحده ، بل كان يمتد إلى أشياء تهز وجداننا هزا عنيفا .

مثال ذلك أن الشيخ أبو قرين يبين لنا أسرار آيات قرآنية معينة ، وأسرار كلمات معينة ؛ فهذه الآية إذا قرئت كذا ألف مرة في ظلمة الليل ، أو تلك الكلمة إذا نطق بها كذا ألف مرة تُعد على المسبحة ، ظهر ملك من ملائكة السماء فيبارك القارىء في دنياه وفي آخرته على السواء ... فهل كنا نسمع هذه الأشياء لمجرد العلم بها ؟ كلا ، بل كنا نسمعها لننفذها فورا ، فاذا ما جَنّ الليل ونام الأهل ، أوى كلٌّ منا إلى ركن مظلم ، وأمسك بمسبحته وراح يهمس الآية أو يتمتم بالكلمة كذا ألف مرة كما أُوصي ؛ وكنا حريصين ألا يتنبه أحد من أفراد

الأسرة إلى هذا الذي نصنعه ، حتى لا يحول بيننا وبين أدائه ؛ ولكن الملائكة المرتقبة لم تظر أبدا ؛ فهل كان يطوف ببالنا عندئذ أنها لم تظهر لأن الأمر كله خرافة في خرافة ؟ كلا، بل إنها لم تظهر لأنه لا بُدّ أن يكون هنالك نقص فينا — كأن نكون على غير طهر في الجسد ، أو على غير صفاء في النفس بالدرجة التي يتطلبها ظهور الملائكة ؛ وهكذا نردّ العيب دائما إلى شيء في استعدادنا الجسمي أو النفسي ، ولم نردّه قط إلى تعاليم الدرس وتوجيهات الشيخ .

قيل لنا إن من يؤذن للصلاة يظفر عند الله بثواب أكبر ، فكنا نتسابق إلى الأذان للصلاة بأصواتنا المتسلّخة ؛ ولست أدري كيف كان يؤذن لنا بذلك برغم ما في أصواتنا من رداءة الأداء وقصر المدى ، ولعلهم أحجموا عن منعنا خشية أن يكون في هذا المنع غضب ينزل عليهم من السماء .

تلك كانت هي الموجة الدينية الجارفة ونحن في سن المراهقة ، لكنها برغم ذلك لم تكن لتتعارض في أعيننا مع حلقات أخرى ، نجتمع فيها مع ثلة الأصدقاء الذين لم يكونوا يتحدثون قط إلا في الجنس وما يتصل به ! أيكون هذان الجانبان من النفس الانسانية على علاقة وثيقة أحدهما بالآخر ، حتى ليحدث كثيرا أن تكون النقلة يسيرة بين الإمعان في الدعارة والإمعان في الزهد والعبادة ؟ كما حدث للقديس أوغسطين ، ولرابعة العدوية ولتاييس — نعم قد يكون الأمر كذلك ، حتى لقد اجتمع المعنيان في كلمة عربية واحدة ، هي كلمة « الحرام »

بمعنى المقدس وبمعنى الممنوع فعله ، فيقال المسجد الحرام بالمعنى الأول ، ويقال هذا الفعل حرام عليك بالمعنى الثاني — ومهما يكن من أمر ، فقد جمعت أعوام المراهقة في حياتي بين حلقتين في آن واحد : الحلقة الدينية ، وحلقة الحديث في شئون الجنس .

لكن التقاء الجانبين في نفس واحدة تعاني تحول المراهقة ، لم يكن يخلو من صراع داخلي عنيف ؛ وكيف أنسى ذلك اليوم من رمضان ، وقد نال الصوم مني ما نال ، فتهافت الجسد وانهار ، وانتشى الروح لهذا الضعف نفسه الذي هد الجسد ، إذ علمونا أن الروح والجسد عدوان ما ينفكان يتصارعان ، وهزيمة الانسان هي في أن تكون الغلبة للجسد وشهواته ، وسموه إنما يكون في أن تتغلب الروح ... إذن فقد كنت يومئذ مهدود الجسد منهوك القوى من وطأة الصيام في ذلك الحرّ الشديد ، لكنني كنت بروحي في سماء عالية من الطمأنينة والرضى .

ويومئذ مررت في بعض طريقي على دار أسرة تربطنا بها وشائج الصلة الوثيقة ، لأقضي فيها ساعة القيلولة قبل أن أستأنف السير ؛ ودخلت غرفة الضيوف وهي قريبة من الباب الخارجي ، بعيدة عن بقية أجزاء المنزل ؛ وفي تلك الغرفة وجدت فتاة من الأسرة — في مثل سني — قد جلست إلى مكنة الخياطة تهز قاعدتها بقدميها ، وتمسك الثوب المخيط بيديها ، فيكون لجسمها بهذه الحركة شيء من التوقيع والنغم ؛ أما أنا فقد حييت وجلست إلى منضدة قريبة

وفتحت القرآن — وكنت أحمله معي — وأخذت أقرأ في همس ، لا أحول بصري نحو الفتاة إلا إذا وجهت إليّ شيئا من عابر الحديث ، فأرد عليها أو أوجه إليها شيئا فترد ... فلقد كان بيننا وبين أسرة الفتاة من قوة الروابط ومن إلف العشرة ما لم يجعلني أفكر في الفتاة على أنها قد تكون من ذلك الجنس العجيب الذي تحدث عنه الأصدقاء في أسمارهم التي لم تنقطع ساعة واحدة من نهـــار ؛ ولم يطف برأسي قط — والله يعلم أنني صادق فيما أروي — أن تلك الفتاة الـتي تجلس على مقربة مني ، قد تكون هي النافذة الـتي سأطـل منهـا — لأول مرة — على ذلك العالم المسحور ؛ أبدا لم يطف ببالي شيء من هذا ؛ وكأن كياني كله عندئذ كان هو ذلك القرآن الذي أخذت أتلو آياته في همس ، مدخلا نفسي في عالمه ؛ ومازجا معانيه — بقدر إدراكي لها — بشغاف قلبي ، فكم علمنا الشيخ أبو قرين أنه رب صائم لم ينله من صيامه إلا الجوع والعطش ، ولم أرد أن أكون أنا هذا الصائم الذي يصوم عبثا ؛ وفجأة دبّرت الأحداث أمرا ، وهو أن دخل عم الفتاة يسألها إن كان لديها شيء يلف فيه ثوبا جديدا كان يحمله على ذراعه ، فأجابت بالنفي وخرج العم ؛ وعلقت الفتاة بعبارة تشير بها إلى معنى خفيٍّ ، وقرنت العبارة بابتسامة تنادي وبنظرة تدعو .

فاذا كنت قد رأيتَ شرارة النار ماذا تفعل بكومة من الدريس الجاف ، فقد رأيت مــاذا فعلت تلك الشيطانة بجسدي الذي كان الصوم قد جففه ! لقد أشعلت في أحشائه نارا — على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز — لأنني أحسستُ عندئذ لهب النـــار يأكل جوفي

أكلا ، ويعلو إلى وجهي فيشويه ؛ وتحول كيـاني الملتهب إلى عينين ذاهلتين تنظر إلى الشيطان وقـد تجسَّد في إنسانـة من البشر ! لكن لساني لم ينطق بحرف ، وسُمِّر بدني كله على مقعدي ، وعيناها مـا زالت تدعو ، وابتسامتها مـا زالت تنـادي ... ومضت ساعـة أو ساعتان أو لا أدري كم ساعة مضت ؛ حتى دنا وقت الغروب ووجب الرحيل .

خرجتُ أسلّم باللفـظ من بعيـد ، وذهبت إلى دارنا : مصحف القرآن في يـدي ، وجسد الصائم المنهوك يمشي بخطوات سريعة ، لا أعلم من أين جاءه الوقود ليسرع ؛ لكنه أسرع ، ووصـل إلى الدار لحظة غروب الشمس ، وأفطر الصـائم ، وذهب ليستمع إلى الدرس الديني بين يدي الشيخ - بعد صلاة العشاء والتراويح - منصتا أضعاف ما كان ينصت كل ليلة ، وخاشعا أضعاف مـا كان يخشع ، كأنه أراد بذلك أن يقيم الأسوار الحصينة بينه وبين الغواية ... لكن هيهات ، فلقد انفتح الباب الموصد عن العالم المسحور ؛ لقد كانت روحي يومها من جسدي كأنها يوليسيز من سفينته أثناء تجواله في البحر ، حـين ربط جسده إلى قلعها وشدّ على نفسه الوثاق ، إذ قيل له إن الساحرات في إحدى الجزر على الطريق ، يُتغنّين بصوت خلاب لا يملك دفعه إنسان من البشر ، فينعرج المـلاحون بسفائنهم إلى حيث الصوت الساحر ، حتى إذا ما وقعوا في فخاخ الساحرات دارت بهم الحتوف ؛ ولم يُردْ يوليسيز أن يضعف أمام الإغراء ، فشدّ نفسه إلى قلع السفينة شدا ، لكن السفينة اضطربت أي اضطراب ومالت أيمـا ميـل !

وهكذا كنت يومئذ من ساحرتي ؛ تلك الشيطانة التي رسمت في نفس الفتى المراهـــق صورة للمرأة كيف تكون ، فتوالت الأيام وكرّت الأعوام ، لكن الصورة قد رسخت في نفسه لا تزول .

وها هنا يخطو الفتى خطوة نفسية قصيرة المدى ، فإذا هو مغمور بحبه لقراءة الشعر ، وما هو أقرب إلى الشعر من نثر الناثرين ؛ فالزملاء في المدرسة ما يفتأون يباهي بعضهم بما قرءوا من الشعر وبما حفظوا ؛ وأخذت تتردد بينهم أسماء سمعتهـا لأول مرة : الأجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران ، وليـالي سطيـــح والبؤساء لحافظ ابراهيم ، والعبرات للمنفلوطي ، فاندفع فتانا في هذا العالم الجديد اندفاعـا ، لكنه كلما قرأ قصيدة في الغزل ، أو وقع على كلام فيه لوعة الحب ، فهمه على ضوء ما كان يحسه إزاء تلك الشيطانة التي رسمت أمام خياله معالم الطريق .

فلطالما عبرتُ طريق الأعراف بين عالم الجسد وعـــالم الروح ، فأعرج إلى السماء مرة وأهوى إلى الأرض مرة ؛ وتجسدت لي العلاقة بين الأرض والسماء كم هي قريبة إذا شاء الله ، ذات يوم وكان قد جاء إلى الأسرة وافدتان جديدتان هما أختان ، ثم وافـــد ثالث هو أخ لم يلبث على وجه الأرض إلا عاما وبعض عام ، وثقلت عليه العلة ، ولم ينقطع له أنـــين عـــدة أيام ؛ وفي ذلك اليوم الذي أعنيه — ساعة الضحى — لم يبق في الدار — فيما أذكر — إلا أمي وأنا ؛ ولا أدري أين ذهب البـاقون ؛ وكان لا بـــد للأم أن تنظر في شئون البيت ،

فأجلستني متربعا على السرير ، ووضعت الطفل العليل على ركبتيّ لئلا أرفع عن وجهه نظري ، لأنها كانت تخشى فيه أمرا ؛ ومضت ساعة أو أكثر أو أقل ، والحشرجة تزداد في صدر المحتضر ، ثم ما هو إلا أن مال برأسه ، وسكنت الحشرجة ، ولم يعد الصدر يعلو ويهبط كما كان يفعل ... لقد مات راقدا على ركبتيّ ، فصرخت فازعا ، وجاءت الأم في هلع ، ونظرت إليه ، وحماته ملهوفة عليه ؛ وكأنها لم ترد أن تصدق أنه مات ، فصاحت فيّ : اذهب كالبرق وناد خالتك أم محمد لتفحصه ... فلا أطباء ، ولا أحد من أفراد الأهل الأقربين هناك لأدعوه ، ولم يبق أمامها من موئل إلا جارة وقوراً ، هي التي صاحت بي أمي أن أناديها على عجل .

وكان ذلك أول موت شهدته على مقربة ، حين كانت النفس مني حائرة بين أرضها وسمائها ، فعلمت بما قد رأيت أن المسافة قريبة بين الأرض والسماء .

وأراد الله أن يعوضنا أخاً مكان أخ ، فجاء من لقى منا كل إعزاز وتدليل ، وما يزال يلقى .

... ...

بهذا انتهت مذكرات الأحدب ، أو ما استطعت أن أستخرجه من مذكراته ، لأن بها أجزاء كثيرة ممزقة أو مطموسة تتعذر قراءتها؛ وهي مذكرات كتبها وهو في أول عهده بالتدريس بمدينة ميت غمر ، وكان له عندئذ من العمر نحو خمسة وعشرين عاما ؛ ومضت عليها خمسة وعشرون أخرى ، لأنه اليوم في الخمسين .

لم أطق بعد قراءة هذه المذكرات صبرا على الغياب عن القاهرة ، فقللت من مدة الغياب ما استطعت ، وعدت لأسرع بزيارته بعد أن عشتُ معه لحات من عهد الطفولة والشباب .

الفصل الخامس

رماد يشتعل

١

بيني وبين الأحدب من أوجه الشبه ما يفسر هذا التجاذب الذي صادق بيننا إلى الحد الذي يجعل كلاً منا يفرح بلقاء الآخر ويسعى إليه ، فكلانا بدأ حياته مدرسا ، وإن كنتُ أنا قد سبقته إلى المهنة بخمس سنوات هي الفرق بين عمرينا ، وكلانا لبث حياته عَزَباً لم يتزوج ، ولكلينا ولع بناحية خاصة من الثقافة ، يميل بها نحو تتبع المذاهب الفكرية العامة في الفلسفة والنقد وفي الفن وفي السياسة والاجتماع ، تتبعا يجنح نحو التجريد في الفكرة والبعد بها عن التطبيق ، ولذلك فنحن كلانا نبرع في الجدل النظري ، بقدر ما نعجز عن التماس طريقنا في الحياة العملية ، وإن يكن الأحدب بعد هذا التشابه بيني وبينه يعود فيختلف عني في درجة الولوغ والإيغال في عالم الثقافة هذا ، حتى انتهى به الأمر إلى ترك التدريس والانصراف بوقته كله إلى حياته الثقافية في العمل وفي أوقات الفراغ على السواء ، إذ أنه —

كما قـد علمت – يرتزق من الكتابـة في المجـلات الأدبية ؛ ثم يتسع الاختلاف بيننا فيشمل طريقة النظر إلى الحياة ؛ فهو سوداويّ المزاج قلق متشائم ثائر على الأوضاع كلها كيفما وجدها ، فلا يرضيه أن يكون الأبيض أبيض ولا الأسود أسود ، وقد انعكست هذه النظرة على طريقة معاملته للناس ، وهأنذا قد وجدته في عزلته لا يـكاد يعرف أحداً أو يعرفه أحد؛ على حين أني قـد لا أكون راضيا عن بعض الأمور ، فأكتم السخط لأظهر الرضى ، وأجحد الغيظ لأبدو هادئا ، وأنيم الثورة في جوانحي لأستسلم للأمر الواقع .

ولقد ظللت في عملي خارج القاهرة عدة أيام كنت فيها مشوقا إلى لقائه ، وبخاصة بعد أن قرأت مذكراته ، وأخذت أفكر طويلا في كيف ألقاه ؟ أأصارحه من فوري بأنني قد وقعت على بعض سره ؟ أم ألاينه وأواريه حتى يخرج ما بنفسه على فترات وفي مناسبات ؟ ولم أكن قد حسمت الأمر بيني وبين نفسي حتى ألفيتني أصعد سلّم داره ؛ لافتاً وجهي إلى أعلى إبان الصعود ، وقبل أن أبلغ من السلالم نصفها سمعت وقع قدميه هابطـا ، ولمحت طرف سراويله ، فوقفت حيث كنت : قدَمٌ أعلى وقدم أدنى ويد ممسكة بالحاجز الخشبي .

رآني فأسرع الهبوط حتى كاد ينكفىء على وجهـه ، ولقيني والبشر يملؤه على نحو لا عهد لي به :

قال – أهلا ، أين كنت ؟ لقـد طال غيابك عني ، مـع أن لديّ من المفاجآت ما أردت أن أحدثك عنه .

قلت – مفاجآت في حياتك أنت ؟

قال – في حياة من تريد ؟ لقد وجدتها بعد نحو ثلاثين عاما .

قلت – وجدتَ من ؟

قال – وجدت من فتحتْ لي بابتسامتها المناديــة مصاريع العــالم المسحور .

قلت – ... وبعينها التي تدعو ؟ !

كنت ما أزال أقف على السلـّم بقدم على درجة أعلى ، والأخرى على درجة أسفل ، ويد ممسكة بالحاجز الخشبي ؛ ولم أكد أنطق بهذه الجملة الأخيرة التي استعرتها من مذكراته ، حتى سبح بنظرته قليلا ، في مزيج من الدهشة ومحاولة التذكر ، لكنه سرعان مــا عــاد إليّ بوعيه ، قائلا إن القصة طويلة ، والموعد قد دنا ، فهيا معي وسأحدثك عن الأمر في الطريق .

وأخذنا ننزل الدرج معا ، وسألته ونحن نازلان :

– موعد مع من ؟

قال – مع سميره وزوجها .. لكنك لا تعرف بعد من سميرة هذه ...

وهنا كنا قد خرجنا من الباب إلى الطريق ، ومال بنا نحو اليمين ، وهو اتجاه يضاد الاتجاه المؤدي إلى مكان اعتزاله الذي يأوي إليه بعد الغروب من كل مساء ؛ وإذن فقد حــدث مــا غيرّه من نقيض إلى

نقيض ، فما ذاك يا ترى ؟ أتكون سميرة هذه هي الشيطانة التي ألهبت جوانحه ذات يوم من شهر الصيام ؟ لقد ذكر لي أنه قد لقيها بعد نحو ثلاثين عاما ؛ فاذا تذكرنا أن مذكراته التي ورد فيها ذِكْرُ هـــذه الفتاة قد كتبت وهو في نحو الخامسة عشرة عندما كان مراهقا ، كان الأرجح أن تكون تلك الشيطانة هي سمـــيرة اليوم ، فعمره اليوم حول الخامسة والأربعين .

على أننا ما كدنا نستوي عـــلى الطريق — وكان مزدحما بالمارة ازدحاما شديدا حتى لقد كنت أنا والأحدب كثيرا ما ينفصل أحدنا عن الآخر في الزحام ثم نعود فنلتقي — ما كدنا نستوي على الطريق حتى أخذ يقص عليّ في نشوة الطفل المرح المغتبط بقصة يرويها لأبيه عن مَرَدَة الجنّ ، كيف ذهب ذات مساء — أثناء غيبتي — إلى كازينو الشاطىء ، ولم يكن يعلم أنه غاصّ بمرتاديه إلى هذا الحد الذي رآه ، وبحكم عادته في إيثار العزلة ، اختار منضدة عـــلى الطرف الأقصى حيث يقل المرتادون ، وبينما هو يتهيـأ للجلوس ، إذا بالرجل والمرأة الجالسين على المنضدة المجاورة يتلفتان إليه تلفت من يحاول التذكر ، وأما هو فإزاء هذا التطلع منهما ، جلس ونصف ظهره إليهما ، حتى يحرمهما من رؤية وجهه رؤية واضحة ، وفي الوقت نفسه لا يُحْرَم هو إرسال بصره تجاه النيل ؛ لكنه سرعان ما تذكّر أنه بهذا الوضع إنما يعرض عليهما تشويه ظهره ، فاستدار ليجلس مستقيما : وجهه إلى النيل ، وصفحة وجهه اليمنى إلى الجالسيْن إلى جواره .

لم يكن التطلع مقصورا على ذينك الجارين ، لكنه ما لبث أن امتد إليه ، برغم ادعائه لنفسه أنه حبيس نفسه ، مكتفٍ بذاته ، يحيط نفسه بأسوار من وهمه حتى لا ينفذ أحد إلى حصنه ؛ يقول لي الأحدب وهو يروي قصته - ونحن ما نزال نشق طريقنا في الزحام ، وكثيرا ما قطع الزحام حديثه عند كلمة في سياق الرواية ، فيعود لاهثا ليكمل الحديث حيث انقطع ، وكان الأحدب أقصر مني بمقدار ما احدودب ظهره ، ولذا فقد كان مضطرا أن يشرئب بعنقه نحو سمعي - يقول لي الأحدب وهو يروي قصته إنه - بدوره - قد أخذ يتطلع خلسة ، فكان كلما وجّه النظر اليها ، وجدهما ناظرين إليه بأعين فاحصة فيعود منسحبا بنظرته كأنما يريد أن يخفي عنها أنه هو كذلك ينظر ...

ثم ما هو إلا أن هتف في دخيلة نفسه هاتف ارتج له قلبه بنبضة قوية كأنها جاءت نبضته زائدة على مجرى النبض المعتاد ؛ ذلك أنه قد تذكر مؤخرا - كالصدى يجيء بعد النطق - أنه بنظرته الأخيرة إليها قد لمح في المرأة سنّةً أماميه لها بروز خفيف وتفصلها عن السنّة المجاورة فجوة صغيرة ؛ ولم يكن قد تنبه إلى شيء إذ هو ينظر إليها نظرته الخاطفة ، فما إن اعتدل في جلسته حتى جاءه الهاتف يهتف بل يصيح :

- أتكون هي ؟

واستطرد الأحدب يقول لي كيف أنه أعاد النظر بلفتة حادة

سريعة جاءت رغم أنفه ، فاذا هما يقطعان باليقين مــــا كان عندهما موضع شك ، ونادت المرأة بصوت أبحّ :

— رياض !

فاندفع الأحدب إليها كالمجنون :

— سميرة ! هذا مستحيل ، هذا مستحيل ؛ ومختار ! ..

وكان بين الثلاثة ما يكون بين الأحباء ضربت بينهم الأيام حينا طويلا ، ثم لاقت بينهم على غير انتظار منهم ، ولو انتظروا لما تحقق لهم مثل هذا اللقاء ، لكنها الأيام وحبها المباغتة تفاجىء بها الناس ، ليعلموا أن وراء تدبيرهم الضيق تدبيرا أوسع وأعم .

كانت سميره ومختار متقاربين في العمر مع الأحدب ، فثلاثتهم في نحو الخامسة والأربعين ؛ أما هي فأعوامها تلك لم تزدها — في عين الأحدب - إلا نضجا أُنـثـويًّا ، فالشفتان المليئتان بعض الشيء ما زالتا — في عينه — تنذديان ، والعينان العميقتان المتلألئتان الضاحكتان ما زالتا تدعوان ؛ والبشرة مــــا زالت على صفائها القديم ، والصوت الأبحّ قليلا ما زال يثيره ، وكأن شعراتها البيض لم تفعل سوى أن زادتها إشراقا على إشراق ، وملاحة على ملاحة ؛ فاذا وصفت سميرة بجملة واحدة قيل إنها ذات الوجه الصبوح ، فملامحها لا تعرف الجهامة ، ووجهها لا يعرف العبوس ؛ وذكاؤها اللماح متوقد في عينيها ؛ إنها لم تكن قد زادت في دراستها على سنوات قليلة في مدرسة أولية ، فهي

تكاد تخلو من كل تحصيل مدرسي ؛ لكن من ذا يبحث وهو معها عن تحصيل ، فها هنا تكون فطرة الأنثى على أتمها وأكملها ، بحيث يشعر الرجل وهو بين يديها أنه في حضرة الجنس كله وقد تجمع في واحدة من بناته ؛ بل إنها كلما استخدمت في حديثها كلمة مما اعتاد نساؤنا وهن على الفطرة أن يستخدمنها ، ومما يتعلم من تعلمن منهن أن يتجنبنها ، جاءت تلك الكلمة على أعماق نفسه كالموقظ للطبيعة النائمة ؛ وتذكر الأحدب زميلا له في التدريس كان طلّق زوجة وتزوّج من أخرى ، ولما سئل السبب راح يثني على زوجته الأولى في كل شيء ، إلا أنها اعتادت بحكم تعليمها أن تكثر في حديثها من قولها : « ثم إن .. » فكانت كلما فاهت بهذه الصياغة اللفظية ، أحسّ في نفسه نفورا لم يستطع مقاومته ، حتى واجه طبيعته آخر الأمر ، وفعل ما فعل .

إنه في الحق لأمر عجيب يستحق النظرة الفاحصه : يتعلم أبناؤنا وبناتنا ، فيتطور المتعلم الفتى في كل شيء إلا في مثيراته الجنسية ، تظل كما كانت لتكون لو لم يتعلم شيئا ؛ على حين لا تكاد تتطور المتعلمة الفتاة في شيء إلا في مثيراتها الجنسية ، فلا يبقى فيها شيء مما يكون عند أختها المتروكة على الفطرة ، مع كون الأختين من ثقافة اجتماعية واحدة .

وسميرة امرأة من اللاتي نشأن على فطرة التقليد الثقافي للمرأة واحتفظن بما نشأن عليه ، ولا اعتبار لأن يكون الأحدب قد قطع ما قطعه من أشواط في التحصيل الثقافي اتساعا وعمقا وارتفاعا ؛ فهو ما

يزال يلتقي بقلبه معها في مستوى فطري واحد : هي تنادي وهو يجيب ، وهي تدعو وهو يستجيب .

وأما مختار زوجها فرجل طويل القامة معتدل الجسم كثيف العنق طويله ، على صدغيه وفي رسغيه وشم قديم ، فيقال إنه ريفي التحق بالجندية وقضى فيها مدته ، ثم خرج منها موظفا مدنيا في الجيش ، فكأنه بدّل ثيابه العسكرية ، ولكنه لم يستطع أن يبدل من حركات جسده ، فهو ما يزال مزيجا من سذاجة الحديث في الريفي وصلابة الحركة في الجندي ؛ وهو طيب القلب إلى اقصى الحدود ، لا تفارق الابتسامة شفتيه ، لكنها ابتسامة المرتبك أكثر منها ابتسامة المطمئن الراضي ؛ إن الأحدب ليتحدث معه الآن حديثا متقطعا حتى لا يثير فيه الغيرة إذا هو انصرف بكل حديثه إلى سميرة ؛ يتحدث معه فيما يدّعى له أنها ذكريات حلوه وما هي عند الأحدب إلا أمرّ الذكريات ، لأنه يتحدث معه عن الأسابيع الأولى بعد زواجه من سميرة ؛ وكيف زارهما في دارهما بدعوة منه ؛ ذلك أن الأحدب عندئذ لم يجد في نفسه الشجاعة أن يزور الزوجين ليرى حبيبة قلبه ملكا لرجل آخر ؛ إنه أحبها حبا عارما كحب الشباب الملتهب ، لكنه لم يكن من الظروف المواتية ولا من الارادة المستقلة بحيث يتزوج من أحبّ وهو ما يزال مراهقا لم يبلغ بعد نصف شوطه الدراسى ؛ وقد حاول عبثا أن يلوذ بالعبادة وبالامعان في التهجد ، حتى أوشك أن يقع في غيبوبة الدراويش ، لكن ذلك كله لم ينقص من نبضات قلبه نبضة ؛ ومرّت بعد زواجها أسابيع قليلة ، ثم جاءته دعوة من

الزوج يدعوه بهـــا إلى زيارته على عشاء ؛ فأدرك أن الدعوة هي في الحقيقة من سميرة متخفية وراء زوجها ؛ فذهب وقلبه يسبقه إليها ، وجلس ليلته هناك يتبادلون « الفوازير » :

– أردب فول منثور من هنا لاستنبول ، ما هو ؟

– النجوم .

– حجر حجنجر ، في الأرض ينجر ، يبيض ويفقس مـا حـد ينضُر ، ما هو ؟

– الثعبان .

– قدّ الفيل وينصُّر في منديل ، ما هو ؟

– الناموسية .

وهكذا مضى الثلاثة في تبادل « الفوازير » حينا ، ثم نهض الزوج ليحضر له من داخل الغرفة مجموعة مجلدة من مجلة اللطائف المصورة ، وفي هذه اللمحة الزمنية القصيرة عاتبت سميرةُ رياضا على احتجابه ، وأجاب رياض في عبـارة مخطوفة بأنـه احتجب حرصا عليهـا هي ؛ وعاد الزوج يحمل مجلدا ضخما ، وراح يقلب صفحاته ، ومعه سميرة ورياض ينظران إلى الصور ، ويستمعان إلى مـا كان يقرؤه عليها من نكات أو من أخبار عن أشخاص كانوا عندئذ طلبة صغارا ، وهم اليوم من الوزراء والعظماء والقادة .

نعم طفق الأحدب يتحدث مع مختار حديثا متقطعا يذكّره فيه بتلك الأيام الأولى ، لكنه في حقيقة الأمر كان يسوغ بذلك أحاديثه الطويلة المستفيضة مع سميرة ؛ وسألتُ الأحدب :

– وإلى أين نحن ذاهبان الآن ؟

قال – إلى كازينو الشاطىء ، فأنا معهما على موعد .

قلت – وهل ترى وجودي مناسبا ؟

قال – ليس شيء في الدنيا أنسب لي من وجودك ، لأنك ستسدّ لي ثغرة الزوج ، لكي أعيش أنا الساعة أو الساعتين مع سميرة ؛ إنه رجل طيب .

ووصلنا حيث وجدنا سميرة وزوجها مختارا قد سبقانا إلى هناك ، والظاهر أنهما قد وصلا منذ مدة غير قصيرة ، لأنهما كانا قد فرغا من شرابهما ، فأمامها هي زجاجة فارغة من زجاجات الكوكا كولا وأمامه فنجان فارغ من فناجين القهوة ، وبينهما كوبا ماء أحدهما فارغ والآخر ملىء إلى نصفه ؛ وحيينا وقدمني إليهما ، ثم جلسنا ، والوجوه الأربعة مبتسمه في فراغ ، لأن الأعين كانت كلها شاردة كأنها تجتنب اللقاء وتبادل النظرات الكاشفة عن دخائل النفوس .

٢

كنت أنا أكبر المجموعة سنا ؛ كما كنت بينهم وحيدا في بعدى عن

المشكلات العاطفية القديمة ؛ فمن لمحة واحدة عرفت أن سميرة والأحدب ما يزالان ينظران بأعين مترعة بالعشق المحروم الظمآن ، وأن مختارا يساوره القلق الخفيف مما يراه بينهما من خيوط تخفى عن العين ولكنها ظاهرة ظهورا واضحا أمام بصيرته ، ولعلها ظهرت منذ الزيارة الأولى التي قام بها رياض عطا للعروسين بعد زواجهما بقليل ، ومضت ثلاثون عاما تقريبا كانت كفيلة أن تحيل الديار العامرة طلولا خربة ، لكنها لم تمح ما بين هذين القلبين ، وكدت أقول بين هذين الجسدين ، لأنني أحسست جسديهما يتجاذبان ، ففي كل جسد منهما ميل خفيف نحو الآخر ؛ اذن فقد كنت وحدي بينهم قادرا على فتح الحديث بأعصاب هادئة ، فقلت :

— أنبأني الأستاذ رياض ونحن في الطريق اليكما أنكم قد التقيتم بعد غياب طويل .

فقالت سميرة ناظرة الى الأحدب — (والحق بل والعجيب أن الحدب كاد عندئذ يختفي إلى حيث لا أدري ، فقد خيل إلي أنني أنظر إلى ظهر مستقيم كسائر الظهور) — قالت سميرة وهي تنظر إليه نظرة يسيل الشوق منها كخيوط الضوء : نعم ، كان آخر عهدنا به ونحن عروسان ، وها هوذا يلتقي بنا مرة أخرى ونحن جدان !

قلت : أتتحدثين بلغة الحقيقة أم بلغة المجاز ؟

قالت : بلغة الحقيقة الصارخة ، فلنا ولدان ، أكبرهما في الخامسة

والعشرين ، اسمه مصطفى وهو الآن مدرس بمدرسة بنهـا الثانوية ، لم يتزوج بعد ، ويليه أخوه « عـلي » وهو ضابط برتبة الملازم ، ومتزوج وله ولد .

فقال رياض في ربكة ظاهرة ، كأنه لا يدري ماذا يقول ، ولكنه يريد أن يتكلم بـأي لفظ ولأي معنى : ولماذا لم يتزوج مصطفى ؟ فأجابته سميرة ، وفي نغمتها تدليل له كأنهـا توجه الحديث إلى طفـل صغير : لأنه يحب امرأة متزوجة ولها أبناء ؛ فهو من طراز الرجـل الذي يدع الفرصة السانحة تفوته ثم يتعلق بالمستحيل ،فلا يرضيه الواقع حين يقع له بين يديه ، حتى إذا ما أصبح خيالا وأوهاما ، راح يسبح فيه غارقا إلى أذنيه ؛ وعلى ذكر مصطفى ، لقد كنا سمعنا أنك بدأت حياتك مدرسا ثم تركت التدريس ، فماذا تصنع ، حدثنا يا أخي عن أحوالك كلها منذ تركناك ، لا تكتم عنا شيئا .

فقال : في جلسة واحدة تريدين أن أقصّ عليك أحداث ثلاثين عاما؟

قالت : ولماذا قضيت بأن تكون جلسة واحدة ؟ أتحسب أننا تاركوك لتشطح على هواك ؟

فقال مختار : اتركي الرجل في حريته طليقا كالطير ينتقل من فن إلى فن (وكان مختار يظن أنـه باستخدامه لكلمة « فن » يصبح جديرا بتبادل الحديث مع هذين المثقفين اللذين يجلسان معه) .

قال رياض : لا يا سيد مختار ، فالطير حبيسُ قفصٍ من صنـع يديه ،

أو على الأصح من صنع الظروف التي أحاطت بـــه ، (وهنا حسبتُ كأني أرى القتب يظهر من جديد) فقـــد وجـد كل شيء صادفه في طريق حياته كالقيـد أنزل عليـه ليقيده فآثر آخر الأمر أن يتحدى العالم كله بأن يقيد نفسه بيديه ليكون حبسه بيده لا بيد عمرو .

فعادت سميرة إلى سؤالها لتغير النغمة الحزينة : يا أخي لم تقل لنا فيم تركت التدريس ، فربما هديتنا إلى طريق صالح لمصطفى ؟

فأجابها الأحدب : تركته إلى الصحافة الأدبية .

قالت : تعني أنك تعيش على الكتابه ؟

قال : نعم ، ولكنـه عيش ضنك من الوجهة المادیـــة ، فسيح من الوجهة العقلية ؛ كنا ونحن طلبة بالجامعة — أعني أنا وأربعة آخرون من الأصدقاء الأقربين — قد أحسسنا برغبة قوية في أن نتصل بالصحافة ؛ وكنا يومئذ قـد بـدأنا بالفعل نكتب مقـالات أدبية في المجلات الأسبوعية ، وكم كنـا نضحك كلما نشر لأحدنا مقـال معنون باسمه مقرونا بكلمة « الاستاذ » ؛ وأخيرا جمعنا أنفسنا واتفقنا على تكوين جمعية أدبية تنمو مع الزمن ، وأقمنـا علينا من بيننا رئيسا وسكرتيرا وأمينـا للصندوق ، أي أنه لم يبـق إلا عضوان فقط بغـير ألقاب ، كنت أنا أحدهما ؛ وقررنا في أول جلسة من جلساتنا التي كنا نعقدها في منزل الرئيس ، أن يكون الاشتراك الشهري عشرة قروش — وهو كل ما كنا نستطيـع الاستغناء عنه — كما قررنا

أن نبدأ في تكوين مكتبة للجمعية تنمو هي الأخرى مع الزمن ، وبدأنا بشراء كتاب صدر حديثا وارتجت له الصحافة الأدبية ، هو « عصر المأمون » للدكتور فريد رفاعي ؛ ثم ماذا ؟ ثم حزمنا أمرنا ذات يوم ، وصممنا على أن نعرض أنفسنا للخدمة مجانا في الصحيفة التي تقبل العرض ؛ وبدأنا بجريدة الأهرام ؛ ودخلنا نحن الخمسة على رئيس التحرير ، يقودنا رئيسنا ونتبعه في صف كأننا جماعة من الطلاب جيء بها أمام ناظر المدرسة مشكوة ، ويراد بها التحقيق فالعقاب ، فكان هذا الدخول المتعثر المتخاذل الضعيف كفيلا وحده أن يوحي إلى رئيس التحرير بالرفض السريع :

– ماذا تريدون ؟

– نحن جمعية أدبية تريد أن تشتغل بالصحافة (وكان المتحدث هو الرئيس ،وهو أجرأنا في توجيه نظره نحو من يحدثه) ونحن لا نريد أجرا على عملنا ، وكل ما نريد أن يؤذن لنا بالاشتراك مع هيئة التحرير ، نطيع ما نؤمر به ، لتكون لنا بذلك فرصة للتدريب ، حتى إذا ما تخرجنا جعلنا الصحافة مهنتنا عن خبرة ودراية .

فقال رئيس التحرير في نغمة العطف ، لكنها في الوقت نفسه نغمة المستخف بأحلام شباب ساذج غر : أتمنى لكم التوفيق ، لكن يحسن أن تنصرفوا إلى دروسكم ، وأن ترجئوا هذا الحديث إلى ما بعد التخرج .

قال رئيسنا – ولكن لو تركنا أمورنا تجري مجراها الطبيعي ، فنخشى أن يجرفنا التيار ، فنشتغل بالتدريس مثلا ، مع أننا جميعا ذوو ميول أدبية واضحة ، فربما تضيع بالإهمال .

فأجاب رئيس التحرير بلهجة حاسمة : لا ، لا ، معاذ الله أن تفهم مني أنني أدعوكم إلى إهمال مواهبكم العظيمة ، لكن صحيفة الأهرام تعتذر ، لأنها لا تستطيع قبول ما تعرضونه عليها .

وخرجنا من عنده صفا متعثرا متخاذلا ضعيفا كما دخلنا ، وكل ما هنالك من فرق بين الحالتين ، هو أن رئيسنا هذه المرة كان في ذيل القافلة ؛ وما كدنا نخرج من دار الأهرام إلى الطريق ، حتى وقفنا قليلا إلى جوار الجدار ، ونظر بعضنا إلى بعض ، ثم انفجرنا ضاحكين ، إلا الرئيس فلم يضحك ، بل قال في عزم : هلموا إلى صحيفة أخرى ؛ تعالوا نذهب إلى جريدة السياسة .

وتبعناه إلى جريدة السياسة في شارع المبتديان ، وطلبنا مقابلة رئيس التحرير ؛ فلم يكن في مكتبه ذلك المساء ؛ لكن أمرا حدث لم نكن نتوقعه ؛ ذلك أن حافظ عفيفي أرسل إلينا من يستوقفنا ونحن نهبط السلّم خارجين ؛ وعدنا لنجده يستقبلنا استقبال الرائد للمسترشد ؛ وأمر ففتحت لنا الغرفة المقابلة لغرفة رئيس التحرير ، ودخلناها لنجدها « صالونا » فاخرا فرش كله بالقطيفة الحمراء ؛ بساطا وستائر وكراسيّ وأرائك ؛ وجلسنا على أطراف المقاعد ، وجلس قبالتنا حافظ عفيفي ، فقال في صوت هادىء .

– ماذا تريدون ؟

فأجاب رئيسنا : نحن جماعة أدبية ... الى آخر القصة .

قال حافظ عفيفي بصوته الهادىء : الدكتور هيكل غائب هذه الليلة ، وسأرتب معه لقاء بكم ؛ لكني أحب أن أوجهكم منذ الآن بنصيحة ؛ إن جريدة السياسة — كما أرجح — ستقبل تدريبكم كما تريدون ، لكن فلتعلموا منذ الآن أن الصحافة لم تعد كلاما يستقطع من رءوس الكتّاب بغير اطلاع ولا دراسة ؛ فمهما يكن الموضوع الذي قد يرد على خواطركم لتكتبوا فيه ، ستجدونه موضوعا قد سبقكم إلى الكتابة فيه من هو أعلم منكم وأوفى بحثا ودراسة ، واذن ، فالنصيحة الواحدة التي سأكتفي بها الآن هي : ألا كتابة بغير درس وقراءة تسبقها .

وشكرناه على عطفه الأبوي ، وانصرفنا على أن نعود في مثل هذا الوقت من الليلة التالية ؛ ففعلنا ، وكان الدكتور هيكل عندئذ في مكتبه ، وكان قد سمع بأمرنا ، فلم يسأل : ماذا تريدون ، لأنه يعلم ماذا نريد ؛ بل أخذ يوزعنا من فوره على أقسام الجريدة : فاذهب أنت إلى الأستاذ شوقي في السياسة الأسبوعية ، واذهب أنت إلى فلان في الغرفة الفلانية ، واذهب أنت الى مصححي التجارب في المكان الفلاني ... ثم أردف يقول : إن أماكنكم هذه ستتبدل مرة كل أسبوعين .

لكن الأسبوعين الأولين لم ينقضيا ، حتى دعانا الدكتور هيكل لتناول الشاي ذات مساء في داره — وكانت عندئذ شقة من عمارة في

جاردن ستي – وقولوا ما شئتم عن مشاعر الغبطة التي ملأتنا ، وذهبنا في الموعد على مائدة مثقلة بأصناف الفطائر والفاكهة إلى جانب الشاي ، وبدأ الدكتور هيكل الحديث معنا ، قائلا :

– لقد فكرت في أفضل طريقة يستفاد بها من ميولكم الأدبية ، فوجدت أن تعاونوني على إخراج كتيبات صغيرة تباع مع الصحف بأثمان رخيصة ، كل كتيب منها يبسط موضوعا مما يتصل بتاريخنا وأدبنا ، وبخاصة القديم منهما، حتى نذيع أصولنا الثقافية في أوسع دائرة ممكنة ؛ وسأخصص لكل منكم موضوعا ، يجمع لي ما استطاع من مادة فيه ، ومهمتي أنا الإخراج والخلق والصياغة ، فما رأيكم .

– رأينا هو ما ترى .

وأذكر أن نصيبي في هذا التوزيع ، كان موضوع « سميراميس » كما ورد في الأساطير ؛ وبعد عدة أسابيع ، من تجميع للمادة والتقاء مع الدكتور هيكل كلما تجمع لدينا من المادة ما يستحق العرض ، صدر الكتيب الأول ، ولا أذكر ماذا كان موضوعه ، وبيع عند باعة الصحف ؛ وكان أول همنا نحن أن نسرع لنرى كيف ورد ذكرنا في هذا المشروع ؛ فأظن – لأني قد نسيت – أننا لم نذكر بالاسم ، بل وردت في المقدمة عبارة تنوه بجماعة من الطلاب يعاونون في جمع المادة من المراجع ؛ ولا أدري إن كان شعورنا بخيبة الأمل ، أو كان اقتراب موعد الامتحان في آخر العام الدراسي هو الذي حتّم علينا أن ننفض أيدينا ، وبذلك انتهى الأمر مؤقتا – وأعني أن ذلك المشروع

المعين قد أخفق لساعته ، وأما النشر الأدبي في الصحف ، فقد لبث قائمًا في صدري ، حتى ألحّ عليّ آخر الأمر ، فتركت التدريس ، لأجعله مدار عملي .

فسألته : وماذا جرى للجمعية الأدبية بعدئذ ؟

فقال : مات أمين الصندوق بعد بدء تكوينها بشهور قليلة ، وانقطع بموته دفع الاشتراك ، وأصبحت — كما كانت في البداية الأولى — مجموعة أفراد أصدقاء يلتقون حيثما تيسر لهم اللقاء ؛ وأما المكتبة التي أردنا تكوينها ، فلم يدخلها إلا كتاب واحد هو « عصر المأمون » ولا أدري إلى أينا ذهب .

قالت سميرة : تعني أن التعلق بالأدب وبالصحافة داء قديم عندك وقد استفحل ؟

فأجابها رياض : نعم أعني ذلك ، كأدواء كثيرة عندي قديمة ثم استفحلت .

قالت : مثل ماذا يا حاج رياض ؟

قال : مثل حبي الذي زُرعت بذرته في قلبي ، ولم يثمر ، فقد نَمَت شجرته في جنبي من الداخل وتفرعت هنا وهناك في أحشائي ، لكنها لم تجد منفذا إلى الخارج تنفذ منه ؛ أو قولي — يا سميرة — إنه جمرة قذِفَ بها في كبدي ، فاشتعلت في جوفي ولم يظهر منها للناس إلا دخانها ، وكثيرا ما حسبوه دخانا مفتعلا مصطنعا بلا نار ...

قالت سميرة مقاطعة قبل أن يستطرد الحديث مع رياض إلى ما ليس ينبغي أن يقال أمام زوجها وأمامي ؛ قالت ــ وقد خبطت بكفها على مرفقه الذي استند به على المنضدة ، خبطة كلها عطف : لطالما قلت لمختار إن الشبه شديد بين ابننا مصطفى وبينك : كلاكما يعيش في أحلامه ، وكلاكما مضيّع للفرص حين تسنح ، وكلاكما جاءته الحياة ميسَّرة في وظيفة تقيم العيش فيأبى إلا القذف بنفسه في عالم المجهول .

فسألها رياض : هل يفكر مصطفى في ترك التدريس ؟

قالت : بل جاوز التفكير إلى التنفيذ ، فقد سمعت منه أنه معتزم السفر إلى انجلترا هذا الصيف ليقضي بها بضعة أعوام يحصل فيها على الدكتوراه فيما لست أدري ماذا ؛ فساعة يقول إنه سيدرس الأدب ، وطورا يقول إنه سيدرس الفلسفة ، وأنا لا أعده إلا مجنونا يجلب المتاعب إلى نفسه وإلى الناس .

فسألها رياض : ومن أين له المال ؟

قالت : ادخر مبلغا يقول إنه يكفيه حينا ، ولا أعلم كيف ينوي أن يدبر أمره إذا نفد ماله .

فتدخلتُ أنا في الحديث قائلا : ربما استطاع أن تضمه الحكومة إلى البعثة .

قال مختار : اتركوا بالله مصطفى وسيرة مصطفى ، لأنني أحزن كلما

تذكرت كيف أنه أكبر من أخيه ، ومع ذلك فقد استقر أخوه في حياة أسرية سعيدة هادئة ، أما هو فيكبر سنا ولا يكبر في حياته الخاصة .

قال مختار هذه العبارة متكلفا الحزن على بقاء ابنه الأكبر بغير زواج حتى بلغ الخامسة والعشرين ، غير أنه كان واضحا لي أنه حزن مصطنع ، وأنه يود لو بقي هكذا بغير زوجة تنتزعه من عالمه ؛ وسرعان ما تأيد ظني ، إذ عاد مختار بعد برهة صمت قصيرة يقول :

— ومع ذلك، فليبق كما هو حرا كالطير ينتقل كما يشاء من فنن الى فنن (كانت هذه هي المرة الثانية في جلسة واحدة ، يستخدم هذا التعبير) فما الزواج إلا قيد ثقيل بما يلقيه على الرجل من أعباء.

فقالت سميرة ، وعيناها ضاحكتان : لطالما قال لي مختار إن الزوجة « خُرْجٌ » يحمله الزوج على كتفيه ويمشي، فأقول له لأرد الطعنة بطعنة مثلها : ويكون الزوج هو « الحمار » الذي يحمل « الخرج » على ظهره ، فمن ذا يا ترى يكون صاحب الحمار والخرج معا ؟ — وضحكت ضحكة مسموعة في نهايتها انسحابة مدببة لها رنين مفعم بالأنوثة المغرية .

كان الأحدب أثناء هذا الحوار ينقل عينه من متحدث إلى متحدث ، يترقب لحظة مناسبة ليأخذ فيها بنصيبه من الكلام ، فاتجه إلى سميرة قائلا :

— متى يأتي مصطفى إلى القاهرة ؟

قالت — إنه يأتي مرتين في الأسبوع : يوم الإثنين ويوم الخميس ،

قــال — هل لي أن أراه يوم الخميس (وكنا يومئذ يوم الثلاثاء) .

قالت — طبعــا ، وتكون المقابلة عنــــدنا في — المنزل نمرة ٩ شارع الوافدية بجنينة لاظ .

قــال — وأين تكون هذه « الجنينة » ؟

قال مختار : هي اسم على غير مسمى ، فليس فيهـــا من الجنينة لا شكلها ولا عبيرها ولا هواؤها الطلـق ؛ ولكم تمنيت تركهـا لأسكن في مكان أليق بنا ، لكنها أزمة المساكن تحول دون تحقيق الرغبات .

قال الأحدب : لا عليك ، فحسبك دارا دافئة أن تكون في رعايـة زوجة مخلصة محبة تمـلأ عليك خواء الحياة وفراغها ... لقد شوّقني لرؤية مصطفى ما ذكرته سميرة منذ حين من أنهـا ترى شبها شديدا بينه وبيني من حيث طيرانه عن عالم الواقع إلى أرض الأحلام ،حتى إذا ما أحاط نفسه بجو أحلامه بكى على الواقع الذي رفضه بارادته واختياره ... نعم أريد أن أرى بعيني وأن أسمع بأذني شخصا يجسّد أمامي طبيعة نفسي، فما أحوج الانسان إلى مرآة بشرية كهذه ليرى فيها نفسه التي خفيت ... ولو أن نفسي في الحقيقة لم تَخْفَ عني ، وبَرَزَتْ ليشهدها من أراد أن يشهد .

قالت سميرة وهي تربت له على ذراعه المرتكزة علـــى المنضدة ، وكانت تهمّ بالقيام : طول عمرك يا رياض فيلسوف ؛ فما سمعت عن النفوس التي تبرز إلا منك الآن ... ولم أخطىء حين قلت إنك الشبيه الأكبر لشبيهك الأصغر مصطفى ؛وكم أنا في شوق لسماع حديثكما معا ،فعندئذ سنسمع عجبا .. هيا بنايا مختار ، ونحن في انتظارك يوم الخميس ساعة العصر ، وبالطبع يكون معك الاستاذ ...

قلت : حسام .

قالت وهي تضحك : لا مؤاخذة يا أستاذ حسام ، فلا أعرف لماذا لا أجيد سماع الأسماء عند أول التعارف .

قلت : كان يسرني أن أرافق الاستاذ رياض في هذه الزيارة ، فـــأنا كذلك كنت أحب أن أناقش مصطفى في استقالته من التدريس وعزمه على السفر إلى انجلترا للدراسة ، لأن هؤلاء الشبان كثيرا ما تضللهم أوهام الأحلام ، فقــد يخطط حياتــه لهدف وإذا بالحياة تفاجئه بنهاية مختلفة كل الاختلاف عمـــا قــد صمم لنفسه ..نعم كنت أود مرافقة الأستاذ رياض في هذه الزيارة، لكني مرتبط بموعد سابق ، وإلى اللقاء في فرصة أخرى .

٣

كان واضحا من الحي الذي يقع فيه منزل مختار ومن البناء الذي يسكنه ومن الأثاث الذي يؤثث به مسكنه ، أنـــه رجل متواضع

الدخل ، وأن تربية أبنائه قد استنفدت ذلك الدخل المتواضع حتى لم يبق له ما يتيح له فرصة الحياة المريحة ؛ فأريكة بلدية ذات مسندين عند ظهرها ، ووسادتين في وسطها ، لا يغطيها غطاء ؛ وأربعة مقاعد مستقيمه الظهر دقيقة القوائم وكليم يفرش الأرض ، هو كل الأثاث الذي وجده الأحدب في غرفة « الصالون » التي دخلها من باب خارجي مستقل ، حين دق الجرس عند وصوله ، وفتحت له خادمة صغيرة ملوثة الثياب ، تلف شعرها القذر المشعث بقطعة من القماش الممزق ، ثم أسرعت إلى الداخل لتفتح له باب غرفة « الصالون » حيث جلس في عتمتها — فالغرفة نافذة واحدة مغلقة — يدير بصره حول الجدران ، فيرى عليها صورة جماعية تبدو كأنها صورة تذكارية لمختار مع زملائه الموظفين بوزارة الحربية ، وصورة لعروسين يرجح أن تكون صورة ابنه وعروسه ؛ وما هو إلا أن انفتح الباب لتدخل سميرة مندفعة ووراءها مختار في خطوة بطيئة .

— يا ألف أهلا وسهلا ؛ هل تذكر متى كانت زيارتك السابقة لي يا رياض ؟

— نعم أذكر ، أذكر جيدا ؛ كانت منذ ثلاثين عاما . . .

وكان مختار يقف خلفها ينتظر دوره في المصافحة ، فقد لبثت سميرة واضعة يدها في يد الأحدب مدة طالت عن المألوف ، فلا هو يسحب يده ولا هي تنهي عملية المصافحة ، إلا بعد أن فرغ من الجواب عن سؤالها ؛ جلس الأحدب على الكنبة بحيث يتكئ بذراعه اليمنى على الوسادتين ، فجلست سميرة على الكنبة من جهتها الأخرى ،

واتكأت على الوسادتين بذراعها اليسرى ؛ ولم تكن مصادفة غير مقصودة أن زحفت بمرفقها حتى مسّ مرفقه ؛ وجلس مختار على أحد المقاعد الأربعة ، القريب من الضيف ؛ وأخذ يحيى بابتسامته الخجلة المرتبكة ؛ على أنه لم تمض دقيقة أو دقيقتان حتى دخل مصطفى ، وصافح الضيف بثبات وثقة في النفس ربما بولغ فيهما بعض الشيء .

قالت سميرة : هذا هو ابني مصطفى ، خليفتك في الأوهام .

فأجابها الأحدب – ناظرا إلى مصطفى – وقال : الأوهام واقع كأي واقع آخر .

قال ذلك وهو ينظر إلى مصطفى كأنه يريد أن يقول له : هذه لغة أفهمها أنا وأنت ؛ وعلّقت سميرة ضاحكة وكلها نشوة ومرح : والله ابتدأتا يا فلسفة ! ثم التفتت إلى زوجها مختار، واستطردت تقول:

رمن هذا القبيل خذ هذه الليلة كلاما حتى تشبع .

وبدأ الحوار بين الأحدب ومصطفى ؛ كأنما كانا يجلسان وحدهما ، إذ قلما تدخّل أحد من الوالدين إلا بكلمة عابرة يثبتان بها وجودهما آنا بعد آن .

قال الأحدب – سمعت يا أستاذ مصطفى أنك في طريقك إلى الاستقالة من مهنة التدريس لتتفرغ للدراسة ؟

مصطفى – لقد تمت استقالتي فعلا ، على أن أظل في العمل حتى نهاية العام الدراسي .

الأحدب - وهل تنوي السفر إلى انجلترا للدراسة ؟

مصطفى   نعم إذا لم تقم في طريقي عقبات .

الأحدب — في أي اتجاه تنوي أن تسير ؟

مصطفى — يغلب أن أتجه إلى دراسه الفلسفة في جامعة لندن .

الأحدب — ولماذا الفلسفة ولماذا جامعة لندن بالتخصيص ؟

مصطفى — لأنني بالفعل قد قطعت شوطا مع جامعة لندن في دراسة خارجية ، وأخذت منها شهادتها الوسطى ، فلم يبق إلا مرحلة الدرجة الجامعية ، لأمضي بعدها إلى الدراسة العليا ، وأرجو أن يتم ذلك في سنوات قلائل تتناسب مع ادخاري الضئيل .

الأحدب — هذا يفسر اختيارك لجامعة لندن ، لكنه لا يفسر اختيار الفلسفة مادة للدراسة .

مصطفى — إنني متردد بعض الشيء بين الفلسفة والاقتصاد ، ولي الحق في هذا وفي ذلك ؛ لكني أميـل إلى الدراسة الفلسفية بحـكم مزاجي ...

الأحدب — وهذا المزاج هو مـا أردتُ أن أعرف منك مقوماته ، فالوالدة تقول إن بينك وبيني شبها في المزاج .

مصطفى — أحسب أن أهم مـا يميزه نزوع نحو الثورة الفكرية الـتي لا يكون عند صاحبها القدرة على مسايرتها بالتنفيذ والعمـل ، فكأنما هو يثور ليترك التنفيذ لسواه .

الأحدب – لكن هأنت ذا تُلحق الثورة الفكرية بالعمل، ألم تصمم على تغيير مجرى حياتك، فقدمت استقالتك واعتزمت السفر ؟

مصطفى – نعم ولكن مثل هذا التنفيذ مقصور على مصيري الفردي ؛ لا يجاوزه إلى مجال الحياة العامة ... إن في مزاجنا – واسمح لي يا عمي أن أضم شخصيْنا في صيغة واحدة ...

فأقحمت سميرة نفسها في الحديث، مما دلّ على أنها كانت تتابعه، قائلة لابنها في فكاهة مرحة : قلْ له يا « خالي» لأنه بمثابة الأخ الشقيق لأمك منذ كنا صغيرين، وأما أبوك فلم يعرفه إلا بعد أن تزوجني .

واستأنف مصطفى – وقد بدأ عليه شيء من الضيق لملاحظة أمه، لأنه أحسّ أنها صغّرت من شأنه أمام الضيف، بعد أن كان يخاطبه خطاب الند للند، برغم مخاطبته له بقوله « يا عمي » .

استأنف قائلا : إن في مزاجنا أن نخضع أشخاصنا لارادتنا إلى حد القسوة إذا اقتضى الأمر ؛ فترانا – مثلا – نرفض الزواج ولا نرسل أنفسنا مع رغبات الجسد وشهواته إلا والزمام في أيدينا؛ أما حين يكون الأمر أمر تأثير على الآخرين، فعندئذ تبحث عنا فلا تجدنا؛ ولست أدري إن كان من الصواب أن أقول عن نمطنا من الناس : إن الفرد منا قوي متين وأما المواطن فينا فهو منسحب ضعيف؛ أقول ذلك وأعني « بالمواطنة » خروج الفرد عن نطاق فرديته ليشارك سواء .

قال الأحدب – وكأنه وجد على لسان مصطفى عبارة موجزة قوية

توضح معالم شخصيته هو نفسه - : أظنك قد أصبت الفكرة وأحسنت التعبير عنها ، لكن الحضارة مرهونة في رقيها بهؤلاء الأفراد الذين تطغي فيهم الفردية على المواطنة ، لأن تغيير القيم يتطلب الخروج على التجانس المألوف .

فأجاب مصطفى : أنا لم أتعرض للحكم على هذه الفئة من الناس بخير أو بشر ؛ لقد طلبت مني أن أحدد معالم مزاجي الذي اقتضاني أن أختار الدراسة الفلسفية إذا قُدّر لي أن أسافر للدراسة ؛ فأحسب الفلاسفة « أفرادا » قبل أن يكونوا « مواطنين » .

فسأله الأحدب : ترى ما أهم العوامل التي انتهت بك إلى هذا المزاج ، هل عُنيت مرة بتحليل ماضيك ؟

فأجابه مصطفى : وحتى لو كنت قد فعلت ، لما جاز لي أن أقول شيئا من هذا الماضي في حضرة الوالدين - وأشار إليهما ضاحكا - لأنهما من أهم صانعيه ؛ ومع ذلك فماذا يفيدني في أن أرد الحاضر إلى جذوره ؟ حسبي الآن أن ألحظ في نفسي هذا الاستعداد القوي لتلقّف كل فكرة أراها مؤدية الى تقويض ما هو شائع مقبول ، لتقيم مكانها جديدا مأمولا ؛ إنني لأتصيد الأفكار التي يثور بها أصحابها على التقاليد المستقرة الراسخة تصيدا ، وأفرح كلما وقعت منها على شيء يغذّي هذا الميل في نفسي ؛ فلو كان مجموع الناس على اتفاق بأن الشيء الفلاني صحيح ، ثم ظهر كاتب يقول إنه خطأ ، لم

أجد في نفسي رادعا يصدني عن تأييد هـــذا الكاتب الخارج على الإجماع ؛ فأنا أؤيد خروجه أولا ، ثم أنظر بعد ذلك في صدق حجته ؛ وفي ظني أن طائفة من رجال الأدب والفكر عندنا تقدم لأمثالي كثيرا من الغذاء العقلي الذي يساعدنا على الثورة الفكرية وحب تغيير القديم بما هو أجدّ وأسلم : طـــه حسين والعقاد والمازني وهيكل وسلامه موسى وغيرهم ...

وعلى ذكر سلامه موسى أذكر أنه لما أخرج كتابه « حرية الفكر » وكنت عندئذ طالبا بمدرسة المعلمين العليـا ، قرأتـه فور صدوره ، فوجدت فيه قصة الامام ابن حنبـل ومشكلة خلق القرآن ، ولم أكن قبل ذاك سمعت بهذه المشكلة الغريبة ، ففي أول محاضرة في التاريخ الاسلامي — وكان هو مقررنا في التاريخ لذلك العام — سألت الأستاذ المحاضر عن المشكلة وما أصلها وفصلها ، وكان الأستاذ قد عاد لتوه من انجلترا ، وكنا قد لاحظنا عليه نواحي كثيرة من ضعف الشخصية ومن الخصائص التي تبعث على الاستخفاف به والسُّخْر منه ، حتى لسرعان ما أصبحت نوادره حديث مجالسنا ؛ لكن لم يكن لأي شيء من ذلك دخل في جدية سؤالي ، وفي جدية المأخذ الذي توقعت أن أُجاب به ؛ فما كان أشد دهشتي حـــين ثار الأستاذ ثورة صبيانية ، وأمرني بالخروج من غرفة الدراسة ، وبينما كنا نتجادل في عنف دق الجرس ، فأسرعت لأشكو إلى العميد هذا التصرف من الأستاذ ، وخصوصا أنه قضى بحرماني من

حضور محاضراته الى آخر العام ؛ ولكم دهشت مرة أخرى حين رأيت الأستاذ يجري جريا في فناء المدرسة ليصـــل إلى غرفة العميد قبل أن أصلها، ودخل هو وأُمرت أنا بالانتظار، حتى إذا ما خرج سُمِحَ لي بالدخول ، ولم أبدأ الحديث ، إلا وقــد تلقيت اللعنات والشتائم والأمرَ بــألا أحضر محاضرات التاريخ الاسلامي إلى أن يأذن الاستاذ ...

فقاطعه الأحدب قائلا : كل هـــذا الذي أدهشك لم يكن ليدهشني ، لأنني كشفت لنفسي عن حقيقة الأمر منذ مدة طويلة ، فلكم ظننت العلم برجل ؛ وإذا به ينطوي على جهلٍ الله أعلم بمداه ، ثم يلجأ إلى تغطية العجز بمظهر يشبه مظاهر القوة ؛ إن أقدار الناس في هذا البـــلد – يا سيد مصطفى – تتحدد بطرائق سلوكهم الظاهر ، لا بحقائق نفوسهم الباطنة ؛ فالسابق منهم في شوط المباراة الاجتماعية ، هو من خطط لنفسه منذ البداية مع مَنْ مِن الناس يجلس ، وكيف يزور الناس وكيف يزار ، وبأي طريقة يتحدث مع الناس بمختلف طبقاتهم ؛ هل تذكر ما نصح به ماكيا فلي أميره حين أوصاه بــأن يبدو للناس في مظهر الكريم ولا عليـــه أن يكون بالفعل متصفا بالكرم ؛ فللناس ما يظهر لا مــا يَخْفَيَ ، ولهم القشور ولا شأن لهم باللباب ؛ لقد صدقت يا مصطفى حين قلت – أو على الأصح لقد صدقتْ والدتك حين قالت ..

فقالت سميرة ضاحكة : نعم هكذا تُرَدُّ الحقوق لأصحابها وُيُنْسَبُ الفضل لذويه ... (وتحركت بجسدها وهي تضحك بحيث زادت من التصاق ذراعها بذراع الأحدب فوق الوسادتين الحاجزتين بينهما ، مما أثار الأحدب وأربكه) .

.

وبعد قليل من لعثمة اللسان ، استطرد الأحدب يقول : لقد صدقت والدتك حين قالت إن بينك وبيني شبها في المزاج والطباع ولهذا يجوز لي - بل يجب - أن أنصحك كيف تسلك على غرار ما نصح ماكيافلي الأمير ، وألخص النصح بكلمة واحدة : لا تتواضع لأحد في هذا البلد ، حتى ولو كان المجال مجال علم يقضي بأن يتواضع العلماء ؛ لا ، لا تتواضع لأن التواضع هنا سرعان ما يصبح ضعة وقلة قدر وتفاهة قيمة ... وهل أقص عليك كيف بدأت حياتي الأدبية -وكنت مدرسا في الريف - بمقالات أبعث بها إلى صحيفة أدبية ، ولعلها مقالات قد أحدثت صدى طيبا ؛ فلما كنت في القاهرة ذات صيف ، وزرت إدارة المجلة ورئيس تحريرها وجدت إدارتها في غرفة في شقة تستأجرها جمعية أدبية تسمى بجمعية القلم كان رئيس التحرير أحد أعضائها ، فقدمني لمن كان موجودا ليلتئذ من هؤلاء الأعضاء ، ومنهم رئيس الجمعية ، فرحبوا بي ترحيبا أكثر مما كنت أراني جديرا به من علماء أجلاء ومن أدباء ذائعي الشهرة والصيت ؛ ولم تمض دقائق حتى دعاني الرئيس إلى ركن في بهو الشقة كان خاليا ، وبعد أن أعاد ثناءه

وتقديره لما قرأه لي ، عرض عليّ أن أشاركه في إخراج كتب يكون أساسها عرضا لكتب انجليزية في الموضوع الذي نكتب فيه ، عرضا لا يتقيد بالترجمة ويفسح المجال للشرح ؛ وفرحت بالعرض فرحة شديدة ولم تمض بضعة أشهر حتى كنت قد أكملت الكتاب الأول ، وأعطيت شريكي الكبير أصول الكتاب ، وبعد أيام لقيته في مقر الجمعية ، فأعطاني مقدمة أعدها للكتاب وطلبَ مني قراءتها ، فلما أخذت أقرأ ، وقعتُ في السياق على ما يدل على أن المقدمة موجهة الى القارىء منه وحده ، وأنني قمت بمعونة مشكورة ، فقلبت الصفحات الباقية مسرعا لأقفز إلى الامضاء ، وإذا الامضاء باسمه وحده .. ولا بد أن يكون وجهي قد امتقع ، فقال لي : ماذا ترى ؟ كن صريحا ؛ألا توافق على أن تكون المقدمة مني ؟ إذا كان الأمر كذلك عدّلْتُ في العبارة وجعلتها مقدمة منا معا ... فقلت خجلا : لا ، لا ، هذا هو الوضع الصواب ... وقد كان ... وكانت هذه بداية وضعت مبدأ ، وهو أن أكتب أنا ، وأتعرض أنا وحدي لما نزلّ فيه من أخطاء ، وأما القيمة كل القيمة ــ بقدر ما كان لهذا العمل الساذج من قيمة في أوانه ــ فله هو .. ثم ماذا ؟ ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد من كتابة لي ومقدمات له ، بل لاحظت أنه بمراحل سريعة راح يُظهرني بمظهر التابع لا الشريك ، أكلمه بالتلفون ذات مرة لضرورة قصوى ، فيختلط عليه الاسم باسم شبيه ، فيهش في طريقة الحديث ، حتى إذا ما

أدرك أنه أخطأ الظن ، عَبَس في رنـَّة الحديث ليمحو ما كان قد هشّ به حتى لا يفلت الزمام ؛ ويكتب إليّ خطابا ذات مرة لضرورة قصوى كذلك ، فيجعل الخطاب أربع كلمات ، منها كلمتان أوليان تقولان : « السلام عليك » - لأن « عليكم » فيها ميم زائدة عن المطلوب ... إن العصفورة إذا وجدت على نافذتك حبًّا ، تلفتت يمنة ويسرة قبل أن تلتقط الحبة الأولى ، فاذا أمنت ، راحت تنقر في توال سريع وبغير حساب ... وأذكر أني ثُرْتُ ثورة شديدة الغضب للكرامة المهدرة ، لكني ما لبثت أن طلبت العفو عن ثورتي ، ومضيت في « الشركة الأدبية » شوطا آخر حتى حدث ما اقتضى مني ثورة ثانية وأخيرة ... فلو كنت منذ البداية وضعت الأمور في نصابها ، فإما تعادلٌ وإما انفضاض ، لحدَثَ أحدُ الأمرين بغير إجحاف ؛ فمن الانصاف أن يكون الكبير كبيرا لأنه كبير ، وأن يكون الصغير صغيرا لأنه صغير ، وأما أن يَصْغُر الانسانُ بتدبير مقصود من الكبير فهو ما أسميه إجحافا ؛ وإني لأؤكد لك يا سيد مصطفى أنني بهذا الذي أحكيه لأرسم أمامك الطريق منذ الآن ، إنما اُصبُّ السخط والنقمة على نفسي أولاً قبل أن أوجّه اللوم إلى سواي ، فهأنذا مضطر إلى مضاعفة جهودي أضعافا مضاعفة لكي أنفق بعضها في محو التصغير الذي لحقني ، وأكسب ببعضها الآخر خطوة إلى الأمام ؛ فكلما سار غيري خطوة واحدة تكون كلها كسبا له في ميدان الفكر والأدب ، كان لزاما عليّ أن

أخطو عشر خطوات ، تذهب تسع منها في محو مـا قـد رسخ في الأذهان من أنـني تابع أدبي يأمرني شيخي فأطيع ، ولا شيء إلا ذاك ... والخلاصـة هي : إياك أن تتواضـع في هذا البلد ، وإلا انقلب التواضع – كما قلت لك – ضعة وقـلة قيمة وصغار قدر ...

وهنا انتفض الأحدب واقفا بغير تمهيد ، يعلن عزمه على الخروج ، واعدا ألا تنقطع الصلة بينه وبينهم بعـــد اليوم ، ليرعى مصطفى في طريقه الجديد .

الفصل السادس

تزاحم الأضداد

١

زرت الأحدب بعد افتراقنا عند كازينو الشاطىء ببضعة أيام ، وكانت زيارتي في ساعة مبكرة من عصر يوم صائف ، ومع ذلك فلم أجده في منزله ، وأسرعت إلى ملاذه المعتاد برغم أنه اعتاد الذهاب إلى هناك بعد الغروب ، لكنني لم أكن أعلم له مكانا آخر غير هذين : فإما مسكنه وإما ملاذه الهادىء خارج المدينة ... ولم يخب ظني ، فقد وجدته هناك ، ظهره إلى الطريق ووجهه إلى الخلاء .

لم تكن مفاجأة له أن رآني ، بل لاحظت ارتياحه لرؤيتي ، وما هو إلا أن تبادلنا بضعة أسئلة بنظرات صامته ، فكأنما سألته بنظرة صامتة : فيم تركك لمسكنك في هذه الساعة المبكرة ، وكأنما أجابني بنظرة صامتة كذلك : كدت انفجر ضيقا ففرجت عن نفسي بهذا الخروج ؛ وعدت إلى السؤال الصامت : وماذا من جديد يكربك وجاء جوابه صوتا مسموعا :

— كانت جذوة النار قد خمدت ، فأشعلتها الشيطانة من جديد .

قلت : إنك لم تنبئني بتفصيلات الزيارة .

فأخذ يقص عليّ كل ما قد رأى وما قد سمع في زيارته لسميرة ... مردفا حديثه بأن صرح لي عن لوعة قلبه ، التي عادت فاضطرمت فيه منذ دخلت سميرة غرفة الاستقبال مقبلة عليه في تهليل المشتاقة ، ووصف لي حالته الداخلية كلما مست مرفقه بمرفقها وهما جالسان على الكنبة يتكئان بالذراعين على الوسادتين ، فكانت كلما غمزت مرفقه بذراعها ، ظنها ترسل إليه رسالة ، حتى بلغت هذه الرسائل إلى شغاف قلبه ..

قلت له : إني لأعجب لك يا أستاذ رياض ؛ أتحب لامرأة في الخامسة والأربعين هي جدة لها حفيد ، ومن رجل مثلك في الخامسة والأربعين لديه ثروة غزيرة من ثقافة ؟ !

قال : بل العجيب عجبي منك ومن الناس أجمعين ، لأنهم يخلطون بين فكرتين : فكرة الحب وفكرة الزواج ، خلطا عجيبا ؛ فكأنكم تحسبون ألا حب إلا حيث يكون احتمال لزواج ، وأما حيث لا يكون أمل في زواج ، رحتم تعجبون للحب ينشأ بين قلبين ! ... تجيزون الحب للشباب والشابة وعلى شرط أن يكونا من فئة متقاربة الثروة والظروف الاجتماعية ، وأما إذا حدث تفاوت كائنا ما كان بين الرجل والمرأة بحيث يتعذر معه تحقيق فكرة الزواج ولو من الوجهة النظرية ،

عبستم وتوليتم بوجوهكم ساخطين ناقمين ؛ تسخطون للرجل والمرأة في سن الخامسة والأربعين يتحابان ! وتسخطون للرجل يحب امرأة متزوجة ولها أبناء أو أحفاد ! وتسخطون للمرأة تحب رجلا متزوجا ، وتسخطون للكبير يحب صغيرة ، والكبيرة تحب صغيرا ، وتسخطون للغنيّ يحب فقيرة وللفقير يحب غنية ؛ لا بل تسخطون للفقير يحب فقيرة مثله لأنكم ترون أنهما ينبغي أن يكونا في كسب رزقهما مشغولَيْن عن ترف الحب ، كأن الحب ثوب مزخرف أعد للزينة ، لا يلبسه إلا من كان في حياته ذا فراغ في وقته وفي ماله وفي همومه ... لا يا سيدي ، اعجبوا ما شئتم وللواقع أحكامه التي لا تُرَدّ بمجرد التعجب ؛ ومن أحكام الواقع هذه أن يكون حبٌ — وحبٌ عنيف — بين رجل في مثل ثقافتي الغزيرة وفكري — كما تصفني — وبين امرأة في الخامسة والأربعين متزوجة ولها أبناء وأحفاد ! فما رأيك أنت وهذا هو الأمر الواقع ؟ ؟

قلت له : لكنك تعرف — وأنت سيد العارفين بهذه الأمور — أن الحبّ إنما نشأ معينا لاتصال الجنسين في عملية البقاء ، واذن فلم يخطىء الناس كثيرا حين ربطوا الصلة الوثيقة بينه وبين إمكان الزواج ، لأنه حيث لا زواج — أعني حيث لا تناسل — فما ذا تكون مهمة الحب عندئذ ؟

قال الأحدب : نعم جاء الحب أول ما جاء عاملا معينا على اتصال

الجنسين ليتناسلا ، ولكن الصورة تبقى حتى وإن ذهب مضمونها ؛ فيبقى الحب عاملا معينا على ذلك الاتصال ، حتى وإن استحال التناسل لأي سبب من الأسباب ؛ لقد ارتبطت فكرة الجنس عندي بهذه الشيطانة منذ صباي الباكر ، وما زلت حتى اليوم أبحث في النساء جميعا عن لمعة عينها وبسمة شفتيها المليئتين ، وفوق هذا وهذا فاني مــا زلت أبحث في النساء جميعا عن صوتها الأبحّ ، فأنا كابْن بُرْدٍ أَعشق بالأذن قبل أن أعشق بالعين ... إنني أحبها ، وهذا هو أول الامر وآخره ...

قلت : هيــا بنا .

قــال : إلى أين ؟

قلت : أسقيك فنجانا من الشاي في مــكان يعجبك هدوؤه ويفتنك جماله .. مكان على حافة الصحراء .

فتردد قليلا ، ثم نهض معي متثاقلا ، وسرنا صامتَيْن ، نسمــع شنشنة الحصى تحت أقدامنا ، حتى وصلنا إلى حيث ركبنا سيارة أجرة أوصلتنا الى مقهى في صحراء مصر الجديدة ، في الطريــق إلى المطار ، لا يرتاده إلا عدد قليل في مثل هذه الساعة من النهار ، لانه ندوة ليلية قبل أن يكون مشربا للشاي والقهوة أثناء النهار ؛ وشاءت لنــا المصادفات العجيبة أن نرى هناك جالسا وحده شيخ الفلاسفة في مصر ، لطفي السيد ، يستدبر الناس وينظر إلى الخــلاء وعلى عينيه

نظارة سوداء ، فتهامسنا باسمه أنا والاحدب ، واخترنا منضدة بعيدة هيبة منا لمكانته ، لكنه في سبحاته المتأملة ، حفزنا ـ دون قصد منا مباشر ـ على أن نتفلسف في تناولنا لمـا تناولناه من موضوعات الحديث ؛ فما استقرت بنا الجلسة حتى قلت في نغمة تتكلف السخرية الممزوجة بالود والتعاطف :

ـ وما دمت هائما بها حتى النخاع ، فلماذا أسمعك دائمـا تسميها بالشيطانة ؟

قـال : لأنني أهيم بها رغم أنفي .

قلت : وما الذي يرغم أنفك ؟

قال : كنت أود أن أعيش كما عاش سقراط: عاطفته وعقله مُوحّدان، فلا ميل بالعاطفة إلا حيث يتجه العقل بمنطقه .

قلت : لكن سقراطك هذا كان متزوجا وأبا لأبناء ، فلماذا لم تستوح في ذلك ؟

قال : هذا سؤال خارج عن موضوع الحديث ، لأنك كنت تسألني : لماذا أسمي حبيبتي بالشيطانة ، فأجبتك لأنها أرغمتني على أن أميل بالعاطفة إلى جهة تناقض أحكام العقل ، ولم أكن أحب لنفسي مثل هذا التمزق بين العقل والعاطفة ؛ فلعل سقراط حين تزوج وأنجب البنين ، كانت عاطفته تميل وكان عقله يوافق ، واذن فلا انفصام عنده بين عقله وعاطفته ، وهذا هو

بعينه ما كنت أتمناه لنفسي .

قلت – وعقلك بالطبع لا يقرك على حب سميرة، وقد تزوجت وأصبح لها من البنين آباء، وتقدمت بها السن .

قال : لا شأن لتقدمها في السن بالأمر ، وإنما العقدة هي أنها متزوجة وأم وجدة ؛ وحتى لو كانت أما وحيدة ومات عنها زوجها ، لما كان عندئذ في حبي لها ما يناقض أحكام العقل ؛ كأنما العقل هنا كلمة مرادفة لقولنـــا مصلحة الجماعة ... ولكني عاجز بعقلي أمام عاطفتي وهذا هو سر محنتي يا .. أليس عجيبا أني لم أسألك عن اسمك حتى الآن ؟ لقـد اكتفيت لنفسي بـأن أدعوك « ڤرجيل » .

قلت ضاحكا : ولماذا ڤرجيل ؟

قـال : لأنني وجدت فيك شيئا من الهداية إلى الطريق المستقيمة التي تخرجني من ظلام الغابة في الجحيم ؛ فلئن كنت أنا دانتي الحالم ، فأنت ڤرجيل الناصح الهادي .

قلت : ولكن ڤرجيل حين هدى دانتي لم يَهْدِه إلى طريقة مستقيمة كما تقول ، بل نصحه باتخاذ طريق ملتوية طويلة ، يدور بها في مدارج الجحيم كلها من أسفلها الى أعلاها ، ثم يصعد بهـــا في معارج الأعراف ، معتقـــدا أن الإدراك الكامـل لا يكون بطريق مستقيمة سهلة ، بل يكون بعـــد خبرة طويلة غنية بمشاهداتها ؛ على أن ڤرجيل لم يَهْدِ دانتي إلا إلى الأعراف ،

فيما بين الجحيم والفردوس ، وأما الطريق الى الفردوس فقد كانت هاديته فيها حبيبته بياترتش .. وعلى كل حال يا سيد رياض ، إن اسمي هو حسام ، حسام الدين محمود.

قال الأحدب : كان فرجيل هو « العقل » في طريق الهداية ، حتى إذا ما آل الأمر الى الايمان ، الى العاطفة القلبية ، تسلمت الزمام بياترتش ، أي تسلمه الحب ؛ فأكملت العاطفة بقية الطريق إلى الفردوس ، بادئة حيث انتهى العقل ؛ وكذلك ستكون أنت وسميرة في حياتي ، سأجعل لك الهداية العقلية ولها هداية العاطفة ، هداية القلب ، هداية الحب ؛ فاهدني ما شئت إلا فيما يمس قلبي وهواجسه ، فأنا في هذا هو المجنون الذي لا يرجى له شفاء ...

قلت : إننا — أنت وأنا — لم نتزوج ، وكلانا قد تقدمت به السن إلى حيث لا يرجى زواج طبيعي سعيد ؛ وقد آن لي الآن أن أكشف لك بدوري عن سر قلبي ، وهو أهول فاجعة من سر قلبك ، فأنت قد أحببتَ صبيا صغيرا مراهقا ، وخمد الحب ثم اشتعل ، فلا غرابة أن يدوم لك موضوع حبك على الأيام ، بحيث لا يؤثر فيه أن تكون معشوقتك في الخامسة والأربعين، أو أن يكون لها زوج وأبناء ؛ وأما أنا فقد وُلِدَ لي هذا الحب العجيب شيخا جاوز الخمسين ، وبيني وبينها عشرون عاما ، وهي الأخرى زوجة وأم ؛ كلانا يا أستاذ رياض يتعلق

بالمحال ، إلا أن محالك أقرب إلى العقل من محالي !

قال الأحدب وكأنما قد أخذ يواسيني ويرشدني بعد أن كنت أواسيه وأرشده : أؤكد لك أن مأساتك ومأساتي تلتقيان مع مآسي ملايين البشر في نقطة واحدة وإن تعددت أشكالها وظروفها ، وهي أن رباط الحب قلما يتحقق في زواج ؛ فالزواج دائماً يكون حيث لا حب ، والحب دائماً يكون حيث لا زواج ؛ إن الأمر شبيه بهدف يصوب إليه ألوف الرماة رماحهم ، فالإصابة الصحيحة واحدة ، والى جانبها عدد لا يحصى من الخطأ ؛ فالحبيبان لا يلتقيان إلا قبل أن تتهيأ ظروفها أو ظروف أحدهما للزواج ، أو بعد أن يكون قد تم الزواج وفات الأوان ؛ ومن هنا كان لكل زوج – فيما أتصور – حبيبة كان يود لو كانت له ، ولكل زوجة حبيب كانت تود لو كان لها ... أضداد تلتقي وتتزاحم ، وتلك هي الحياة .

٢

كان للأحدب عمله في الصحافة الأدبية ، وكان لي عملي في وزارة التربية والتعليم ، ولكن لا عملي كان يعنيه ولا عمله كان يعنيني ، كأننا قد وضعنا العمل بين قوسين – على نحو ما كان هوسرل يريد أن يفعل ، فينحّي عن النظر ما يعترض طريقه من ظواهر الحياة الفكرية ، ليخلو الطريق أمامه إلى ما هو أبعد وأعمق – فكذا نحن أبعدنا شئون الحياة العملية فقوّسناها بين حاصرتين ، لننبش فيما هو وراءها من جذور

شكر والعاطفة ؛ ولولا ذلك ما وقعنا على الجذور المشتركة بين للفحصينا ، فها نحن أولاء قد التقينا عند أساس واحد : هو التعلق بالبعيد المحال ، والتقى معنا في ذلك - كما سمعت من الأحدب - مصطفى المدرس الشاب الذي ما يزال في طريقه إلى المجهول ؛ فكأننا نحن الثلاثة جوانب من نفس واحدة متعددة الجوانب ، التوى منها جانب وهو الأحدب واستقام جانب وهو أنا ، وما يزال جانب يغامر وهو مصطفى ؛ كلنا يمر الواقع تحت أنفه وفي متناول يده ، فيُغْضي ، حتى إذا ما فات حاولنا أن نمسكه من قفاه وهيهات أن تقبض منه أيدينا إلا على ريح ، فقد أدبر ؛ لكن هنالك فرقا بين حبي وحبهما ، فهما قد واجها المستحيل بعد أن كان ممكنا ، وأما أنا فقد واجهت المستحيل منذ بداية الأمر .

ولم يكن هذا كله ليتحرك في نفسي ، دون أن أتجه من فوري - بعد أن ودعت الأحدب عند داره بعد الغروب بقليل - الى زيارة لصديقي فريد وزوجته عفاف ، التي لا أكاد أخفي حبها بين جوانحي ، حتى يحدث ما يجدده ؛ فقد رأيتها مع زوجها في القطار بعد غياب دام خمس سنوات لعلى تعمدته ، فعاد لي الشوق القديم ؛ وذو الشوق القديم - كما قال الشاعر - وإن تعزّى ، مشوق حين يلقى العاشقينا ، وهأنذا قد لقيت من العاشقين صديقي الأحدب ، فأشعل بناره ناري ، حين كان لقاء القطار قد هيأ لها وقودا جديدا .

وفي أقرب مكتب للتلفون ، طلبت منزل فريد أسأله إن كانت

زيارتي له ممكنة ذلك المساء ، فرحب ترحيبا شديدا مطالبا أن تكون في أسرع لحظة مستطاعة لينعم بلقائي وحديثي أطول مدة ممكنة ؛ ولم تمض ساعة – فصديقي فريـــد يسكن في حلوان لأن والده الذي يسكن بجواره مريض بذات الصـــدر وأشار أطباؤه أن يعيش في منطقة جافة لبضعة أعوام – لم تمض ساعة إلا وقد كنت أدق جرس الباب ، والمنزل دور أول من بناء ذى طابقين ،فيجتاز الداخل حديقة صغيرة ، ويصعد خمس درجات عِراض ، ليجد نفسه في شرفة لهـــا بابان مغلقان ونافذة فتح مصراعاها الخشبيان ، وبقى الزجاج مغلقا من ورائه ضوء جاء خافتا من خلال ستارة شدت على الزجاج من داخل ؛ فلما ضغطتُ الجرس باصبعي ، أضاء مصباح في الشرفة الفسيحة ، ثم ما هو إلا أن انفتـــح باب ، وظهرت عفـاف في ثوب أزرق بديـع ، يكشف قليلا عن أعلى صدرها الشفاف ، وعن ذراعيها حتى الكتفين ؛ فصافحتُ يدها اللينة بيد وراءها قلب نابض ، ولو كانت هنالك في الدنيا يد أريدُ لها أن « تنام كالعصفور بين يدّي » لكانت تلك هي يدها في يدي .

استقبلتني في بشـْر شديد ، وأخذتني إلى الغرفة التي كنت رأيت ضوءها من الخارج خلال ستارة النافذة ، فوجدته حتى من الداخل ضوءا خافتا ، هادئا ، مريحا للبصر ، صادرا عن سراجين مُظَـلَـّلـَيْن في ركنين من أركان الغرفة ... كل شيء في الغرفة جميل جمال الذوق الرفيـع المهذب ، فألوان المقاعد منطفئة ، وقطـــع الفن المنثورة على المناضد الصغيرة تم عن اختيار موّجه مدبّر ، ولم تكن مجموعة من

هنا وهناك جمعا عشوائيا ، بل جُمعت ليردّ بعضها على بعض ، ويكمل بعضها بعضـــا كأبيات القصيدة الواحدة ، وجلستْ عفاف أمامي جلسة فيها كثير من القلق غير المطمئن ، لتقول في بشاشة سيدة الدار المدرّبة على استقبال ضيوفها : أهلا يا أستاذ حسام .

– أهلا بك يا عفاف هانم ؛ أين فريد ؟

سألت هـذا السؤال برغم أني قـد وصلتُ لتوي ، وذلـك لأني أحسستُ بعدم وجوده إحساسا غريزيا ، أو قل إني أحسست بذلك لجملة شواهد صغـيرة اجتمعت كلهـا معـا ، فليس هو الذي كان في استقبالي ، ولم يكن له صوت مسموع من الداخل ولا حركة تنبىء بأنه قادم ، فضـلا عن نصْفِ الجلسة الـتي جلستْ بهـا عفـاف على مقعدها ، ترحّب بي في قلق غير مطمئن .

قالت – سيعود بعد دقائق ، فقد اضطر إلى « مشوار » صغير هنا في حـلوان ، استدعـاه على عجـل صديقكما الاستاذ شعبان الفنان ... مسكين ، ابنه مريض وقد فاجأتـه نوبـة وأراد الاستعانة بفريد ، لأن فريدا – كما تعلم – أصدقاؤه الأطباء كثيرون ، وقليلون من هؤلاء الأطباء من يقبـــل المجيء إلى حلوان ، ولكن ربما استجاب أحدهم لرجاء فريد ... الأبناء عبء ثقيل على الآباء والأمهات .

قالت ذلك وكأنها أرادت أن توجه اليّ شيئا من العزاء على بقائي بغير زواج ؛ فقلت لها : كل شيء في هذه الحياة له ثمنه المتكافىء مع

قيمته ؛ فالأبناء ذخيرة نفسية ، ولا بد أن يكون ثمنها ضخما من جهد وعناء .. كيف حال عروستي ونهاد ؟

قالت : الحمد لله ، نهاد ما تزال عفريتة من الجن .

ونادت خادمتها : يا لطيفة ، أين نهاد لتسلم على عمها ؟

و كأنها وجدت في هذا المنفذ طريق نجاة من وجودنا القلـــق في غرفة وحدنا ... إنها — فيما أُحسُّ — تشعر بحبي لها ، ويسرها ذلك كما يسرّ كل امرأة في الدنيـا أن تكون موضـع حب ، لكنها في الوقت نفسه لم أكن أظنها تريد للأمر أن يزيد قيد شعرة عن هذه المرحـلة ، فهي أحرص من أن تقع في غرام شيـخ ضاقت بـــه سبـل العاطفة وإشباعها ، فراح يخبط ، حتى جاءت الخبطة في غير هدف ملائم ؛ ولم أكشف لهـا بالطبـع عن حبي هذا ، لكنها اهتدت إليـه بغريزتها واغتبطت له بغريزتها أيضا ، وكفاها من شرٍّ رؤيتـُه من بعيد .

ودخلتْ بنتها نهاد — في السابعة — ولكنها لم تلبث أن خرجت ، وعبثا حاولت أمها استبقاءها ؛ فنادت خادمتها لطيفة أن تجيئهـــا بكوب من الماء ، لتشغل الوقت بمجيء وذهاب ، إلى أن يعود فريد من زيارته المفاجئة لشعبان .

قلت : تُرى هل أستطيع أن ألحق بفريد عند صديقنا ، لأن الواجب عليّ زيارته والسؤال عن ابنه مـا دمت في حلوان ؟ صفي لي الطريق .. قلت ذلك وهممتُ واقفا ؛ فأحسَّت بشعور من

ينحو إلى نفسه باللوم على سوء تصرفه ، إذ أحسَّت أنها بقلقها الظاهر قد حملتني على مغادرة المكان ما دام زوجها غائبا ، مع أن الزوج قد أوصاها أن تمسك بي حتى يعود ؛ثم لماذا تكذب على نفسها ، فهي تريد خلوة معي تقول لي فيها ما استطاعت أن تقوله عن التنافر الذي لم ينقطع بينها وبين فريد ؛ فأجلستني على مقعدي ثانية بيدها ، و كأن هذه اللمسة أزالت الحاجز النفسي بيننا ، فقالت :

– لقد حرمتنا من زياراتك سنين طوالا .

قلت : الحق أني لا أعلم كيف جاءت هذه القطيعة بيننا مع أننا كأفراد الأسرة الواحدة .

قالت : كنت بزياراتك تقوم بدور « الفرامل » لفريد ، فأنت وحدك دون سائر أصدقائه تغريه بلون من التحضّر ؛ أما لو تُرك على سجيته مع سائر الزملاء ، لارتدوا إلى حي باب الشعرية والحسين .

قلت : فريد يكره التكلف في حياته ، وهذه حسنة فيه ، ألا ترين مثل هذا الطبع المرسل على سجيته في غير تكلف ، خيراً من رجل يتصنع حضارة ليست منه وليس منها ؟

قالت : مثل من ؟

قلت : لا أقصد أحدا بعينه ، وإنما أسوق الكلام على وجه التعميم ؛

إننا جميعا نكنّ لفريد أخلص الحب لروحه السمحة وفكاهته الحلوة .

قالت : آه .. لا تذكرني بفكاهاته هذه التي تقول عنها إنها حلوة ؛ إنني والله لأذوب في نفسي ذوبانا عندما تكون واحدة من صديقاتي في زيارتي ، ويجلس معنا فريد ، ثم يأخذ في إرسال نكاته التي لا أطيقها ولا تطيقها صديقاتي ، فهو بهذه النكات يقلب لي جو « الصالون » إلى جو « القهوة البلدية » .

قلت (ولم أكن أقصد الى هدف خبيث — أو على الأقل لم يكن الهدف الخبيث مقصودا) : حقا كما يقولون ، حبيبك يبلع لك الزلط، وعدوك يتمنى لك الغلط .. فلو كنت تحبين فريدا لوقعت نكاته هذه التي تعيبينها فيه بردا وسلاما على قلبك .

قالت : وهل أكتم عليك أنت يا حسام سرا ، إذا قلت إني لم أشعر بحب لفريد منذ تزوجنا الى اليوم ؛ لقد حاولت مع نفسي مرة ومرة وألف مرة ، فلم أستطع إلى الآن بلعه دون أن يقف منه شيء في زوري ؛ إنه رجل طيب ، طيب القلب جدا ، لكن ما حيلتي في نفسي ...

وكانت هذه أول مرة في حياتي أسمعها تناديني بيا حسام ، مجردة عن الاستاذية أو البكوية التي اعتادت أن تلصقها بالاسم ؛ فانتفض قلبي في صدري كالعصفور المذعور ؛ كم أمنية في حياة الانسان يظل

يتمناها ، حتى إذا ما تحققت ذعر لها كما لو كان يريد أن يبقى محروما منها ليظل يتمناها ؛ ومن هذه الأمنيات الـــتي طالما تمنيتها أن تزول الـكلفة بين عفاف وبيني ؛ وكنت كثيرا ما أخطو من ناحيتي الخطوة الأولى ، فأناديها باسمها مجردا عن « الهانم » أملا في أن تستجيب برفع الـكلفة من جانبها ؛ لكنها لم تكن تفعل أبدا ، فأرتدّ إلى بناء الحاجز الذي حاولت هدمه ، وأخاطبها بقولي يا عفاف هانم ؛ لكن ها هي ذي قد استجابت لأول مرة ، بل هي التي خطت الخطوة الأولى هذه المرة ؛ فلماذا اذن ينتفض قلبي في صدري انتفاض العصفور المذعور ؟ ترى هل هذا هو ما يسمونه بالضمير ؟ لكن فيم يتحرك ضميري ومـا زالت على كرسيها وما زلت على كرسيّ ، وما زالت تفصلنا المناضد إن لم يردعنا شيء غير ذلك ؟

قلت : وهل كان هذا هو شعورك نحوه منذ أول الزواج ؟

قالت : نعم كان هذا هو شعوري .

قلت : وفيم قبولك الزواج اذن ؟

قالت : لأن الزواج ليس حبًّـا كله ،أو هكذا تقنع الفتاة نفسها عندما يجيئها خطيب له من الظروف الاجتماعية مـا يؤيده عندها ؛ إنها تخشى أن تقامر ، فتترك هذا لكي لا يجيئها ذاك ؛ واذا لم تخشى هي ، خشي أهلها .

قلت : لكنك لا تستطيعين أن تقعي فيه على عيب يعاب .

قالت : ليست المسألة عيوبا يشار إليها بالأصابع ؛ بـــل المسألة روحٌ
تتآلف مع روحي أو لا تتآلف ؛ دعني أكن صريحة أكثر
من هذا فأقول : إنـــه حينما يورد في كلامه ألفاظا فصحى ،
يقشعر بدني تقززا على حين أن هـذه الألفاظ الفصحى نفسها
قـــد ترد في حديثك أنت ، فأجدها عنــدك من علامات
التهذيب ... المسألة يا حسام (هكذا قالتها بغير ألقاب للمرة
الثانية) مسألة كلٌّ واحدٍ لا يتجزأ ، فإما أن تقبـــل المرأة
رجلا بكل ما فيه ، أو أن ترفضه بكل ما فيه ؛ ليس الأمر
أمر تحليل يغربل الصفات ، فهذه مطلوبة وتلك مرفوضة ،
لأن المرأة لا تقبل أو ترفض بعقلها وتحليله ؛ بـل الأمر أمر
غريزة تقبل « الرجل » أو ترفضه .

قلت : هذا كلام خطير يا عفاف ؛ إنني منك في العمر بمثابة الوالد ،
وبخبرة الوالد وبعطفه أنصحك ألا تؤكدى لنفسك هــــذه
المشاعر بتكرارها .

قالت متهكمة : اسمح لي يا « دادي » أن أقول إني لم أذكر لك مـــا
ذكرته لأطلب النصح ؛ فليس معنى كلامي أنــــني أفرط في
فريد أقل تفريط ، فهو أبو نهاد ؛ بل إني لأخدمه بإخلاص ،
وأهيىء له كل أسباب الراحة ؛ لكن هل يعني ذلك حبا ، كما
تريد المرأة أن تحب رجلا يكون هو « الرجل » دون سائر
الرجال ؟ فريد رجل طيب القلب ، لم ألق منه إساءة قط في
حياتنا الزوجية ــ فيما عدا إصراره عــــلى أصدقائه القدماء

الذين لم يعودوا يصلحون له .

قلت ضاحكا : ولعلي أول هؤلاء الأصدقاء القدماء ؟

قالت : لا تكن باحثا منّي عن كلمة ثناء ، فقد أثنيت عليك مخلصة صادقة ؛ إن بيني وبينك عشرين عاما كما كنت دائما تقول بمناسبة وبغير مناسبة ، لكن ما رأيك أن فجوة الزمن تنمحي عندما أحدثك ، وأحسّ كأني أحدث صديقا في مثل عمري ؟ البعد بين الناس والقرب إنما يقاسان بدرجات الاختلاف في التكوين النفسي ولا يقاسان بعدد السنين ؛ يقاسان بالقيم التي ينظر بها كل إلى الأشياء ، والقيم عندك هي نفسها القيم عندي .. لكن لا يأخذنك الغرور .

قلت : إذا كان غرور ، فالغرور غرورك أنت !

ضحكنا معا ثم قالت : أتظن أن فريد يتحرج من الحديث الودي مع لطيفة الخادمة ؟

قلت : وما العيب في ذلك ؟ إنها نزعة إنسانية تحمد فيه ، وكثيرا جدا ما فعلتُها !

قالت : افعلها أنت تكن شيئا ويفعلها هو تكون شيئا آخر ؛ منك تكون تهذيبا ، ومنه تكون ارتدادا إلى المعيشة البلدية التي كنت أحب أن أحوله عنها فلم يتحول ...

ودق الجرس ودخل فريد في صخبه المعتاد ، واستقبلني بالحضن والقبلات .

قالت زوجته : كيف حال الولد المريض ؟

قال : هو الآن أحسن من ساعة فاتت .. لطف الله به وبوالديه وعجّل له الشفاء ... أنت تعرف شعبان ؟

قلت : طبعا أعرفه ، أقام معرضا منذ شهر ، وزرته هناك ليلة الافتتاح .

قال : وما رأيك في فنه الجديد ؟

وقبل أن أجيب ، قالت سامية ساخرة : وما شأنك أنت يا فريد بالفن الجديد والقديم ؟ اترك الفن لأصحابه .

قال في مرحه المعهود : تأدبي يا امرأة — ثم صاح بأعلى صوته : الشاي المنعنع يا لطيفة ! والله زمان يا حُسُم !

فنظرت إليّ سامية نظرة أرادت أن تذكرني بها بما كانت قالته لي عنه منذ حين ، وأخذت تقلب كفيها إظهارا لدهشتها ، وتمطُّ شفتيها امتعاضا .

فنظرتُ إليه وإليها وقلت لنفسي ما قاله الأحدب :أضداد تلتقي وتتزاحم وتلك هي الحياة .

٣

سألت فريدا ونحن نشرب الشاي في منزله :

— متى وكيف عرفت الأحدب ، أعني رياض عطا ، الذي حدثتني

عنه في القطار ؟

فنظر إلى زوجته عفاف ونظرت إليه وتبادلا ابتسامات ذات مغزى ، ثم قالت هي : كان تقدم لخطبتي قبل زواجي من فريد .

قلت وأنا في ذهول الدهشة : وماذا كان يشتغل عندئذ ؟

قالت : كان مدرسا في مدرسة ثانوية ، وسمعنا عن امتيازه في مادته العلمية ، وكانت أختي عندئذ تعد لشهادة الدراسة الثانوية ، واتفقنا معه على درس خصوصي لها ، فكان أن رآني عدة مرات أثناء زيارته لنا ؛ ولما أكمل مهمته واختفى ، أرسل من يتوسط له في خطبتي .

قلت : ثم ماذا ؟

قالت : ثم اعتذرنا وانتهى الأمر ؛ الحق أني لمست فيه من لطافة الحس وتهذيب الذوق ما لفت نظري إليه بالإعجاب ؛ سمعته مرة يعلّق على لوحة فنية في منزلنا ، ثم استطرد يربط الروابط الكثيرة بين فن التصوير وفن الشعر ومنجزات العلم ، حتى لقد رسم لي عندئذ صورة حية متماسكة لثقافة عصرنا ما زالت ناصعة في ذهني ، وكثيرا ما استخدمتها في مناقشاتي مع صديقاتي ؛ لقد أذهلني هذا الرجل بثقافته وعجبت أن يكون كل هذا مدرسا في مدرسة ثانوية ، ولكم شهدت من أساتذة الجامعات من لا يساوي قلامة ظفر منه في غزارة الثقافة وهضمها .

قال فريد ساخرا : يا خسارة ! لقد أضعت على نفسك زوجا ممتازا ، فلماذا رفضتيه ؟

قالت : لنفس السبب الذي أقْبَلَ على خطبتي ؛ أرادني طمعا منه في صعودٍ اجتماعيٍّ ، ولم أُرِدْه خشية مني أن أهبط في سلّم المجتمع ؛ المسألة اجتماعية صرف .

قلت : أو ليس في الزواج عنصر آخر أهم من الصعود والهبوط في درجات المجتمع ؟ أحسب أنك قد تجاهلت أقوى الروابط جميعا ، وأعني رباط الحب .

قالت وهي تضحك في مرارة : يسترك الله يا حسام بك ؛ ما للزواج والحب في هذا البلد ؟ خذها قاعدة : حيث يكون حب فلا زواج ، وحيث يكون زواج فلا حب .

وسادت لحظة صمت فيها توتر ، ما كدنا نخرج منها بنكات من فريد ، حتى استأذنتُ وانصرفتُ ، لكن عنصرا جديدا من هذا الأحدب العجيب قد تكشف لي ؛ إنه يضع نفسه حيث لا ينبغي أن يضعها ، حتى إذا ما لقي الصدمة راح يتلوى ويخرج كارثته التي جلبها على نفسه تورما فوق ظهره .

وزرته في اليوم التالى ، مصمما هذه المرة ألا أماليه في الحديث ، فهو معقد إلى الدرجة التي لم يعد يجوز لي أن أزيده تعقيدا بعطفي ،

فكلما ازددت له عطفا ازداد هو اعتقادا بأنه مضطهد مغبون ؛ لقد عرفت عن الأحدب الآن أكثر جدا مما يظن ، فلم أقل له بعد إني وقعت على مذكراته التي حلل فيها أجزاء هامة من ماضيه ، فهل أكتم عليه هذا النبأ أيضا ؟ إنها في رأيي حادثة خطيرة لمن يريد أن يغوص في أعماقه ليدرك حقيقة اكتئابه وبلواه .

وشاءت المصادفات المواتية أن أصل الى مسكنه في اللحظة نفسها التي كان هو عائدا فيها من زيارة لسميرة ، فكان من النشوة بحيث راح يصفر بفمه ألحانا من الألحان الشائعة ، ويقفز على الدرج قفزا ، مستقيم الظهر فلا قتب من خلف ولا جهامة من أمام ... إنه شخص جديد ، مما زادني عندئذ سخطا عليه ونقمة .

دخلنا غرفته ولم يغلق بابها ، وجلست أنا وطفق هو يرفع هذا الشيء من مكانه ليعيده إلى مكانه ، ويفتح خزانة الملابس ليعيد إغلاقها : حركات سريعة عشوائية لا يحقق بها غرضا سوى أن تكون متنفسا لطاقة النشوة الفائرة .

قلت : اجلس يا رياض ، إن لي معك حديثا .

قلتُها في نغمة جادة استوقفتْه فسكنت فورته وجلس يواجهني منحنيا بصدره إلى الأمام ، مقلما أظفار يده بأسنانه وراح يسألني في نغمة جادة كذلك :

قال : ماذا ؟

قلت : إنك لم تكن مع سميرة في منزلها ؛ فأين كنتما ؟

قال : وهل يعنيك هذا ؟

قلت : نعم يعنيني ، فلم تعد صلتي بك صلة مما يجوز لنا أن نبترها اذا شئنا ؛ فقد أطلع كل منا الآخر على دفين سره ، ولم يعد لنا بد أن نكون كالجانبين من الشخص الواحد ، هذا يعارض ذاك أو يوافقه ، لكنهما متصلان لا ينفصلان .

قال : كنا معا في كازينو الشاطىء حيث التقينا أول مرة ، ولا أحسبني بعد اليوم قادرا على تركها ولا أحسبها قادرة .

قلت : هل تعرف شيئا عن عفاف الدمرداش ؟

فصمت قليلا ، وقال : نعم أعرفها ، أعرفها جيدا ، كنت مدرسا لاختها منذ سنوات عديدة .

قلت : ثم بعثت من يتوسط لك في خطبة عفاف ؟

قال : نعم ، وكان ما كان من رفض ، مع أنني كنت على يقين من إعجابها بي ، مما شجعني على خطبتها .

قلت : ولماذا رفضتك اذن ؟

قال : لم يقولوا لماذا ، ولكني أقولها لك صراحة فأنت من الأسرة الاجتماعية عينها .. لأني مدرس ؛ وقد كان ذلك هو الحد الفاصل بيني وبين التدريس ؛ تركته واشتغلت بالصحافة الأدبية منذ ذلك الحين .

قلت : وهل ترضى بالصحفي الأديب من لم ترض بالمدرس ؟

قــال : لا ، أعلم أن من ترفض هذا ترفض ذاك ، ولكني على الأقــل أرضي نفسي إذا لم أستطع أن أرضي سواي ... لكنك تحدثني كما لو كنت اقترفت بذلك أمرا ؟ !

قلت : نعم ، أقدمت على الزواج ممــن لا تحب .. أليست سميرة هي ليلاك وأنت مجنونها منذ أعوام طوال ؟

قــال : أأعيدها عليك ألف مرة يا أستاذنا حسام ؟ الزواج عندنا في ناحية والحب في ناحية .. إنه مجتمع مريض ، فهــل يجىء أعضاؤه إلا مَرْضى ؟ .. ولكن مــا صلتك بعفاف الدمرداش ؟

قلت : هي زوجة صديقي .

قــال : نعم فأنا أعلم أنها قد تزوجت بعد رفضها إياي بقليل ، تزوجت أستاذا للأدب الفارسي بالجامعة .. وهل هي زوجة صديقك وكفى ؟

قلت : ماذا تعني ؟

قــال : أعني أنك تحبها ؛ فالصلة بيني وبينك كما قلت لي منذ قليل لم تعد صلة بين رجلين ، بقدر ما هي صلة بين جانبين في رجل واحد ؛ ولم يهبك الله من الذكاء اللماح ما لم يهب مثله للتوأم الذي يعيش معك في جلد واحد .. لو لم يكن لها في قلبك

مكان ، لما اهتممت كل هذا الاهتمام المهموم بحادث عابر كهذا :
تَقَدَّمَ رجلٌ الى فتاة يخطبها فلم تستجب ، فماذا في هذا الموقف مما يثير اهتمامك ؟ .. أنسيتَ ما قد قصصته عليّ من غرام وقعت فيه من حيث لا تدري ، مع أنها تصغرك بعشرين سنة ، فضلا عن أنها زوجةٌ وأمٌ ؟ وبعملية طرح بسيطة ، أتبين في يقين أن عفاف الدمرداش هي ليلاك وأنت مجنونها يا أستاذنا حسام .. بل أؤكد لك أنها تستجيب لك بجزء من قلبها ، لأنها كانت قد استجابت لي بجزء من قلبها ، ولا أرى فرقا جوهريا بيني وبينك إلا فارقا في العمر لا يزيد إلا قليلا عن خمس سنوات ؛ والمرأة أول من ينسى فارق الأعمار إذا ما خفق قلبها .. إن الوعظ المنافق لا يجديك ولا يجديني ، فكلانا يحب حيث لا رجاء في حبه إلا اللقاء العابر كلما واتتنا الظروف .

وسكت الأحدب قليلا ثم استطرد يقول ، مغيرا نغمة حديثه من التهكم إلى الحديث الجاد ، حتى لسرعان ما أصبحت له المكانة العليا ولي المكانه الدنيا ؛ فقد كبر هو وصغرتُ أنا ، لأنني ارتديت أول الأمر مسوح الواعظ الخلقي مخفيا في طي ردائي تهالك الضعيف ؛ فكلانا يحب حيث لم يكن ينبغي أن يضع قلبه ، أما هو فقد واجه الموقف في شجاعة ، وأما أنا فقد جبنت وسترت حقيقتي بقناع المنافقين ؛ أقول إن الأحدب قد استطرد يقول :

اسمع يا أستاذ حسام ؛ إن الداء لا يشفيه كتمانه ، ومن الأدواء المفجعة في بنائنا الاجتماعي - وأخشى أن يَصْدُق هذا على أمم الأرض جميعا بدرجات متفاوتة -أن يكون الزواج عقدا يبرمه عقلان ينشدان تنظيم علاقة اجتماعية اقتصادية بينهما ، لا رباطا يربط قلبين يتحابان فيلتئمان في قلب واحد لا ينشد شيئا إلا أن ينبض نبضا سليما ؛ وطالما لبثت الحال على هـذا الوجه فلا بد للقلوب المكلومة أن تلتمس لهـا سبلا من وراء ستار ، نظام الزواج هو في صميمه اغتصاب يحميه القانون ؛ فإما رجل اغتصب امرأة يحبها ولا تحبه ، او امرأة اغتصبت رجلا تحبه ولا يحبها ، أو رجـل وامرأة يتعايشان ابتغاء مصلحة مشتركة ، بغير حب من أيٍّ من الطرفين .

إن الناس ليكفيهم من الأمر كله سلامة الشكل دون مضمونه ومغزاه ؛ ولي في ذلك خبرات كسبتها منذ الطفولة ولا بد أن يكون لك ؛ فها هوذا رجل يطلق زوجته ثلاثا ، وإنهما لفي غربة بعيدة عن الوطن ، فتغضب الزوجة عند غير أهل لها ، إذ لم تكن لها حيلة غير هؤلاء يؤوونها ، يوما ويوما ويوما ؛ ثم يتفق الوسطاء مع الزوج على رد زوجته ، فيجيئون بالمأذون ، ومع المأذون ابنٌ له صغير ، في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره ؛ ويُتـَّفق على أن يكون هـذا الطفل هو الزوج المحلـِّل لرجعة المطلقة ؛ وتدخل الست أم حامـد - فهكذا أذكر اسمها برغم تقادم العهد - تدخل مع زوجها الجديد في

غرفة معزولة عند آخر الفناء الفسيح ؛ ويظـــل الوسطاء من رجال وسيدات ينتظرون ، وتخرج الست أم حامد لا تقوى على أن تواجه أحدا بنظرة ، ويتضاحك السيدات ويسألنها ، فتقص عليهن كيف أخذت هي تلهو بالطفل وهو يبكي في غير فهم لمهمته ؛ وبدأت المسكينة قصتها بما يشبه الابتسام ، ثم ختمتها بمر البكاء ... لكنها عادت إلى زوجها حلالا بلالا ؛ وذلك هو عندهم زواج !

ولعل امرأة سودانية أخرى كانت على سذاجة الفطرة البريئة ، لعلها أن تكون أسلم من هؤلاء نفسا وأصفى ، لأن لها ولدا يشتغل بقيادة السيارات ، أحب امرأة عامل ، وعلم الزوج بما بينهما فطلق الزوجة ، لتذهب فتعيش في كنف العاشق بغير زواج ؛ لكن العاشق لم يكفه هذا ، بـل راح يحمل المعشوقة المطلقة على دراجة بخاريـــة ، فتجلس وراء ظهره مطوقة وسطـه بذراعيها ، وينطلق الفاجر بدراجته وعشيقته أمام دكان العامل جيئة وذهوبا ؛ فتأخـذ النخوة من العامـل مأخذها ؛ ويهاجم العاشقين في سواد الليل ليقتل غريمه بخنجره ؛ فماذا تعمل الأم الثكلي وقد علمت أن معشوقة ابنه تحمل في جوفها حملا ؟ إنها تصمم على أن تأخذ المأذون إلى قبر ابنها ، ويضحك منها الناس فتقول والدموع تملأ عينيها : مم تهزءون ؟ أريد أن أعقد قرانه على قبره ، ليجيء ابنه « جني حلال » .. وهو تصور لا يبعد كثيرا عن تصور سائر الناس لحقيقة الزواج .

قلت : ربما أصبت في أن الزواج غالبا ما يكون شكلا بغير مضمون، لكن للشكل أهميته .

قال : نعم له أهميته في ساحات القضاء ، لكن ليس له أدنى الأهمية بحساب المشاعر ... من لي بهزة عنيفة لأرجّ الناس رجا فأباعد بين كل ضدين اجتمعا على مصلحة ، وأقرّب بين كل حبيبين افترقا بحكم الظروف .

٤

وأراد لي الله أن تتأيد عندي فكرة الأحدب ، من أن الزواج لا يكاد يجمع إلا الأضداد ، فقد دعاني فريد على عشاء في منزله بحلوان ، ولم تكن قد مضت على زيارتي له إلا أيام قلائل ؛ وذلك لأنه أراد – كما قال – أن يجدد عهدي بجماعة الإخوان .

كنا تسعة أشخاص ، أربعة أزواج وأربع زوجات ، وأنا ؛ فقد حضر صبري وزوجته فوقيه ، وتوفيق وزوجته سعاد ، وصالح وزوجته سعاد أيضا ؛ وبالطبع كان هناك المضيفان فريد وعفاف ؛ وقد كنت أعرفهم جميعا ظاهرا لباطن وباطنا لظاهر ؛ لكني مع ذلك أخذت تلك الليلة أمعن النظر فيهم زوجا زوجا ، وكان حديث الأحدب لي عن تضاد الأزواج ما يزال يرن في مسمعي ؛ ولم أجد عناء كبيرا في أن أصنفهم لنفسي على أساس الميل الغريزي الذي يبدونه في أحاديثهم تصنيفا بعيدا كل البعد عما هو قائم .

فصديقنا فريد ، بجنوحه نحو طرائق « أولاد البلد » في عاداته الفردية والاجتماعية ، والذي كان بسبب هذه العادات ثقيلا على قلب زوجته عفاف ، كان هو الفارس الذي يخطف بلب فوقية ، لأنها كانت تريد رجلا يهجم على المرأة بغزله الذي لا يراعي فيه الاحتشام المائع ؛ ويكون من ضخامة الجسم طولا وعرضا بمثل ما كان لفريد من ذلك ؛ إنها لا تكف عن الضحك لكل نكتة يقولها وتتبعه بنظراتها أينما سار وحيثما جلس ؛ ولعلها كانت تقارنه عندئذ بزوجها الوديع المستكين الصامت ، بجسمه الطريّ المرتخي فتقول لنفسها في سرها : ما أبعد المسافة بين رجل ورجل ؛ نعم إن زوجها صبري مهندس لامع ، تختاره الحكومة في كثير من لجانها الفنية ، وتملأ صورته الصحف ، واذا تكلم فانما يتكلم هندسة في هندسة ومشروعات في مشروعات ، لكن ما لها هي ولكل هذه البراعة الفنية إذا لم يَغـْزُها رجلا ؟ لا ، إن هواها كله مع فريد ولا أدري إن كانت عفاف قد أدركت ما بينهما ، لكني أشعر أن لو أدركت ، لكان لسان حالها يقول : تفضلي هنيئة به ! وأما صبري في وداعته واستكانته وصمته والتزامه جانب الحذر فما كان أنسبه لإحدى السعادَيْن ؛ فسعاد وسعاد في هذه المجموعة بينهما ما بين السماء والأرض من تباين ، إحداهما انطفأت في عينيها جذوة الحياة ، وخمدت في وجنتيها شعلة الجنس ، وأصبحت في حركتها المقيدة المكبلة كأنها التمثال الشمعي ؛ لا تنطق لفظة إلا وقد حسبت حسابها ؛ فلماذا لا ينظر إليها صبري المهندس بعين الإعجاب ؛ أين كانت هذه الوادعة القانعة العاقلة المتزنة يوم أراد الزواج ؟ ...

ولكن من ذا يكون زوج سعاد هذه ؟ إنه صالح الغارق في مجونه إلى أذنيه ؛ الذي لم يكن يريد في دنياه إلا امرأة تقدر لذة الحياة الماجنة وتفهمها دون أن تدخل في الأمر قواعد الأخلاق ومستويات الحضارة والتهذيب ؛ يعلم عنه أصدقاؤه المعاصرون له والمسايرون له في أطوار الحياة ، أنه أيام شبابه لم يتورع عن فعل يشتهيه بغريزته مهما تكن العوائق في سبيل أدائه ، لم يتورع أن يتعلق بمؤخرة عربة نقل في الطريق إذا كانت عليها امرأة يريد مضاحكتها ؛ لم يتورع أن يلبس ثياب أبيه العربية : جبة وقفطان وعمامة ليسير بها في زحمة المولد ، والمسبحة في يده ، ليفاجىء أسر الفلاحين بزعمه أنه مواطن لهم من بلد قريب من قريتهم ، وأنه يعرفهم فكيف لا يعرفونه ؟ فتقع الأسرة الريفية : زوجا وزوجة ، في حيرة وربكة ، وعندئذ يوجه سهامه إلى الزوجة إذا لمح فيها مسحة من جمال الريف ؛ لا ، إنه لم يتورع عن فعل مهما يكن فيه من جرأة مرضاة لشهوته ، فاذا نجح كان بها وإلا فهو « فصل » طريف يُرْوَى للأصدقاء في جلسات السمر ... أيكون هذا الفاجر هو زوج سعاد التي لا تحرك يدا ولا قدما إلا بحساب ؟ نعم إنها بهذا السكون المميت قد قتلت حيوية جسدها قتلا ، وكان يمكن أن تعدّ من الجميلات ، لكن فكرة الأنوثة بكل خصائصها من جمال أو قبح لم تعد تَرِدُ على خاطر الناظر إليها ، فهي تمثال شمعيٌّ كالتماثيل المعروضة في متاحف الشمع ، تقف أمامه لا لتسري الحيوية منه إليك ومنك إليه ، بل لترى إلى أي حد يشبه التمثال صاحبه ، وكذلك تنظر إلى هذه المرأة الساكنة الميتة لتنظر إلى أي حد هي تشبه

الانسانة الحية ؛ فأين هذه الزوجة من زوجها الجامح ؟ إنها ربما صلحت زوجة لصبري المهندس ، فيلتقي هدوؤه بهدوئها ، وصمته بصمتها ، وهموده بهمودها فيكون شنٌّ قد وافق طبقه — كما يقول المثل العربي القديم ؛ أما أن يقع صبري النعسان على فوقية اليقظانة الصاحية ، وأن يقع صالح الداعر على سعاد الراهبة ، فذلك كوقوع الضد على ضده فلا بد لأحد الضدين أن يفر التماسا لأشباهه .

ولم يكن صالح بحاجة إلى شطح بعيد ليجد بغيته على بعد قدم واحدة منه أثناء تلك « السهرة » الصاخبة ؛ ففي الجماعة سعاد أخرى قد لا يدل ظاهرها على حقيقتها إلا لمن كان ذا عين بصيرة بالنساء كعين أخينا صالح ؛ فسعاد الثانية هذه قد تبدى لك سحنة مستعلية على الرجال ، تجلس واضعة ساقا على ساق ، معتدلة بظهرها ، مجيبة من يحدثها إجابة المالكة لزمام نفسها ، لكن وراء هذه الصلابة الظاهرة أمنية ترقد في أعماق طبيعتها ، وهي أن تجد الرجل الذي يعرف كيف يدوسها بقدميه من جانب الغريزة فيها ، شريطة أن يبقى لها مكانتها فيما بقى بعد ذلك من جوانب ؛ وهي تظن — كما يبدو من لحات عينها ومن فلتات لسانها — أن الداعر صالح ربما استطاع أن يكون هو الرجل الذي يقيم الميزان الصحيح بين قتلها في ناحية وإحيائها في ناحية ؛ لأنه كان وهو يتحدث إليها بكلمات مسموعة أحيانا وبوشوشة مهموسة أحيانا ، يلعب على الحبلين ، فتوقيرٌ في اللفظ والمعاملة كأنه إمام المهذبين وبريقٌ في عينه المتأرجحة في محجرها يبعث إليها الاشارات التي تكاد تنطق لها بما كان يستطيع فعله لو ظفر بها .

هكذا أراد الزواج تقسيما لأفراد تلك الجماعة ، وكانت الفطرة تريد لهم تقسيما آخر : ففريد وفوقية أوفق طباعاً وأقرب غريزة من فريد وعفاف ، ومن فوقية وصبري ؛ أما عفاف فلا شك فيما بيني وبينها من تقارب في الذوق والرغبة ، ولعل أفراد الجماعة قد لحظوا هذا التقارب الشديد بيننا ، لكننا كلانا على شيء من الوقار في اللحظ والسلوك ، الذي من شأنه أن يحبس ألسنة الناس في أفواههم فلا يجرءون على التعليق كما كانوا يعلقون على الآخرين في غير حرج ولا تورع ؛ كذلك كان صبري أكثر ملاءمة لسعاد الأولى ، فكلاهما قد نامت فيه الرغبة الشهوانة ، وأصبح كالمتفرج على الحياة والأحياء ، كأنه ليس منها ولا منهم ؛ كما كان صالح الشهواني أقرب إلى طبيعة سعاد الثانية ؛ ويبقى من المجموعة كلها توفيق زوج سعاد الثانية هذه ، فلا يجد له من هي صالحة له بحكم الطبع والفطرة ؛ إنه يحسّ ذلك ، ويحسّ ذلك معه بقية الحاضرين ؛ فراح يعوض هذا الانفراد بشذوذ ملحوظ في السلوك يلفت به الأنظار إليه ، كالطفل الذي ينصرف عنه الوالدان فيلجأ إلى حركات بهلوانيه ليرغمها على الوقوف والنظر .

تلك كانت جماعة الرفقاء ذلك المساء : عين الرجل على غير زوجته وعين المرأة على غير زوجها ؛ كل ذلك في لباقة وخفاء ؛ فكيف يجري بينهم الحديث إلا أن يكون مشحونا بالتلميحات والتلويحات التي يرسلون بها الرسائل السرية بعضهم لبعض ؟ فوقية ترى فريدا يقلب في يده سلسلة المفاتيح ، فتطلبها منه فيمدها إليها بصورة رمزية وتأخذها

امنه بطريقة مفهومة ؛ فيبد أزوجها صبري في رواية شيء عن عمله الهندسي الذي يشغله بل يشغل الأمة كلها ، كأنما يريد أن يقول لهذين اللذين يتفاهمان بالمفاتيح : لكما حياتكما الرخيصة ولي حياتي العلمية لرفيعة ؛ وتنتهز عفاف لحظة سكوت فتسألني عن مسرحية « أهل الكهف » من أي المصادر أخذها الحكيم ، كأنها تريد بذلك أن تعلن الأخريات أن عالمها غير عالمهن ، فيرد فريد بنكتة تضحك لها فوقية ، ليقولا بذلك ردا على حذلقة عفاف ووقاري : إن الحياة الصحيحة ضحك أولا ومرح وعبث ؛ ويأخذ توفيق المنبوذ في قصة كلها مفاجآت محال على العقل تصديقها إلا إن كنا نعيش في عصر المعجزات ، ثم يؤكد أنه يروي لهم ما حدث له فعلا ، فيضحك الضاحكون منه ويحسبهم يضحكون له ؛ كل ذلك وسعاد الأولى صامتة تضع على شفتيها ابتسامة مصنوعة ، وتدور ببصرها نحو كل متكلم ، دون أن تنطق هى بحرف ؛ وأما صالح وسعاد الثانية فكأنهما في خلوة يتهامسان ، لكنهما يعلوان بصوت الحديث كلما جاءت لحظة صمت من الآخرين ، فيكون ذلك علامة اتهام أكثر مما يكون دليلا على براءة ما يدور بينهما في خفاء .

وختمت السهرة ، فعاد الرفاق إلى ديارهم زوجين زوجين كما تملى وثائق الزواج ، لا كما تشتهي القلوب — أضداد تتزاحم — كما قال الأحدب — وتلك هي الحياة العابثة .

الفصل السابع

موت في أسرة الأحدب

١

ازدادت الصلة بيني وبين الأحدب وثوقا وقربا ، حتى لم يعد أحدنا يستغني عن أخيه لحظة واحدة ؛ وقد اطردت معنا الحياة على وتيرة واحدة ، ففترة الصباح للعمل ، وفترة ما بعد الظهر حتى ساعة متأخرة من الليل في أحاديث ينصرف شطر كبير منها في أن يقصّ عليّ وأقصّ عليه تفصيلات زياراتنا إلى مواضع حبنا ؛ حتى لكأني أزور معه ولكأنه يزور معي ؛ وتبدل الوضع بيننا ، فلم يعد هو وضع المرشد للمسترشد ، بل أصبح تعاونا بين متساويين في محنة واحدة ؛ فما هو إلا أن أوحي الموقف بالمشاركة في مسكن واحد ، لأنه توقع أن يُزَار وكذلك توقعتُ ، واذن فالخير في أن نسكن في منزل أرحب وأليق باستقبال الزائرين .

لبثنا شهورا — سافر خلالها مصطفى إلى انجلترا — وتيار الحياة

ينساب مطمئنا هادئا ؛ وكنا عندئذ كمن تحالف مع الزمن ، فلا نحن نشكو ولا هو يفاجىء ؛ وأوشك الأحدب أن يعتدل ظهره وتستقيم مشيته ، وحدثني أن مقالاتــه الأدبية تغيرت نغمتها ، والعجيب أنــه وجد أن الكتابة أصبحت أعسر عليه ، فما كان أيسر عليه قبل ذلك أن يكتب ثائرا محطما ضاربا بهراوته حيثما وقعت ، وأمــا الآن فكلما همَّ بنقد ثائر لم يجد في نفسه مدداً ، ولذلك فقد كان يضطر إلى البحث عن موضوعات لا شأن لنفسه بها ، فيكتب عن مذهب في الفلسفة أو نظرية في السياسة أو وجهة من وجهات النقد الأدبي ، متناولا هــــذا وهــذا وذاك من خارج لا من باطن نفسه وانطباعات خبرته ؛ وكثيرا ما أوحتْ إليه بموضوعات الكتابة رسائل كانت تجيئه من مصطفى ، يذكر له فيها أشياء كثيرة مما تصادفه في حياته الدراسية الجديدة في انجلترا ، وفي مدى التغير الذي يتحول به عقله من نظر إلى نظر .

كان حبه يختلف عن حبي ؛ فحبه لسميرة هو الحب بين الأنداد ، بمــا في ذلك من بسطة في الحديث وسهولة في اللقاء والزيارة ، حتى لأوشكا أن تزول بين نفسيهما الحواجز كما تزول بين الزوجين فيما يختص بوسائل التعبير ؛ وأما حبي ففيه الحذر والخوف والحرج والتردد ؛ لأنه برغم راحــة النفس وخفقة القلب ، كانت هنالــك الحوائــل النفسية الكثيرة التي تعرقل خطوتي إليها ، وأكثر منها الحوائل النفسية الــتي تعرقل خطوتها اليَّ ؛ لذلك كانت صلاتي وزياراتي أقــــل حدوثا من صلات الأحدب وزياراته ، ومن هنا كانت أحاديثنا تمسه أكثر ممــا تمسني .

وفجأة وقعت للأحدب وقائع اضطربت لها حياة كلينا معا : فإلى ذلك الحين لم يطرأ لي أن أسأل الأحدب عن أسرته لأن أمثال الأحدب من الناس يوهمونك أنهم من أنفسهم في عزلة تامة عن الكون والكائنات فلا يعنُّ لك أن تسأل : من ذا يكون أبوه ، وهل له إخوة وأخوات وأبناء عم وخال ؟ لا يعن لك أن تسأل هذا ، لأنه فرد قائم بذاته تبدأ حقيقته بشخصه وتنتهي بشخصه ، ولا أثر فيه لما بينه وبين غيره من روابط وصلات .

وفجأة جاءني ذات ليل في ساعة متأخرة ينهنه بالبكاء ، ويمسح عينيه بمنديله ويكفّ لحظة وعيناه محمرتان ، ثم يعود فينهنه بالبكاء ؛ وأنا منه في حيرة ، لا أدري ماذا دهاه ، وأسأله فلا يجيب ، فشفتاه — حتى وهو منقطع عن بكائه لحظة — راجفتان ، يحاول بمجهود ظاهر أن يوقف فيهما الرجفة فينهمر في البكاء ، وهكذا حتى مضت نصف الساعة ، وأخيرا قال وهو يبكي :

— عمي مات ... وهذا ثاني عم لي يموت ؛ مات أولهما غرقا عند أسوان حين كنت ما أزال طفلا ، أبكي لبكاء الآخرين لا عن حرقة في نفسي ، وهذا هو الثاني أبكيه من سويداء القلب .

قلت : هل كان مريضا ؟

قال : كان مريضا بالسكر ، وتعفنت له إصبع في قدمه اليمنى ، وأخذ الداء يسري ، فلم يكن بد من بتر ساقه إلى نصف

الفخذ ؛ كنت كل يوم أخطف نفسي من العمل خطفا لأزوره وأرعاه ، وكانت آخر كلمة قالها لي من قلب يحبني كما أحبه : قالها وهو ينظر إليّ ساعة حملوه إلى غرفة العمليات ، وعيناه شاخصتان إليّ وحدي برغم وجود أخيه وأبنائه بجواره ، إذ قال : أدعو لـك يا رياض براحة السر وسعادة العيش ، ربنـا يسعدك يا رياض يا ابني ... وعاد رياض إلى البكاء .

ولبث أسابيع لا يبادلني حديثه المعتاد ، ولا أجرؤ أن أبادله ؛ فهو يغيب عني ، ثم يحضر ليأكل وينام .. فهـل كان عندئذ يعاود زيارتـه لسميرة ؟ لست أدري ؛ لكن مصطفى لم يزل يرسل إليـه الرسائل المطولة ، فيقرؤها ويطوي الخطاب وقلما يعلق عليها بشيء .

وكان أول ما حدثني عنه عندما عادت إليـه القدرة على مبادلة الحديث هو ملاحظة أبداها عمـا شهده من جدّته ليلة أن نقلت جثة ابنها إلى القرية ليدفن هناك ، قال الأحدب :

سئل سوفوكليز — وكانت السنّ قد تقدمت به : « ماذا ترى الآن في الحب يا سوفوكليز ؟ ألا تزال قادرا عليه ؟ » فأجاب : « صه ! نشدتك الله ألا توقظه في قلبي من جديد ، فكم يسعدني أن أراني قد فررت من حبائله ، فأحسّ كأنما فررت من مستبد متوحش مجنون ! » .. ولست أريد في الحقيقة أن أتكلم الآن عن الحب يا أستاذ حسام ، بل أريد على ضوء هذا الذي قاله

سوفوكليز أن ألاحظ لك عما يصيب العواطف كلها من برودة الانفعال مع مرّ السنين ... لقد مات لي عمان ، جاء موت الثاني بعد موت الأول بفترة طويلة ؛ وشهدت موقف جدتي في الحالتين — وإن أكن قد شهدت الحالة الأولى وأنا صغير — فكأنما شهدت امرأتين مختلفتين أشد ما يكون الاختلاف بين الناس ؛ شهدت في المرة الأولى أمًّا جزعت على موت ابنها جزعا لم أشهد له مثيلا في كل من رأيت من الأمهات اللائي ثكلن أبناءهن ؛ شهدت عندئذ أُمًّا لا يكاد ينقطع لها بكاء ، تهيم على وجهها أحيانا في شوارع القرية صارخة نادبة ؛ وتصوم عن الطعام أياما ؛ فان أكَلَتْ تعمدت ألا يكون طعامها من أطيب الطعام ؛ وكثيرا ما كانت تذهب إلى قبر ابنها حيث تقضي اليوم كله والليل كله ، وتأبى أن تفترش غير الحصير الغليظ الخشن ، على أن تكون السماء غطاءها مهما كان البرد قارسا ؛ وألدُّ أعدائها هم أولئك الذين يتقدمون إليها بالنصح أو بالتعزية والمواساة ؛ لأنهم إن فعلوا كان معنى ذلك عندها قصورهم عن إدراك المصاب بكل هوله وفداحته ... ثم شهدت جدتي هذه لما مات ابنها الثاني ، وكانت تقدمت بها السن إلى ما يقرب من السبعين ؛ وذلك حين نقلنا جثمان عمي هذا الذي مات منذ قريب ، إلى القرية حيث تقيم جدتي ؛ وحملنا النعش من السيارة إلى بهو الدار ، فرأيت جدتي واقفة في سوادها — وكان الليل قد انتصف والسكون ضاربا ليشمل

القرية كلها في صمته العميق – وكانت الأضواء خافتة في الدار ، حتى كاد الأشخاص أمام عيني يتحولون أشباحا ... وقفت جدتي لحظة شاخصة ببصرها إلى النعش بعد أن وضعه حاملوه على أريكة خشبية في بهو الدار ؛ وقفت لحظة صامتة لا تتحرك ولا تنطق ، فلم يسعنا إلا الوقوف معها في صمت خاشعين ثم صرخت صرختين ، تنطق فيهما بلفظ « يا ولدي » ... فكان ذلك كل ما أبدته جدتي من علامات الجزع ، وبعدها جلست هادئة في المأتم ، لا تصرخ ولا تبكي ولا تندب ولا تلطم صدرا ولا تمزق ثوبا ... لقد تخلصت مع الأيام من حدة الانفعال ، فكانت بمثابة من تخلص من « مستبد متوحش مجنون » على حد ما قال سوفوكليز عن حبه الذي بردت مع الشيخوخة جذوته .

قلت للأحدب : وهل بَرَد حبك اليوم بالنسبة لما كان عليه بالأمس ؟

قال : لقد تغير نوعه ، كان هيجانا على السطح ، فأصبح تغلغلا في الأعماق ؛ كان كالشلال يقفز ماؤه فوق الصخور قفزا أرعن لا يبالي أي الأحجار يفتت وأيها يزحزح ، فأصبح كماء المحيط العميق عندما يتبدى للعين ساكن الموج وفي جوفه تيارات جوارف .

قلت : أصبت ، ولعل هذه هي مميزات ما يسمونه بغرام الشيوخ ؛ فهدوءٌ في حركة الجوارح الظاهرة فلا اندفاع ولا جرأة ولا

مغامرة ، ولكن تآكلٌ في الجوف وانهيار في الروح .

وصمت الأحدب قليلا كأنه يفكر فيما يقوله ، ثم قال والقتب على ظهره يشتد في عيني بروزا ؛ والعبوس على شفتيه والجهامة فوق جبهته :

– الحياة ثلاث لحظات : لحظة الميلاد ،ولحظة الزواج، ويعنون به النسل الذي يحفظ البقاء ، ثم لحظة الموت .. أما الأولى فكما قلتُ لك ذات مرة ... ... لا ، لا أظنني قلتها من قبل ..

– فقاطعته قائلا : كتبتها في مذكراتك .

فقال – أي مذكرات تعني ؟

قلت – أعني مذكراتك التي كتبتها عن نشأتك وأنت مدرس شاب في مدرسة ميت غمر .

قال – ومن ذا أدراك بها ؟ وأين رأيتها ؟ لقد مزقتها منذ زمن طويل

قلت – عثرت على حطامها ، وجمعت منه ما أمكن جمعه ، فعشت معك أكثر مما تظن ؛ وفي هذه المذكرات تقول إن لحظة ميلادك أدخل في حياة الآخرين منها في حياتك لأنك لا تعيها ، والعبرة عندك بالخبرة الواعية .

قال – هذا ما أردت أن أقوله ؛ وأما اللحظة الثالثة ، وأعني لحظة الموت فلن يكون لي بها علم ، لأنها تجيء بذهابي ، فلا التقاء

بيني وبينها ؛ وبقيت اللحظة الوسطى ، لحظة الزواج والنسل ، فهي لحظة لم أعشها حتى الآن ؛ واذن فماذا بقي لي من حياتي ، وبأي معنى أقول إنني أحيا ؟ أبالأنفاس التي أرددها .

قلت : في مستطاعي أن أقول هذا الذي تقوله ، ومع ذلك فأنا أشعر في أصلابي بدفعة الحياة وتيارها ؛ « فداؤك منك » — كما يقول المعري — « وما تشعر » ؛ بشعورنا نحيا وبشعورنا نموت .

— فردّد الأحدب قولي : « بشعورنا نحيا وبشعورنا نموت » .. ثم استطرد يقول : هـــذا صحيح ، نخلق دنيانا بنوع شعورنا ؛ تكون كبيرة فتصغر في شعور المزدري لها ، وتكون صغيرة فتكبر في تهاويـــل الشعور ... ثم ابتسم الأحدب ابتسامة ساخرة ، وراح يقول :

« جدّالة » امرأة سوداء لا تغري كلبا جائعا ؛ لكنها مـــع ذلك قد أغرت الغلام المراهق الذي رأى بتهاويل شعوره أنها أجمل نساء العالمين .. يجلس أمام دارها ساعات النهار كله ، يجلس بجلبابه النظيف على رمل الطريق ، يسوّي الرمل بيده ويكتب « جـدّالة » ثم يمحو ويسوّي ويكتب من جديـد « جدّالة » — يكتبهـــا بالأحرف العربية مرة ، وبالأحرف الافرنجية مرة أخرى ؛ وكلما انفتح بابها نظر ملهوفا ، لكن الخارج ليس جدّالة ، فينصرف إلى الرمل يسوّي ويكتب .. ويقول الغـــلام المراهق لنفسه : وأين تجلسان لو جاءتك

« جدّالة » الآن وقالت : هيت لك ؟ .. آه .. أمام دارها يسكن موظف أعزب ، يذهب إلى عمله ويترك خادمه ؛ لماذا لا أعقد اتفاقا مع الخادم ؟ ويقوم الغلام الحالم من فوره ويقرع الباب الخارجي بكفه ، ويسمع الخادم المجيب من داخل : من ؟ فيجري الغلام بأسرع ما تستطيع ساقاه أن تجريا ، حتى لا يفتح الخادم الباب فيراه ... ويضيع النهار كله ، ويعود الغلام إلى داره ، فيسأله أبوه عند رؤيته في غير غضب : أين أنت ؟ أين كنت ؟ .. كنت مع ربيع ! .. ومن يكون هذا الربيع ؟ .. هو صديق .. صديق ولا أعرفه ؟ وماذا كنت تصنع مع ربيع ؟ .. كنا نلعب الضامه .. تلعب الضامه طول النهار .. إنها لعبة تغويني وتنسيني الزمن ، وأود لو أظل ألعبها طوال السنين ...

ثم عاد الأحدب فابتسم ابتسامته الساخرة ، وعلّق على قصته قائلا :

– أرأيت كيف تكبر التوافه في شعور التافهين ؟

٢

توالى الموت في أسرة الأحدب ، فكلما مضت بضعة أشهر جاءني بنبأ جديد ، وكانت النظرة السوداء قد عاودته لتقيم معه هذه المرة أمدا طويلا ، فلم يكن موت أحبائه ليزيد من حزنه النفسي شيئا كبيرا ؛ فزوجة عمه تموت بعد زوجها فيكون موتها امتدادا لموت

زوجها ؛ ماتت يوم أحد، وأسرع الأحدب الى الأسواق ليشتري رباط رقبة أسود قبل أن يحين حين الجنازة ، لكن الدكاكين كانت حينئذ تغلق في أيام الآحاد ، فقال لنفسه : وهل يكون الرباط الأسود أشد سوادا من نفسي ، فلأحزن من الداخل ،وإلى الجحيم ما يقوله الأقربون والأبعدون ؛ لكنه كان يغالط نفسه ، لأنه مـــا زال قلقا إلى اليوم خشية ما قد يكون هؤلاء الأقربون والأبعدون قد ظنوه في عقوقة لمن عاشت له كالأم طيلة حياتها .

ومات أبوه .. صحبه إلى المستشفى ولم يطف بباله قط أنه خروج من الدار إلى غير عودة ؛وكأنما جاءت لحظة موته بمثابة النطق بحكمين في آن واحد ، حكم ببراءة الراحل وحـكم باتهـام ابنـه ؛ لم تتكشف للأحدب براءة أبيه فيما كان ظنه اعتداء وقسوة ، إلا لحظة أن كشف عن جثمانه الغطاء الأبيض في غرفة المستشفى ليقبلـه قبـل الرحيـل ، فيرى وجهه الميت وكأنـه وجهه الحي الذي يعرفه ... كم ألف ألف مرة يتذكر الأحدب ما قد كان أحسه إزاء أبيه من سوء ظن ، فيعض أصابعه عضا من الندم على سوء فهمه ؛ لطالما يقول الأبناء إن آباءهم لا يفهمونهم وينسون أن الآباء كذلك من حقهم أن يقولوا إن الأبناء لا يفهمونهم

كانت لحظة موت أبيه بـداية لضمير الأحدب أن يكيـل لنفسه اللائمات لائمة فوق لائمة .. « من ذا يعيده إلى الحياة ولو شهرا واحدا لأؤدي له واجب الولاء أكثر مما أديت » — هكذا لبث يقول بعـــد

موت أبيه ، ويسمعه أصغر الإخوة فيطمئنه بأنه كان يؤدي أكثر مما يؤديه الأبناء لآبائهم ؛ لكن الأحدب قــد وجــد لنفسه ذريعة كبرى يتهم نفسه على أساسها ، لأنه يحب اتهام نفسه فيزداد التواء على التواء وتعقيدا على تعقيد .

وماتت أمه الحبيبة التي تعلـّم فيهـــا كيف يكون الحب خالصا لوجه الحبيب ؛ والتي عنها أخذ صفاته الخلقية كلها ؛ ماتت من كانت تزيل عنه هموم نفسه ، فاذا راكمت له الدنيــا من صدماتها مــا ينقض ظهره ، أزاحت عن ظهره ما استطاعت من أحمال .

وجفت في عينه الحياة فلا ريّ ولا نضارة ؛ يرى نفسه في الحـلم أنه يعبر نهر النيل ، ويستعد لخوض الماء ، لكن واعجباه إنه لا ماء ، والقاع جاف ، عليه علامات تدل على أن كانت هنا ميـــاه تجري ؛ ويمشي على القاع الجاف مشية وئيدة ، يمشي خطوة خطوة ، ينظر إلى الأرض كأنما يبحث عن شيء ضاع ؛ فلا يرى إلا الحصى وآثار جريان الماء ؛ وفجأة يجد شيئا معدنيا يلمع ، إنه مبراة غُرِزت في التراب إلى نصفها ، وبرز نصفها ؛ إنها مبراة أبيه ، فيلتقطها ويضعها في جيبه ثم يمشي مشية وئيدة ، يمشي خطوة خطوة ، ينظر إلى الأرض كأنمـــا يبحث عن شيء ضاع ، حتى يصل إلى الشاطىء الآخر ، فيصعد مــا يشبه المرتقى الوعر ، يصعد حانياً جسده إلى أمام حتى لا يهوي من خلف ؛ يصعد ليرى أنه في مدينة الموتى ، جفاف في جفاف ؛ وهناك يرى عربة ، ولكن أى عربة ! عربة كلها حجر في حجر ؛ هي أشبه

بالصندوق الكبير ، انكشف غطاؤه الأعلى ، والصندوق من حجر خشن ، والعجلات من حجر مصمت ؛ والحصان المشدود إلى العربة من حجر غليظ ؛ ثم ماذا ؟ ثم ينظر في الصندوق الحجري فيرى جثمان أمه وقد غُطِّيَ على نحو ما تُلَفُّ المومياء عند المصريين القدماء ؛ وبينا هو عالق بحافة الصندوق ينظر ، إذا بالعربة الحجرية تسرع جارية بين منازل الموتى ؛ تدور إلى اليمين في هذا المنعطف وإلى اليسار في ذلك المنعطف ، فتثير من الغبار وحبّات الرمل ما يكتنف العربة كلها ، ويملأ خياشيمه وفمه ، ويُدير وجهه إلى الخلف فلا يرى إلا سحابة كثيفة من الغبار وحبّات الرمل ؛ وينسدّ أنفه فلا يتنفس ، فيتنفس من فمه ، فيشهق هواء مليئا بالغبار وحبّات الرمل ؛ كل هذا وهو عالق بذراعيه على حافة الصندوق ، وجسمه مُدَلًّى يتأرجح مع سير العربة السريع ، فيخبط العجلات الغليظة وهي تدور .

ويصحو من هذا الحلم الفظيع ؛ قائلا : اللهم اجعله خيرا ؛ ولكن أي خير يا ترى يرجى من هذا الجفاف واليباب والموت ؟

يقصّ عليّ الأحدب هذا الحلم ، ثم يقول : لقد حاولت عندئذ أن أفسره على النظرية الفرويدية في تأويل الأحلام ، فقلت إن مبراة أبي التي وجدتها إلى نصفها مغروزة في قاع النهر الذي جف ماؤه ، هي رمز الذكورة التي أورثنيها ، والتي ربما كانت في حياته مكبوته وهمّت الآن بالظهور ؛ لكن مجرى الحياة قد جف ماؤه ، وبهذا الجفاف وقفت سلسلة التوالد ثم ماذا وجدت حين عبرت إلى الضفة الأخرى ،

الضفة الغربية التي كانت هي المستقر الأبدي عند أجدادي القدماء ؛ وجدت مواتا في موات ؛ لم يكن هناك كائن حي واحد ؛ ولكن لماذا أرادت أمي في كفنها أن تشدني معها إلى عالم الموتى وبهذه الطريقة البشعة المخيفة ؟ لقد كانت عودتني طول حياتها أن ترعاني من الأذى ، حتى وأنا رجل مكتمل النمو ، ترعاني كأنني ما زلت في عينها الطفل الضعيف الذي تهدده العوادي ؛ أتكون قد أسرعت بعربتها وتابوتها لأنها في عالم الغيب قد لمحت بروحها الخالدة خطرا داهما يحيق بي فجاءت لتنقذني منه قبل وقوعه ... لست أدري ؛ لكنني على كل حال قمت لساعتي ، وبحثت عن مبراة أبي في مخلفاته ، فوجدتها صدئة بعض الشيء ، فنظفتها ، رأرهفت نصلها ، وخبأتها في خزائني ، وما زلت حتى اليوم أصحبها معي كلما ارتحلت هنا أو هناك ؛ لكني ما مسستها مرة إلا وتذكرت ذلك الحلم المخيف وأخذتني الرجفة ، وما وقعت عيني عليها مرة في أدراج مكتبي إلا ونحيت عنها وجهي بحركة آلية سريعة ، لكنني سرعان ما أضحك من ضعفي أمام الخرافة ؛ إنها كانت أضغاث أحلام ومضت مع الريح .

لكنها أضغاث أحلام جاءت متكاثرة بعد أن فقد الأحدب رءوس أسرته ، واندسّ في ضميره أنه هو وأقرانه من الطبقة الثانية في الأسرة قد أزيل السقف من فوق رءوسهم ، وأصبحوا أمام الخلاء اللامتناهي المجهول وجهاً لوجه .

٣

حُفِرتْ بيني وبـــين الأحدب فجوة أخذت تباعد بين نفسينا فأتحرج أن أنفض اليه ذات نفسي وكذلك هو يتحرج ؛ ولم أكن أعلم عنه شيئا سوى أنه يختفي طول النهار وجزء من الليل،ثم يعود ليأكل عشاءه وينام ؛ مـاذا حدث لهـذا الرجل فردّه أسوأ مما بدأ ؟ وفيم إقامتي معه في مسكن واحد بعد الآن ؟ أفي صدره سر يخفيه ويخشى أن يفتضح ؟ إنه لا أمل في أن التمس ما يشبع ُطلعتي إلا التجسس عليه ، ولكن كيف ؟

إنه يكتب ، ولم يكن يعنيني ما يكتبه قبل اليوم ، لكنه اليوم يعنيني ؛ لقد قال لي ذات مساء إذ نحن نسمر أيام نشوتنا ، إنه لم يكن في نشوته يجد الدافع إلى الكتابة بالقوة التي كان يجده بها أيام الضيق ؛ ومتى يبلغ من ضيق النفس حدا أضيق مما هو فيه الآن ؛ فما عليّ سوى أن أتعقب كتاباته ببضعة قروش أشتري بها الصحيفة التي ينشر فيها مقالاته ؛ فهالني أن أجده كمن ينقّب بسنّ قلمه تنقيبا في ثنايا حياته ليخرج منها كل ما يصلح أن يوجه اتهامـا له في أمانته وفي كرامته ، كأنه انقلب من نفسه عدوا لنفسه يصوب إليها الطعنات ليقتلها قتلا ويسحقها سحقا ؛ أهو الموت الذي توالت حوادثه في أسرته قد أوحى إليـــه بالرغبة في الموت يجلبـه على نفسه بارادته ؟ أهي نزعة شبيهة بنزعات الرهبان الزاهدين حين ينزلون بأنفسهم أقسى ألوان العذاب ليتطهروا من أدران لحقت بهم حقـــا أو ألحقوها بأنفسهم عن خيال

ووهم ؟ لا أدري ؛ ولكني قرأت له أول ما قرأت مقالا لم أشك في أنه كتبه عن نفسه ، وإن يكن قد جعل الحديث بضمير الغائب عن سواه ؛ وصفه بأنه لص : أخذته الرغبة وهو غلام في أن يجمع من الأقفال أكبر عدد يستطيع جمعه ، وأن تكون وسيلته إلى ذلك هي السرقة لا الشراء ؛ فلجأ إلى طريقة غريبة ولكنها سهلة التنفيذ ، وهي أن يشتري قفلا بادىء ذي بدء ، ثم يدور على كل مكان تقع عينه فيه على قفل من الصنف نفسه ، فيدبّر له خطةً أن ينفرد وحده بالقفل لحظة ويفتحه بمفتاح القفل الشبيه ، ويأخذه ويمضي ؛ ومن ذلك أن خزانة الأوراق التي لم يكن يعلم ماكنهها ، خزانة الأوراق أمام مكتب الإدارة في مدرسته الابتدائية وهو تلميذ صغير ، كانت مقفلة بقفل أراده لنفسه ، فبحث حتى وقع على شبيهه في السوق واشتراه ؛ ولكن متى ينفرد بتلك الخزانة والمدرسة مليئة بالتلاميذ والخدم والموظفين ؟ إن ذلك لا يكون إلا في ساعة مبكرة من الصباح قبل أن يتنبه أحد ؛ وتسلل إلى الردهة حيث وضعت الخزانة التي ضُمَّ مصراعاها بالقفل المنشود ، وفي خطفةٍ أسرع من البرق فتح القفل ، وانتزعه ، وأسرع الهبوط على السلم المجاور ؛ فسمع المصراعين ينفتحان ويخبطان على الحائط خبطة مفرقعة ، فقد كانت الخزانة تميل على قفاها إلى الخلف ، إذ رُفعت قائمتاها الأماميتان على مربعين صغيرين من الخشب ، دون قائمتيها الخلفيتين ، مما أدى إلى انفراج مصراعيها بهذه السرعة وانقذافها إلى الخلف وخبطتها المدوية على الحائط ؛ وكان للص الصغير شعور النصر شجعه على التماس نصر آخر في اليوم نفسه على قفل لمحه بين أقفال التلاميذ شبيه بما عنده ؛ وعاد إلى داره وفي

جيبه قفلان أضافهما إلى ما عنده ، فأصبحت ثلاثة أقفال من أسرة واحدة ، لم يدْر ماذا يصنع بها ، سوى أن يوزعها على جيرانه الصغار، وعليهم هم أن يجدوا لها المفاتيح .

فلما أشبع في نفسه هواية الأقفال ، اشتهى منافيخ الدراجات ؛ فللدراجة منفاخ يركّب محاذيا للقائمة المعدنية التي عليها يستند المقعد ؛ وما أيسر أن تنتزعه يد السارق من مكانه لو واتته الخلوة التي تحجبه من أعين الناظرين ؛ ودراجات التلاميذ تصطف صفوفا في مكان لها معين يحاذي سور المدرسة من الداخل ، فاذا وجد السارق الصغير فرصة يخلو فيها إلى بغيته فأين يخفيها بقية اليوم الدراسي ؟ وتفتق ذهنه عن حيلة بسيطة تنجح أحيانا وتخفق أحيانا ، وهي أن يقصد إلى مكان الدراجات في اللحظة المناسبة ، وينزع أقرب منفاخ إلى يديه ، ثم يقذف به خارج سور المدرسة في الطريق – وهو طريق بعيد عن حركة المدينة فيقل فيه المارة من الناس – حتى إذا ما خرج آخر اليوم الدراسي ، بحث عن الفريسة ، ويغلب أن يجدها ملقاة على الجانب الرملي من الشارع ، فيدسها في حقيبة كتبه ويمضي .. وماذا يصنع بهذه المنافيخ التي تجمعت لديه ؟ إنه يوزعها على من شاء من الأصدقاء الصغار ، ولم يكن له ولا لأحد من هؤلاء الأصدقاء الصغار دراجة حتى يحتاج لها إلى منفاخ .

كانت تلك هي السن نفسها التي يقرأ فيها مع لداته أو يسمع القصص عن « طاقية الإخفاء » ، ولكم سرح بخياله بعد أن ألبس نفسه

طاقية الإخفاء بوهمه ، فيدخل على الناس في بيوتهم ليستمع إلى أسرارهم وهم لا يشعرون ، ويستوي على موائدهم فيأكل وهم لا يعلمون ... أي شهوة اشتهاها ذلك السارق المتسلل ولم يحققها بطاقية الإخفاء إذا تعذر تحقيقها في الواقع المحسوس ؟ لقد بلغ الحلم واشتعلت شهوته ، فماذا يكون السبيل أمامه إلا أن يلبس لهنّ طاقية الإخفاء ويتسلل إلى مخادعهن ولو كنّ في حصون محصنة ... وكبر وقصد ذات يوم إلى متحف الفنون ، فاذا هو يقف أمام صورة لفنان معاصر نسي اسمه ، لكنها صورة تصور مدخل بيت وجانبا صغيرا من الدّرج الخشبي المؤدي من المدخل إلى الطابق الأعلى ، على غرار ما نراه في بيوت أوروبا ، وعلى بضع الدرجات الخشبية التي ظهرت في الصورة امتدّ بحذاء الحائط ثعبان ثني جسده مع زوايا الدرجات ، حتى تدرج معها ممتدا من المدخل إلى الدرجة الرابعة أو الخامسة ؛ والصورة رائعة رائعة بألوانها وبالضوء والظل فيها ؛ هي من الفن الواقعي برغم كونها لفنان حديث ؛ فوقف أمامها صاحبنا طويلا ، وفجأة وثبت الى ذهنه الأقفال والمنافيخ وأحلام طاقية الإخفاء أيام أن كان غلاما صغيرا فشابا مراهقا ، وابتسم للذكريات ، وقال : أتكون هنالك طرق أخرى للتسلل إلى بيوت الناس وأسرارهم يسلكها المتسللون ؟

قرأت هذا الذي كتبه الأحدب عن نفسه برغم استعماله لضمير الغائب في سياق الحديث ، وعجبت : فيم النبش في ماضيه واستخراج ما فيه من سواد وقتام ؟ أم يا ترى أراد الدفاع عن نفسه بعد الهجوم،

ليبين أن كلنا سارق في الخفاء ، وحسبه هو ألا يكون سارقا من النوع السامّ المسموم ؟

تابعت قراءة ما يكتبه الأحدب مرة كل أسبوع ، فكنت أزداد حزنا كلما ازداد تعبيرا عن طوية نفسه وما يحزّ فيها من ألم ، لقد كنت حسبتني وقعت على سره الذي يفسر لي شذوذه وانعزاله ، لكني تبينت أنني لم أعرف عنه بعد إلا القليل الذي لا يفسر لي هذه السياط التي راح يلهب بها جلده لغير سبب ظاهر ، نعم إن الموت قد دب في أسرته حتى أطاح برءوسها فذهبت عنه الدرع الواقية وتعرى صدره للفحات الهواء ، ولكن هل هذا وحده يفسر أن يكتب فيقول :

« لقد عصفت العواصف بنفسي ، وتجهم الأفق أمام عيني ، ورأيت خريف عمري يتساقط أمامي على الأرض أوراقا صفراء يابسة ، كنت أسمع لها خشخشة كأنها حشرجة المحتضر .. ونظرت فاذا بقيتي — بعد جهاد طويل — حطبة جافة من ساق وفروع ، تعرّتْ عن الورق والزهر والثمر ، تعوى في ثناياها الريح عواء الأمعاء الجائعة ، وليس على مرمى البصر فيها إلا اليباب ... فخلخلت التراب حول الفروع والساق ، وحملتها تجاه الغرب إلى طرف ناء من الصحراء ، حتى إذا ما أغمضت الشمس جفنيها من غروب ، أشعلت النار في بقيتي — وبقيتي حطبة يابسة — فتراءت من بُعد أمام عينيّ العشواءين كأنما هي الشمس قد عادت إلى الشروق ، لترسل من حر أنفاسها شعاعا جديدا ، قبل أن تعود إلى مهدها في ظلام الغيب ... »

فهاهنا أيضا – كما كانت حاله عندما عرض جانب اللص من نفسه – أردف بنهاية فيها بصيص من أمل ، هناك رأى صورة الثعبان المتسلل فوق الدرج ، فتعزّى بأن هناك صورا أبشع مما عهده في نفسه من تسلل إلى بطون الناس في الخفاء ، وهنا يحرق حطام نفسه اليابسة ، فيتوهم – في آخر لحظة – أن ضوء الحريق هو ضوء شمس آذنت له بشروق جديد ... وظللت أسأل نفسي : ماذا دهاه عندئذ حتى عادت إليه علته بعد اقترابه من العافية ، ثم ماذا يصادفه في غضون بلواه فيراه بصيصا خافتا من أمل ؟

قرأت له ذات يوم مقالا كتبه بمناسبة يوم ميلاده يقول فيه :

« لقد سألت نفسي : لو أرخت لحياتك ودونت ما مر بها من حوادث ، فماذا أنت ذاكر ؟ إن من الرجال من يكتبون قصص حياتهم فاذا هي حافلة بأحداثها ، تقرؤها فكأنما تقرأ قصة من خلق الخيال البارع ، فأين من ذلك ما عشت من حياة فارغة جوفاء ؟ وهنا رأيت الشبه ماثلا بيني وبين ساعي البريد : أرأيت كيف ينفق هذا الرجل حياته ساعيا بين الناس ببريده ؟ إنه لا يمس « الظروف » إلا من ظاهرها دون أن ينفذ إلى قلوبها ولبابها ، إنه لا يعلم من الرسالة إلا عنوانها أو بعض عنوانها ، فأين ذلك من صاحب الخطاب ؟ إنه يفض غلافه ويمس شغافه ، ويقرأ السطور وما بين السطور ، إنه يستروح من كلماته أنفاس الحبيب ، أو هو ينظر إلى الألفاظ فاذا هي ألحاظ الصديق ناظرة إليه تباسمه وتناجيه .. لكأنني من هذه الحياة إزاء مدينة حصينة سُوّرت بمنيع الجدر ولكأنني منها طواف يطوف

حولها ويطوف ، ثم لا يجد إلى جوفها من سبيل ... صـــه ! أذلك همس ؟ إنها حبيبان يتغازلان ، أتلـك ضحكات طروب ؟ إنهـــا جماعة مرحة نشوانة ، أذلك أنين ؟ إنه بكاء حزينة ثكلي ، ياويـــح نفسي ! أريد أن أهمس كما يهمس الهامسون ، أريـــد أن أضحك كما يضحك الضاحكون ، بل أريد أن يكون لي في حياتي مـــا أبكيه وأرثيه ! أين – يا صديقي – الجواز الذي يبيح لي الدخول في هـــذه المـــدينة الصخـّابة فأشتريه ؟ .. رأيت النـاس ذات صيف حرور يصطافون ، فأقسمت لأكونن كسائر عباد الله مصطافا ، ذهبت إلى الشاطىء مع الذاهبين ، فسرعان ما برزت من إهابي شخصية ساعي البريد : أقف على الشاطىء ولا أغوص ، الناس يمرحون في الماء ويلعبون ، والأطفال يتقلبون مع المرج ويضحكون ، والنساء كعرائس الماء غائصات طائفات صائحات ضاحكات ، وليس لي من كل ذلك شيء ، ونظرت حولي ، فاذا أنا واقف بين أكوام الملابس نضاها أصحابها ، ويشاء القدر الساخر أن يكون أقربها اليّ حذاء مخلوع ، فأدركت عندئذ في يقين أني بين هذه الأحياء كالقوقعة الفارغة ، يرتسم على سطحها الحيوانُ ولا تحتويه ، ولم أستطع أن أواجه هذا الحق المخيف ، فقفلت إلى الدار راجعا ... »

قرأت هذا فقلت : إن في الأمر شيئا .

الفصل الثامن

قلب يثور وعقل يطمئن

١

يائس هذا الرجل أقْتَلَ اليأس وأفْتَكَه ، وقد أخذ حرجي يزداد شيئاً فشيئاً من مساكنتي إياه مع هذا التستر والصمت ، فصممت أن أبادره بحديث صريح : فإما قلبان يصفوان ويخلصان الود ، وإما افتراق .. وظللت أتقلب في فراشي حتى سمعت الباب ينفتح عنه وينغلق من دونه ، فبرزت له من باب غرفتي ، كأنني الجنّي خرج لساكن الكهف في الظلام فأفزعه .

قلت : طبت مساء يا رياض .

قال : طبت مساء .

قلت : ألَكَ في كلمة معي قبل أن تأوي إلى فراشك ؟

قال : فيم الكلمة ؟

وجلسنا على أريكة من قش وضعت إلى جوار الحائط ، وأمامها

منضدة صغيرة كان المفروض — بما حولها من مقاعد — أن تكون هي مائدة الطعام .

قلت : إن في حياتك طارئا جديدا أبعدك عني إلى عزلتك القديمة ، فما هو ؟

قال : الطارىء هو أنّا التقينا بعض الوقت على عاطفة مشتركة ، والأصل هو أننا مختلفان جذورا وفروعا .

قلت : وماذا كشف لك عن هذا الاختلاف الآن ؟

قال : لا شيء من ظاهر الحياة وأحداثها ، ولكنهما طبيعتان مختلفتان ، ولا يجوز للأقنعة المزيفة أن تدوم ... هذا هو كل ما في الأمر ، ولا سرّ وراء ذلك ، بل إني لأضيق بمصطفى ورسائله كذلك ، كلاكما يختلف عني ، ولن أمضي في هذه الصحبة الملفقة بعد اليوم .

قلت : وما شأني أنا بمصطفاك ورسائله ، إن بينكما أكثر من وشيجة تربطكما ، فاتفقا ما شئتما او اختلفا ، أما أنا فغريب عنه لا أعرفه إلا بطريق الرواية ، وخير لنا أن نحصر حديثنا الآن فيما يعنيني ، لأني أريد أن أرسو بمراكبي على برّ أستريح إليه .

قال : أنت أخلاق وقواعد ، ومصطفى عقل ومنطق ، وأنا عاطفة وانفعال ، فلماذا أعيش معكما في نسيج واحد ؟ أنت مقيد بالواقع كما يقع ، ومصطفى مقيد باللفظ وما يعني ولا يعني ، وأنا خيال يحطم الواقع ولا يتقيد بقيود اللفظ ومعانيه ،

فكيف تريدني أن أسايركما بالعيش معك وبالتراسل معه ؟ كلا كما يضع لنفسه حدودا تحده ، وأنا أجاوز الحدود وأقفز وراءها ، فهل ترى من الإنصاف ان تقيداني بقيودكما ... لقد غيرت مجرى حياتي مرتين رافضا في كلتا الحالتين الخضوع للواقع : مرة أولى عندما أرادوا لي أن اقطع شوط الدراسة من نصفه لأكتفي بعمل متواضع ما دام الله قد شاء لي عجزا في البصر ، ومرة ثانية عندما وجدت حياتي تدور كالساقية في مهنة التعليم ، وفي كلتا الحالتين أخلصت لطبيعتي وعصيت الأمر الواقع وحكمة العقل وما تدعو إليه من إيثار للأسلم في عواقبه ... وقد بدأت الآن ألمح أن صحبتكما تحدُّ من جموحي وأوهامي .

قلت : ما زلت تخاطبني بصيغة المثنّى ، فلماذا لا تواجهني بما تريده مني ، فماذا حدث ليغيّر من حياتنا ، ثم ألا ترى استحالة أن نعيش بعد اليوم تحت سقف واحد ؟

قال : إنني رجل أحلم وأنصت إلى أحلامي .. رأيتني في الحلم على ظهر سلسلة من الجبال المخضرة بالعشب والشجر ، وكنت مع عالميْن أحدهما قد رسخت شهرته في ميدانه والثاني يترسم خطاه ويسير على نهجه ، وكان الوقت عندئذ هو الساعة التي تصطبغ فيها السماء والأرض بلون رصاصيّ بعد الغروب وفي بداية الليل ؛ وقد أردت أن أقف مع ذلكما العالميْن وكنت

معهما لكني لم أحسّ أني أشاركهما ، فأحدهما أكبر مني والثاني أصغر .. وفي صمت الأشباح استدارا ناحية الشمال واستدرت ناحية الجنوب ، وطارا وطرت .. ألا ما أحلاها من حركة خفيفة حركة الطيران بجسمك في الهواء كأن الجاذبية انعدمت ، فيكفيك أن تعزم عزيمة الوثوب فتثب وتطير .. هكذا فعلنا : هما إلى ناحية الشمال وأنا الى ناحية الجنوب .. وأخذت أطير على مسافات فأثب الوثبة الطويلة ثم أهبط على ظهر الجبل ، وأثب من جديد ثم أهبط ، حتى كانت الوثبة الأخيرة فجاء الهبوط منها عميقا حتى أبلغني سطح الأرض في أسفل الجبل ، وإذا وقفتي جاءت على صفحة من جريدة الأهرام ، فرشت ممزقة أمام جدار وطيء من الطين ، وفيه باب من مصراع واحد مقفل برتاج ضخم من الخشب ؛ هبطت واقفا مستقيما : قدماي حافيتان على الصحيفة المفروشة الممزقة ووجهي نحو الباب المقفل العتيق ... فماذا يكون تأويل هذا إلا أنني أردت الطيران كما يطير الطائرون ، فاذا بي أنزل الى أرض الواقع المتجسد في صحيفة عملُها أن تتابع الواقع وأحداثه ، والصحيفة ممزقة والقدمان حافيتان ، لأن الواقع الذي نزلت عليه بعد جولة في أحلام الأمانيّ لم تَطُلْ ، هو واقع هزيل ، والباب العتيق المقفل برتاجه الضخم أمامي علامة على أن الطريق مسدود ... فلا أحلامي الطائرة الهائمة نعمت بها ، ولا الواقع الصلب قد أفسح أمامي

الطريق ... أتريدني بعد ذلك أن أُنصت إلى رجل ما يفتأ يذكرني بالأخلاق وقواعدها ، وأن أتلقى رسائل من رجل أخذه الهوس بدقة اللفظ وإحكام صياغته ليجيء موازيا للواقع كما يقع ؟ .. الواقع ! الواقع ! الواقع ! هذا ما تريدان أن تفرضاه عليّ ، وأنا أرفض التقيد به ، وسأطير مع جموح أحلامي من جديد .

قلت : أتأذن لي بالرحيل إلى مسكن آخر ؟

قال : لك ما تريد ، وخذ هذه الرسائل معك إلى حيث تمضي — وقفز قفزة منفعلة بالغضب ، ودخل غرفته وعاد منها بحزمة من الرسائل ، وقذفها إلى جواري على الأريكة ، وجلس على مقعد إلى مائدة الطعام ، يرتكز عليها بمرفقه ويسند رأسه على كفه .

قلت : ماذا أصنع بهذه الرسائل من شخص لا أعرفه ؟

قال : خذها معك واصنع بها ما شئت ، وستجد أنه أقرب إليك مني .

٢

لا ، محال ألا يكون في الأمر حادث حدث له فأثار مكنونه بعد سكينة خلد إليها مطمئنا بضعة شهور ؛ ولم أكن من بلادة الحس بحيث

أتقبل كلامه بظاهره ، وأرحل عنه دون أن أتقصَّى لأعلم ... ولكن أنَّنى يكون لي العلم ولا حديث لي معه بعد اليوم ، أو على الأقل لن يكون لي معه حديث يفتح لي فيه صدره في ود وصراحة وإخلاص كما كان يفعل ؛ وإذن فلا سبيل إلا تتبع كتاباته في الصحيفة التي اعتاد الكتابة فيها باسم مستعار هو « زينون » .

ولم يمض طويل وقت حتى أدركت شيئين وقعا له في حياته في لحظتين متقاربتين : أحدهما أنه حاول الاندماج في طائفة من المشتغلين بالفكر والأدب ،لينعم بشعور الانتماء الروحي على نحو ما ينعم الأتباع في الطرق الصوفية ، فلم يلق إلا الصدود برغم قبولهم إياه عضوا في الجماعة ؛ فقد أرادوه عضوا يعمل ، لكنهم لم يريدوه عضوا يشارك في المنزلة والقيمة أو يختلط معهم في أدنى مظاهر الشعور ، فقد كتب يقول :

« جاءني خطاب ينبىء بقبولي في جمعية القلم ، فقضيت عصر ذلك اليوم قلقا ، أرقب غروب الشمس أو ما بعده بقليل ، لأذهب إلى دار لم أكن قد رأيتها أبدا ، لكنني سمعت عنها كما يسمع المحروم عما تزخر به القصور من ألوان النعيم ... قلت لنفسي : قم الآن واذهب في ضوء النهار ، لماذا ترقب ظلمة المساء ؟ لا ، بل اصبر هذه الساعات القلائل ، لا تكن خفيفا أرعن ، إنك اليوم عضو في لجنة القلم مع فلان وفلان وفلان وأمثال هؤلاء لا يتحركون من ديارهم قبل غروب الشمس ، من تظنهم يكونون ؟ أتظنهم من أمثالك لا يعرفون يومهم فرقا بين

ظهر وعصر ومساء ؟ وصبرت على جمرات من القلق حتى مضت ساعة بعد الغروب ، وارتديت أحسن ما عندي من ثياب ، وذهبت الى جمعية القلم ... ... ولست أريد أن أفيض القول هاهنا كيف وجدت الزمالة عسيرة الأسباب ... إن آلهة الأولمب لا يهبطون من قممهم الشامخة بما ظننت من يسر ؛ إنهم أعضاء لجنة واحدة ، لكنهم كجزر الأرخبيل ، تقوم كل جزيرة وحدها ويحيط بها الماء من جميع أقطارها .. كلا ، لم أجد ما أوهمني الخيال أني واجده ، فلم أبادل الأرباب حديثا ولم يبادلوا .. يا لها من صاعقة صعقتني حين وجدت أرباب القلم أشد حرصا من سواد الناس على أن يظل الأمر بينهم درجات ، لا من جهة ما يكتبون بالقلم وما يكتبون ، ولكن من أي جهة شئت إلا نتاج القلم .. اذن فالقيمة الأدبية عندنا تقاس بوجاهة صاحبها في مناصب الحكم ،ولا تقاس بما ينتج من أدب وفكر ... إنك قد تجلس مع هؤلاء الأرباب في جلساتهم ، وقد تأخذك الجرأة فتدلى بكلام فيما يتحدثون فيه ، فتراهم يصمتون حتى تتم حديثك ، ثم يستأنفون الأخذ والعطاء بعضهم مع بعض ، ليشعروك بهذا أنك لست هناك ... »

وأما الأمر الثاني الذي وقعت عليه مقالة أخرى ، فلا أدري حتى اليوم ما حقيقة سرّه ، ففيه عبارات لا يُلتمس معناها إلا في بطن الكاتب نفسه ، منها : « لقد حزّ في نفسي أن يكلمني « ع » وهو يركب السيارة كأنما هو يخاطب حفنة من هواء » ومنها : « .. لماذا لم أحسم الأمر حين ازورت بوجهها أول مرة ؟ أقسمت لي أنها لا تضمر

السوء ، وصدّقْتُها .. كنت أخشى دائما أن أسيء إليها، فكيلت لي الاساءة لطمات بعـد لطمات ... ... كانت غايـــة في الرشاقة حينما رأيتها ، لماذا خفق قلبي لها ومـا كان ينبغي له أن يفعـل ؟ يا بنيّ لا تتحدث حديث القلب ، فهذه لغة الشباب ولم تعد شابا ، ألا مـا أشد غرورها ؛ ليتني أجد الشجاعة عندي فأسيء إلى من يسيئون إليّ بمثل ما أساءوا ... كانت نغمة كلامها في التلفون أخاذة ، لكنها إبليس في صورة البشر ؛ إنها الشر كلـــه في صورة إنسان ؛ إني لأعجب كيف يكون هذا الشر كله في هذه الرقة كلها .. آه لو رددت الاساءة بإساءة مثلها ، إذن لما عانيت شيئا من لذع الضمير الذي يؤرقني ويعذبني ... حسبوني أبله ساذجا ؛ هم مخطئون ؛ لئن أكن قد أمسكت عن الردود الصحيحة في المواقف المختلفة ، فما ذاك إلا حياء ؛ لم يكن بلاهة ولا سذاجة ؛ إن الماضي لا يعود ، وجرحك سيظل الى موتك داميا ...»

قلت لنفسي وأنا أقرأ للأحدب هذه المقالات : هذان – اذن – عاملان أثارا في المسكين كوامن نفسه، فألحقا به من الإحساس بالصغر ما كانت نشأته قد هيأت له الجو والتربة ، فما على الظروف بعدئذ إلا أن تلقي ببذرة فتنمو في نفسه وتورق بين يوم وليلة ، وهذه هي الظروف قد ألقت بذرتين لا بذرة واحدة ، فلا أرباب القلم الذين قبلوه كاتبا قد أكرموه إنسانا ، ولا هذه الفتاة التي يشير إليها والتي قد قبلتْه إنسانا قد قبلتْه رجلا .. لكن من ذا يا ترى عساها أن تكون ؟ إنها بالقطع ليست سميرة حبيبة صباه وشيخوخته على السواء ، لأن الخصائص التي أوردها لها ليست هي صفاتها ... أتكون هي سامية الدمرداش التي

تقدم إليها خاطبا فردّته ؟ لكن إذا جاز أن توصف سامية بالرقة ، فلا يجوز أن توصف بالشر كما قد وصفها ، فما عرفتها مسيئة ، لكن من يدري ؟ إن جوانب الشخصية لا تظهر كلهـــا إلا في مواقف الحياة جميعها ، ولم أر سامية قبـــل ذلك مخطوبة لمن لا تريده لأعــلم كيف تكون ؛ ومما قد يؤكد أنها هي بعينها التي قصد إليها ، انصرافه عني لغير سبب ظاهر ، فلعــله حين أدرك مـــا بيني وبينها من تعاطف ، أخذته الثورة على نفسه وعـــليّ في آن واحد ؛ وأخذ يخلط الأمور بعضها ببعض حتى لقد جمع بيني وبين مصطفى في فريق واحد ، هو الفريق الذي صمم على أن ينجو بنفسه من صحبته ليندفع مـــع تيار وجدانه بلا تردد ولا تأنيب ولا حرج .. ولكن ماذا في هذه الرسائل التي جاءت إليه من مصطفى ، والتي قذف بها إليّ في سورة غضبه ؟

٣

لندن في أكتوبر ١٩٤٤

... ... لم أكن أَلِفْتُ هذا التواضع من العلماء ؛ وكنت أحسبه من قبيل الشائعات التي تشيع بغير سند من الواقع ، حتى التقيت بهذه الأستاذة الجامعية العجيبة ، الدكتورة روث صو ؛ أرأيت لو جمـــع حنان الأمهات جميعا ، ووداعة البشر جميعا ، ورقة القلوب الرقيقة كلها وصفاء الأنفس الصافية كلها ، أرأيت لو جمع هذا كله في امرأة واحدة فكيف تكون ؛ تكون هذه الأستاذة ، تحدثك عن « أخلاق »

اسبينوزا في غزارة البحر الغزير ، وكأنها تطلب منك الرأي ولم تجيء لتهديك بالرأي ! ... كانت محاضرتها قبيل الغروب ، وخرجنا معا ومعنا طالبتان تقدمتا في السن بعض الشيء ، ووقفنا في الردهة ، تناقشها الطالبتان المؤمنتان كيف لا يكون المسيح نموذجا كاملا للانسان في حياته الأرضية ، فتنظر إليهما بعين العاطفة الحانية وتقول في صوت كأنه يستفسر : أيعيش الانسان في حياته الأرضية بغير زواج ؟ .. وترتبك الطالبتان ، وتبتسم الأستاذة ، وتغير مجرى الحديث بأن تتذكر فجأة أنها لم تأكل تفاحتها ، فتفتح حقيبة يدها الكبيرة ، لتخرج تفاحة تأخذ في قضمها ، وتقول : أحب التفاح غير مقشور ...

لندن في مارس ١٩٤٥

... ... للانجليز براعة في الفكاهة ، أكاد لا أجد لها نظيرا في أمة أخرى ؛ فالفكاهة في أدبهم ظاهرة ملحوظة حتى توشك أن تكون شرطا لا يتخلف في قصة أو مسرحية أو مقالة ؛ وهي فكاهة خفيفة أقرب ما تكون إلى الابتسامة اللطيفة إذا كانت الفكاهة عند غيرهم تقاس بالقهقهة العالية ؛ وهم يمزجون فكاهتهم هذه في جدهم ؛ فكثيرا ما يعمد الخطيب السياسي إلى تخفيف جدّ الموضوع الذي يخطب فيه بملح ونكات ينثرها في غضون حديثه هنا وهناك ؛ بل إن ميلهم هذا إلى الفكاهة لا يبرحهم حتى في المحاضرات العلمية ، التي قد تميل بغيرهم إلى الجهامة والعبوس ؛ ... كان الدكتور سيرل بيرت — أستاذ علم

النفس – يحاضرنا في النظرية الفرويدية – وألاحظ أن علماء النفس هنا يتحفظون كثيرا في قبولهم لهذه النظرية – فقال : إنني لا أحب لكم أن تبالغوا في تطبيق هذه النظرية .. وابتسم الاستاذ ومضى يقول : حدث لى ذات حين أن لاحظتُ أني أفقد أشياء كثيرة ، فأضع المفاتيح في جيوبي ثم لا أجدها ، وأضع النقود الصغيرة فيها ثم تختفي ؛ فهممتُ أن ألتمس العلة في سبب نفسيّ من هذه الأسباب التي يقولها الفرويديون في أمثال هذه المناسبات ، وجعلت أسجل أحلامي وأحللها ، وأضع لنفسي الاختبارات وأنتزع النتائج ... ثم ما هو إلا أن كشفت فجأة عن خروق في جيوبي ... فكففت عن المضى في التحليل والتعليل ...

لندن في يناير ١٩٤٦

...... لقد جئت والفكرة عندي عن الفلسفة أنها عميقة بغموضها ، وأحسبني سأعود وقد تغيرت هذه الفكرة عنها ، فتصبح الفلسفة عميقة بوضوحها ... إن نظرتي اليها آخذة في التحول ، وأولى مراحل هذا التحول أني قد أضحيتُ على رأي بأن الفلسفة تحليل للتوضيح ، وليست هي بالتي تصدر الأحكام من عندها على الأشياء ؛ فالفلسفة عندي الآن طريقة في البحث بغير موضوع ؛ إنها لا تبحث في « مسائل » لتصل فيها إلى « نتائج » لأنه ليست هناك « مسائل فلسفية » مما تختص به هي دون أن يكون خاضعا للبحث في مجالات العلوم المختلفة من فيزياء وكيمياء وغيرهما ؛ لم أعد أرى من حق

الفيلسوف أن يعالج موضوعات هي من شأن العلماء وحدهم ، فلو كان البحث في الطبيعة وجب أن يترك لعلمائها ، أو كان البحث في الانسان من حيث هو كائن حي يتفاعل مع غيره في جماعة ، وجب كذلك أن يترك لعلماء النفس أو الاجتماع أو الاقتصاد ... مهمة الفلسفة هي أن تحلل أقوال هؤلاء العلماء تحليلا يتعقبها إلى الجذور ، وبهذا تضع أصابعنا على المبادىء الخافية التي تحملها تلك الأقوال في ثناياها دون أن تفصح عنها صراحة ، حتى إذا ما تبدَّت تلك المبادىء أمام أعيننا ، تجلَّتْ لنا أصول حياتنا الثقافية جلاء صريحا .. إنني لعلى يقين من أن نظرة كهذه إلى الفلسفة لن تجد عندنا إلا الصدود ، لا لشيء إلا لأنها تعفى الفلاسفة من الخوض فيما لا سبيل لديهم إلى العلم به ، وهم أميل إلى دسّ أنوفهم فيما لا يعلمون ، لأن إرسال الكلام أمر هين ، فاذا قيل لهم : في هذا الكلام غموض ، أجابوا : هكذا شأن الفلسفة ... نعم إن نظرتي آخذة في التحول الجريء ، بعد أن رأيت كم أفنى الفلاسفة جهودهم في بحث عقيم عن أشياء في الغيب وقد حددتْهم طبيعة كيانهم بحدود عالم الشهادة ؛ انهم لكالباحث الأعمى يبحث في غرفة مظلمة عن قطة سوداء ليس لها وجود ... ...

لندن في يونيو ١٩٤٦

... ... أي شيء هو أدنى إلى الصواب من قولنا بأن شهادة الميلاد لا تكون إلا لمولود جديد ، وأنه اذا وُجدتْ شهادة ميلاد بغير مولود فهي زائفة مزوَّرة ؟ وأي شيء هو أدنى إلى الصواب من القول

بأن الرمز لا يتم معناه إلا بوجود المرموز إليه، وأنه اذا وجد رمز بغير مرموز إليه فهو اذن وسيلة خداع وتضليل ؟ وأي شيء هو أدنى إلى الصواب من قولنا إن الاسم لا يكون إسما إلا إذا وجد المسمّى ؟ وإذا كان ذلك كله صوابا، فمن الصواب كذلك أن كل كلمة في اللغة لا تسمى شيئا ولا تشير إلى شيء ، هي كلمة زائفة مهما طال بين الناس دورانها، فالفرق بين اللفظة التي ترمز إلى مسمى واللفظة التي لا ترمز هو الفرق بين اللفظة التي « تعني » شيئا واللفظة التي « لا تعنى » ، وهو فرق شديد الشبه بما يفرّق ورقة النقد التي تستند إلى رصيد فتكون ورقة ذات قيمة حقيقية ، من ورقة النقد التي لا تستند إلى مثل ذلك الرصيد فتكون ورقة باطلة ... لا بد أن يوجد الشيء أولا ليجوز لنا بعد ذلك أن نطلق عليه إسما يسميه ويميزه مما عداه ؛ وهذا هو بعينه الأساس الذي نقيم عليه تعليمنا اللغة لأطفالنا ، فنشير إلى شيء قائم على مرأى من الطفل قائلين له : « شجرة » .. ولولا أن هناك الشجرة التي نشير إليها لذهبت لفظتنا عند الطفل عبثا ، لأنه في سذاجته وبفطرته ينظر إلى طرفين : المسمّى المشار إليه في طرف والصوت الذي ننطق به في طرف آخر ؛ وعندئذ يقرن الشيء المرئى بالصوت المسموع ، أو يقرن المسمّى باسمه ، أو يقرن المرموز إليه بالرمز الذي يشير إليه ، أقول إنه يقرن هذا الطرف بذلك ، ثم يربط بينهما ، حتى إذا ما نطق له بالصوت وحده بعد ذلك ، كان كافيا لاستثارة الصورة التي كان هذا الصوت قد ارتبط بها ، وبهذا وحده يجوز لنا أن نقول إن كلمة « شجرة » قد أصبح لها عند الطفل « معنى » ...

ولقد تطورت نظرتي يا سيدي وتحددت ، بحيث أقبل الكلمات أو أرفضها على هذا الأساس نفسه ؛ يقول الفلاسفة : جوهر ، ونفس ، وخلود ، وجمال ، وأخلاق ، ودولة ، ومجتمع ، فأقول : أين هي المسميات فيما هو مرئي ومسموع ؟ فإن أجابوا قبلتها وإن راوغوا – كما هم يراوغون في هذه الحالات – تركتهم وشأنهم وذهبتُ لشأني.

لندن في نوفمبر ١٩٤٦

... ... سألتني يا سيدي عما أراه - بناء على معياري الفلسفي الجديد – في كلمات مثل « حب » و « كره » و « غضب » و « خوف » قائلا إنك تخشى أن أكون قد طوحت بعالم الوجدان على أهميته في حياة الإنسان ؛ فأقول في هذا الصدد إنه لا بد من التفرقة بين نوعين من الكلام : فكلام يراد به وصف عالم الأشياء وما يتعاوره من أحداث ، وآخر ينصرف به قائله إلى داخل نفسه لا إلى خارجها ؛ فاذا نطق ناطق بعبارة من الصنف الأول وقعتْ عليه تبعة الإثبات ، وأما إذا نطق بعبارة من النوع الثاني فلا إثبات هناك ولا نفي ؛ والعبارات العلمية التي تجوز فيها المناقشة بين الناس هي من النوع الأول ، وأما العبارات التي ترد في التعبير الفني والشعوري فمن النوع الثاني ، وهي لا يجوز فيها اختلاف بين الناس ولا نقاش .

هبني وقفت مع زميلي إلى جوار شجرة ، فقلت عنها : إنها من أشجار التوت وعمرها ستون عاما ، وقال عنها زميلي : إن لونها يبعث البهجة في نفسه كلما رآها ؛ فماذا يكون الفرق بين عبارتي

وعبارته ؟ الفرق هو أنني أتصدى لوصف الواقع الخارجي الذي لا دخل لمشاعري فيه ، فلست أنا الذي جعلتها تثمر توتا ، ولا أنا الذي ألزمتها أن تكون بهذه الحداثة أو هذا القدم ؛ إنني أصف بعبارتي وقائع ليست جزءا من نفسي ؛ فلو طالبني زميلي بإثبات ما أقوله وجب أن تكون لديّ الوسائل التي يستطيع هو أن يشاركني فيها ؛ وأما عبارة زميلي التي قال بها إن الشجرة تبعث البهجة في نفسه كلما رآها ، فمن نوع آخر ، هي عبارة لا صواب فيها ولا خطأ ، ولا إثبات ولا نفي ؛ إنه « يعبِّر » عن ذات نفسه ولا « يقرر » أمرا عن الشيء الخارجي ، وإذن فليس من حقي أن أطالبه ببرهان ، وكيف يكون البرهان والأمر خاص به ؟ إنه إذا كانت الشجرة الواحدة نفسها تبعث البهجة في نفسه هو والكآبة في نفسي لما كان بيني وبينه تناقض ، لأن له شعوره ولي شعوري ؛ لكن ما هكذا الأمر لو قلتُ عن الشجرة إنها تثمر التوت ، وقال هو : بل إنها تثمر الجميز ، فها هنا يكون بين قولينا تناقض ، ويكون على أحدنا أن يثبت للآخر صدق دعواه ...

وتسألني يا سيدي عن العبارات العاطفية ما مصيرها ؟ وأجيبك بأنها تكون من قبيل الأدب الذى يقاس بمقاييس خاصة تختلف عن مقاييس العلوم ؛ فلنا أن نبقى عليها ، شريطة أن نكون على بينة تامة بأنها لا تدخل مجال العقل والمنطق ، ومن ثم فلا يحق لأحد أن يجادل أحداً في صدقها أو بطلانها ، لأنه لا صدق فيها ولا بطلان ، وكل ما فيها هو أن تكون محببة إلينا أو بغيضة ؛ وإني يا سيدي لأعلم بُعْدَ المدى الذي

ينال به مثل هذا الرأي في أقوال الناس وعقائدهم ، لأنهم – في الأعم الأغلب – ينطقون بما يرضى عواطفهم ، ثم يزعمون لأنفسهم أنهم إنما نطقوا بالحق الذي لا حق سواه .

لندن في يناير ١٩٤٧

... ... لست أقل منك حرصا على مشاعر الانسان وآماله ومثله العليا ، هذه المشاعر والآمال والمثل التي زعمت لي في خطابك الأخير أنني سائر بمذهبي نحو هدمها ؛ كل ما هنالك من أمر في هذا الصدد هو أنني أفرق بين لغة العقل ولغة الشعور ؛ فمن لا يريد أن يتحدث عما يقع في حسه – رؤية أو سمعا أو ما شئت من حواس – مما يتاح للآخرين أن يراجعوه فيه بحواسهم ، فهو لا يريد أن يتحدث بلغة العقل ، وليس في ذلك رفع ولا خفض للغة المشاعر ؛ بل الأمر أمر تفرقة بين نوعين مختلفين من الكلام ؛ فاذا كان المجال مجال علم فلا يجوز للشعور أن يتسلل إلى سياق الحديث بألفاظه الدالة على وجدان ، أما إذا كان المجال مجال أدب وفن فليختر ما يشاء من افظ ليثير في سامعه المشاعر التي يقصد إلى إثارتها فيه .. فلو تحدث عن السماء حديث العالم الفلكي فلا ينبغي له عندئذ أن يذكر شيئا عن السمو والعظمة والمجد ؛ ولو تحدث عن الزهرة بلغة عالم النبات فليسكت عن أحاديث الروعة والجمال ... فلنعط ما للعقل للعقل وما للشعور للشعور ؛ وإني لأزعم أن جزءا كبيرا مما تركه لنا الفلاسفة على زعم منهم أنه نظرة عقلية خالصة ، هو في الحقيقة تعبير عن أمزجتهم وميولهم ؛ نعم إنهم

يسيرون بخطوات عقلية من نقطة الابتداء التي يفرضونها ، ولكن نقطة الابتداء نفسها تجيء من عندهم مزعوما لها أنها من إدراك البصيرة والحدس الفطري ؛ ولو زعموا عندئذ إنهم إنما يقيمون نسقات عقلية على أساس افتراضي كما يصنع علماء الرياضة ، لقلنا نعم ونعام عين ، لأن النسقات الرياضية مغلقة على نفسها لا يدعى لها أصحابها أنها تصوير للواقع ، بدليل أنها قد تتعدد والواقع واحد ؛ ولكنهم يبنون على فرض من عندهم ، ثم يفوتهم ذلك وينسونه ، ليقولوا آخر الأمر إنهم يقولون ما يطابق الوجود الخارجي مطابقة الصورة لأصلها .

لندن في فبراير ١٩٤٧

... ... ألقى برتراند رسل علينا سلسلة محاضرات عن المعرفة وتحليلها وردّها إلى أصولها وجذورها ؛ لم أكن أتخيل هذا الرجل بمثل هذه السرعة النشيطة في حركات بدنه وفي لفتات عقله ؛ والعجيب أنه كان يلقى محاضراته في مدرّج صغير ، مع أن مئات من غير الطلاب يجيئون ليستمعوا اليه ، لهذا كنت تراني أبادر قبل البدء بمدة طويلة لأجد مكانا قريبا من المحاضر حتى لا تفوتني كلمة منه — وسمعي كما تعلم قد أخذ يضعف قبل أوان الضعف — إلا مرة واحدة تأخرت قليلا ، فوجدت المدرّج قد امتلأ وأخذ الناس يصطفون خارجه ، فوقفت في الصف ووقف معي زميل مصري يدرس علم النفس ، وكان المطر ينزل فوق رءوسنا برغم محاولتنا وقاية الرءوس بلصق أجسادنا إلى الجدار ؛ وتسألني : وماذا كنت تسمع من كلمات المحاضر ؟

وأجيب : لا شيء ؛ وتعود فتسألني : وفيم وقوفك في المطر والبرد ؟ وأجيب : لا أدري ، فقد أحسست أن تركي للصف أصعب على نفسي من الوقوف فيه بلا رؤية ولا سمع ؟ وقد قلت لزميلي المصري ضاحكا : اشهدْ على ما ألاقيه في سبيل العلم ، بل في سبيل تقديس العلم ، من عناء ؛ فقال ضاحكا بدوره : وأنا أحق منك بمثل هذه الشهادة لأنك تقدس فرعا في مجال تخصصك العلمي ، وأما أنا فقد وقفت في المطر والبرد تقديسا لكلمة العلم في ذاتها ... إنها الروح هنا تغريك بهذا وأكثر منه .

وفي هذا المدرّج الصغير نفسه حضرت محاضرة الأستاذ آير الذي عيِّن منذ قريب أستاذا لكرسي الفلسفة في كلية لندن الجامعية ، وقد كان شاغرا مدى حين ؛ كانت هي محاضرة الافتتاح كما يسمونها ، يفتتح بها أستاذيته الجديدة ؛ وقد قدمه أحد رؤساء الجامعة بكلمة قال فيها : قد وقع اختيارنا على هذا الأستاذ الشاب بعد بحث طويل عمن يحفظ لكرسي الفلسفة هنا مستواه الرفيع ؛ وقد قيل لنا تحذيرا منه : إنه خطر على التقليد الفلسفي وإن يكن ذا أصالة في الفكر ، فقلنا : هذا هو من نبحث عنه — والأستاذ آير في عامه السابع والثلاثين .

لم تعد لي علاقة بكلية لندن الجامعية ، بعد أن ظفرت فيها بالدرجة الجامعية ، ولعله يسرك أن تعلم أني كنت ظفرت بها بمرتبة الشرف الأولى ، وهي مرتبة لا ينالها إلا أقل من القليل ، ولذلك يعفي الظافر بها من الماجستير ، ويأخذ من فوره في العمل لإجازة الدكتوراه ؛

وكان كيلنج – صاحب الكتاب المعروف عن فلسفة ديكارت – هو أستاذنا في الكلية الجامعية هذه ، ولم أكن أرى فيه ما يملؤني إعجابا به ؛ فهو ذكي وملم بمادته إلمام القارىء الدارس ؛ أما نفاذ البصيرة ومسايرة الحركة الثقافية مسايرة تتفق مع منصبه الجامعي فلم أكن أرى فيه شيئا منه . لقد درس في السوربون بعد أن درس في انجلترا ، وهو متزوج من سيدة فرنسية ، وله لحية صغيرة يصبغها بالحناء أو ما يشبه الحناء مما لست أعرفه ؛ وقد دعاني ذات مساء على عشاء في منزله ، فوجدته مكدسا بالكتب ، والظاهر ألا ولد له ؛ وقد اعتذر لي عن تواضع مسكنه قائلا : إن بيتي الحق قائم في باريس حيث أقضي أطول وقت مستطاع ؛ وكان من الآراء التي تحمس لها ونحن في داره – وكان الحديث قد تطرق الى الأدب المسرحي – إن شكسبير لا يستحق هذه الضجة كلها ، فليس هو بالشاعر من الطراز الأول ، وأين هو في حقل البناء الشعري من راسين وكورنيْ ؟ ... قلت لنفسي ساعتئذ : ترى إلى أي حد تجيء آراء الناس انعكاسا لجنسية الزوجة ؟ ! .. إنه رجل عليل ضعيف البنية ، ذهب إلى باريس في إجازة الصيف عندما أردت تسجيل اسمي للدكتوراه ، وانتهت إجازة الصيف ، وبعدها انقضت شهور ، ولم يعد لمرضه هناك ؛ فأخذني القلق ، لأن مقامي في انجلترا – كما تعلم – محدود بظروفي ، فحولت إلى كلية الملك في جامعة لندن ، وأخذت في إعداد رسالتي على أستاذ من طراز آخر ، هو الاستاذ هالت المعروف بسيطرته على الدراسات الاسبينوزية سيطرة تامة ، حتى ليعد أهم مرجع له الكلمة الفصل في فلسفة اسبينوزا ؛ ولو أردت عبارة موجزة تصف هذا الرجل الطيب ،

قلت إنه شيخ أزهري لبس القبعة ! فهو في نوع دراسته « فقيه » ، وقد كان بيني وبينه منذ البداية حتى النهاية اختلاف في وجهة النظر ليس أعمق منه اختلاف بين رجلين ، ولهذا فهو يشدّد عليّ النكير في مناقشاته للفصول التي أقدمها إليه من رسالتي - وقد اخترت موضوعها « الجبر الذاتي » لأقيم البرهان الفلسفي على أن الانسان لا يسيّره في حياته إلا ذاته - وإن كسبي من مناقشاته الدقيقة لعظيم ، فأنا أحرص حرصا ليس بعده مزيد من حرص على أن تجيء ألفاظي وعباراتي دقيقة محددة المعنى ، حتى أواجه بها كل ما يقدمه إليّ من اعتراض ... ذكرت له ذات مرة رأيا لبرتراند رسل مقارنا إياه برأي له هو مما قد ورد في كتابه عن « الأزل » ، فغضب لأول مرة غضبة تدفقت حمرة في وجهه ، وقال وكأنه يعاتب : أتقرن عملي في الفلسفة بعمل رسل ؟ ان رسل يتقلب في الرأي مع لمعات عقله ، وأما نحن فأمامنا أسانيد تقيدنا ونصوص ... هكذا تراني قد تتلمذت هنا على غير أساتذتي ، فلم ألتق مع كيلنج في نزعته المثالية ، ولا سايرت هالِت في اتجاهه التقليدي ، ووجدت « هواي » مع رسل وآير اللذين سمعتهما في المدّرج الصغير بالكلية الجامعية ، أولهما يعرض تحليلا للمعرفة ، والثاني يدافع عن القول بأن الفكر هو اللغة ، ثم أكملت متابعتي لهما في مؤلفاتهما .

اني هنا أقضي اليوم بطوله في مكتبة الجامعة ، من الصباح إلى أن تغلق أبوابها ؛ أصعد إلى المطعم ساعة الغداء ، وساعة الشاى في العصر ، ثم أعود إلى مكاني من المكتبة لا أكاد أرفع بصرى عن كتبي وأوراقي ..

قال لي زميل انجليزي متبطا : كم ساعة تنفق من نهارك في هذه المكتبة ؟ قلت : لا أعدّها بالساعات ، ولكني أجيء هنا بعد إفطار الصباح وأخرج حين تحين ساعة العشاء ؛ قال : تذكر يا صديقي أن العبرة بما تستوعبه ، وقد تستوعب في ساعة ما لا تستوعبه في نهار كامل . فلم أجادله وعدت ببصري إلى كتبي وأوراقي .. وقابلني زميل هندي في منزل صديقة دعتنا يوما لتناول الشاي في دار أسرتها، ولم أكن قد رأيت هذا الهندي من قبل ، لكنه قال لي يومئذ : أظنك لا تدري أنك قد نغصت عليّ عيشي شهورا ؟ قلت : أنا ؟ كيف هذا ؟ قال : كنت كلما أخذني التعب والملل في المكتبة ، وأهمّ بالانصراف ، أنظر فأراك منكبا على أوراقك ، فأقول لنفسي : أيصمد هذا الرجل ولا تصمد أنت وهو أسنّ منك ؟ثم أعود فأجلس، وأقلّب الصفحات ، لكن بلا جدوى ، فألعنك وأمضي .

٤

لم أكن أعرف عن كاتب هذه الرسائل شيئا إلا القليل الذي تساقط في أحاديث الأحدب عن سميرة وأسرتها ؛ لكنني تبينت من الرسائل رجلا محكوما بعقله غير مدفوع بغرائزه ؛ كان الأحدب قد روى لي عنه أنه من الطراز اليائس المتشائم ، فلا هو موفق في حبه ، لأنه أحب امرأة هي زوجة وأم ، ولا هو موفق في عمله لأنه اشتغل بالتدريس فوجد طريق الحياة الناجحة مسدودا أمامه ، ولم أكن أهتم بمتابعة سيرته لولا أنها كانت تجيء متناثرة في حديثي مع الأحدب ؛ أما وقد قرأت هذا العدد القليل من رسائله ، فقد وجدتني أفكر فيه

وأحاول تصويره لنفسي ؛ نعم إن رسائله هذه أقرب إلى المناقشات العلمية التي لا تدل على طبيعة الشخصية من أعماقها ، إلا أني برغم ذلك أحسست أنه ذو طبيعة أقرب إلى طبيعتي ، فلو كان ليكون لي أخ شقيق لكان هو مصطفى كاتب هذه الرسائل ، إنه أقرب إليّ شبها من الأحدب ، فهو إن ثار فانما يثور بفكره وعقله ، وأما الأحدب حين يثور فهو يثور بانفعاله ووجدانه ؛ وتخيلت أن الذي يساكنني هو صاحب هذه الرسائل ، فتصورت حياتنا تسير في غير صدام — على خلاف مساكنتي للأحدب التي أوشكتْ ساعتئذ أن تبلغ نهايتها — فصاحب الرسائل يركن الى منطق عقله وأنا في العادة أميل إلى الأخذ بالتقليد الموروث ؛ فلئن كان موقفي هذا هو نقيض العقل لأنه محاكاة عمياء أو شبه عمياء ، إلا أن موضع الاتفاق بيني وبينه — فيما بدا لي من رسائله — هو أن كلينا يلتمس مرفأ يرسو إليه مطمئنا هادئا آمنا من الزوابع والأعاصير ، فكان مرفؤه منطق العقل وكان مرفئى هو موروث التقاليد ؛ وأما أخونا الأحدب فنزوات شعوره أعصى من أن يقيدها قيد .

لقد عرفت الآن معنى ما قاله لي الأحدب حين قال : « أنت أخلاق وقواعد ، ومصطفى عقل ومنطق ، وأنا عاطفة وانفعال ، فلماذا أعيش معكما في نسيج واحد ... ؟ » لكن ليقل الأحدب ما يشاء في سورة غضبه ؛ لقد قررت بيني وبين نفسي عندئذ ألا أبرح مسكني ، وألا أدع الأحدب يبرحه ؛ له — إذا شاء — أن يدخل صامتا ويخرج صامتا ، وله أن يخفي عني خفايا نفسه ، لكننا سنظل

معا تحت سقف واحد .

لماذا جاءني هذا العزم نتيجة لرسائل مصطفى ، مع أنه لا علاقة البتة بينها وبين ما اعتزمته ؟ .. لست أدري ؛ ولكن هكذا كان ؛ ورحت أتأمـــل بسيل من الخواطر السائبة هؤلاء الرجال الثلاثة : الأحدب ومصطفى ونفسي ، وأبتسم أحيانا لغرابة ما يطوف برأسي من تلك الخواطر ، وأعبس أحيانا أخرى .. فمن محض المصادفات أن بدأنا جميعا مدرسين ، ثم انشعبنا ، كأنها أرومة واحدة تفرعت غصونا ثلاثة : لبثتُ أنا على حالي أتطور في مهنة التعليم ومـا يلحق بهـا من وظائف صغري وكبرى حتى انتهيتُ إلى ما انتهيت إليـه من هـذا المنصب الذي هو من مناصب التعلـيم كقمة الهرم من سائر طبقاته ، فالقمة جزء من الهرم مهما تكن قد عَلَتْ عن بقيـة البناء ، وثار الأحدب وزميله مصطفى على مهنة التدريس فخرجا عليها ومنها لسبب متشابه في الحالتين ، وهو فعل المرأة في حياتيهما : أما الأحدب فقد ردَّتـه المخطوبة خائبا ، بسبب مهنته ، وأما مصطفى فقد أحبَّ حبا لا أمل فيه فأخذه القلق من حياته كلها ؛ وراح الأحدب مع عنفوان ثورته الوجدانية يصب غضبه فيما يكتب ، ويعيش على هـذا الغضب المكتوب بما يعود عليه منه ، والعائد منه جنيهات قليلة ، وأمـا مصطفى فقد شق لنفسه طريقا آخر مستقيما ممهدا ، أزال عنه فورة العاطفة وجيشان النفس القلقة ، وأقره على ركيزة راسخة .

وكذلك من محض المصادفات أن اتفقنا جميعا على الوقوع في حب

بلا رجاء ولا يخلو من مفارقات شاذة ؛ ولم أكن عندئذ أعلم مدى العنف الذي أحب به مصطفى الزوجة الأم التي أحبها ، لكنني شهدت الأحدب فيما يشبه هوس الجنون حين التقى بحبيبة صباه بعد ثلاثين عاما ، كانت قد أصبحت فيها أما وجدة ، كما كنت أعلم علم اليقين عن مدى عشقي المكتوم لامرأة توشك أن تكون من عالم آخر ناءٍ عن عالمي الذي أعيش فيه ، ثم هي فوق ذلك زوجة وأم ! ... ثلاثة رجال أضلتهم قلوبهم عن سواء السبيل ، كأنهم جميعا قد أسقطتهم سفينة الحياة في بحر لجيٍّ بغير ساحل ... ثلاثة رجال يسيرون على طريق الحياة في تعاقب من العمر ، ففي المقدمة أسير أنا مستضيئا بتقاليد الثقافة الموروثة ولكن على مضض ، لأن أوتارها تضرب النغم لغير الرقصة التي كنت أتمناها لنفسي ، لكنني أسير ؛ وبعدي يسير الأحدب متلعثم الخطى فليس له من هادٍ يهديه إلا فطرة الغريزة التي لا تعبأ بالأمن والعافية ، ووراءه يسير مصطفى وقد أخمد جذوة القلب بثلوج العقل واستراح ... ثلاثة رجال ظاهرهم اختلاف وأعماقهم اتفاق ، كأنهم ولدوا لأب واحد وأم واحدة .

وخبطتُ على ركبتي بكفي كأنني وقعتُ على ضالة مفقودة : ما أعجبها صحبة وما أغناها حياة بالحوادث لو عاد ثالثنا من انجلترا وعشنا نحن الثلاثة معا في بيت واحد ؟

الفصل التاسع

انفصام التوائم

١

ظننت أن هذه الأنفس الثلاثة يكمل بعضها بعضا في وحدة ملتئمة لو أقام أصحابها في منزل واحد ؛ فمنها نفسٌ أمّارةٌ هي نفس صاحبنا الأحدب الذي يوشك أن يكون كتلة من وجدان ثائر ، يندفع مع نزواته وأهوائه وميوله ورغباته اندفاعا يعميه عن كل ما عداها حتى ليظن أن ما عداها ضلال وظلم ، ولا يطيق العيش لحظة إذا ما اعترض مجرى حياته المتقلبة معترض ؛ ومنها نفسٌ لوّامة هي نفسي التي ما تنفك ناصحة لغيرها دون أن تكون لها العزيمة الماضية التي تأخذ بالنصح لنفسها ، فهي حكمة بلا عمل وفكر بلا إرادة وتخطيط بغير تنفيذ ، وعين بصيرة ويد قصيرة ؛ والثالثة نفسٌ مطمئنة رجعت بعد فترة من القلق — إلى زمام عقلها راضية ، فما حَكَمَ به العقل لها كان ، وما رفضه العقل لم يكن .

ظننت — بعد ساعة من تأمل فيما أوحت به إليّ رسائل مصطفى

إلى الأحدب – أن في أشخاصنا الثلاثة تتجسد تلك الأنفس الثلاثة وحسبت أن اجتماعنا في منزل واحد سيُنتج من المختلفات وحدة فذة فريدة : فـــاذا اندفع الأحدب بانفعاله الثائر ، ألجمتُه أنا بقواعدي البـــاردة ، وفي صحبتنا مصطفى بنفسه التي تخلصت من صراعها بالتفلسف فهدأت .

لكن الحوادث قد انساب مجراها على غير ما تمنيت لها ؛ وكانت أولى المفاجآت ذات شعبتين : أولها أن مـات مختـار – زوج سميرة ووالد مصطفى – بعد مرض قصير ، أقصر من أن يطول عنه الحديث بيني وبين الأحدب – وكان الأحدب قد خرج به عن صمتـه قليـلا ، فرأيته مدى يومين أو ثلاثة يخرج في سرعة الملهوف ويعود في اضطراب القلق ، واضطررت أن أستفسره النبأ فقالها كلمات مقتضبة مخطوفة بأن زوج سميرة قد وقع صريعا في مكان عمله ، ونقلوه إلى المستشفى في حـــالة تنذر بشرٍّ خاتمةٍ ، وابناه بعيدان : أحدهما وأكبرهما في طريق العودة من انجلترا إلى مصر ، وقد اختار طريقا مطولا لعودته ، والآخر في سيناء ؛ وقد استعانت سميرة بصديق الأسرة – الأحدب – فوقع عليه معظم العبء ... ترى هل كان ما يضمره الأحدب حزنا خالصا ، أم أخـــذ الحزن يخالطه شيء من الترقب لفرصة أمهلتها السنون الطوال ؟ أم يكون أوان الانتفاع بالفرصة السانحة قد فات ؟

مات مختار واضطربت حياة الأحدب اضطرابا حمله على أن ترك المنزل وعاد إلى مسكنه القديم ،ولست أدري ما علاقة الحادثة بالعودة

إلى غرفته المنعزلة فوق السطح ، لكن هكذا كان ، كأن الانطواء في المسكن ضرب من الانطواء في دخيـلة الذات يبحث في مكنونها عما عساه أن يهتدي به فيما يصنعه إزاء الموقف الجديد .

وكنت أضعف همة من أن أبحث لنفسي عن منزل صغـير أستقل به ، فقررت البقاء وحدي في المنزل المشترك ؛ وفتر نشاطي وانقطعت زيارتي لحلوان إلا على فترات متباعدة ، فظروفي لم تشجـــع صديقي فريدا على تبادل الزيارة ، والزيارة من طرف واحـــد مصيرها إلى الذبول ، وزاد شعوري بغرابة موقفي ممن أحبها ، ووجدت في الأمر معنى الاختلاس الفاضح ، فانصرفت إلى القراءة ، أقضي فيهـــا كل فراغي بعد عودتي من عملي ؛ غير أنها قراءة تعذّر فيها التركيز وقلّ الاستيعاب ، فتحولتْ معي إلى أمر عجيب ، هو أنني لا ألبث بعد بضـــع صفحات أن أركّز البصر في الصفحة المفتوحة أمامي ، ثم تنطمس الكلمات رويدا رويدا حتى تتحول في عيني إلى سحابة دكناء ، فأراني قد نفذت خلالها ضاربا ما حولي بجناحين كالطائر الكبير ، حتى إذا ما اجتزتها ألفيتني في عالم تخلقه لي أوهام الخيال خلقـــا سريعا مباشرا متجددا ، فقلما أعيش اليوم في عالم الأمس ، إلا حين أقع على صورة محبوكة الأطراف محققة لأهواء النفس ، فكنت أراهـا تكرر نفسها آنا بعد آن ...

هأنذا قد ضربتُ بجناحيّ واخترقت السحابة الدكناء ، فدخلت جزيرة لا إنس فيها ولا جنّ ، ترتفع على أرضهـا أشجـار الصنوبر ،

فأمشي خلالها هاهنا وهاهنا ، لأخرج منها إلى بحيرة على ضفتها الأخرى جبال مثلوجة القمم ، وعلى الضفة جذع شجرة ملقى يصلح أن يكون مقعدا ، فجلست مستدبرا غابة الصنوبر شاخصا ببصري إلى البحيرة وإلى الجبال البيضاء بثلوجها في الضفة المقابلة ، وإذا بعيني تقع فجأة على علبة من الصفيح فارغة تتأرجح بالقرب من قدميّ على موج الماء الواهن الفاتر ، فألتفتّ لفتة سريعة إلى اليمين حيث ظننت أن تكون العلبة الفارغة قد جاءت من هناك سابحة ، فاذا منزل خشبي صغير على مسافة قصيرة مني ، وقد رسا أمامه قارب صغير عليه مجدافان ، مال أحدهما حتى انغمس طرفه في الماء ؛ فأدهشُ دهشةً يمازجها ذهول ، وأخطو إلى هناك بطيء الخطى حذر اللفتات ، فما أكاد أدنو من المنزل الخشبي الصغير ، حتى تخرج منه إلى شرفته الصغيرة المواجهة للبحيرة امرأة في ملامحها شبه قريب من عفاف ، فأقف مسمّرا مكاني ، فتراني ، فتقبل إليّ طائرة في الفضاء لترتمي بين ذراعيّ كأنها الريشة خفة وكأنها القطن المندوف لينا وطراوة ، وتناديني باسمي ، وتأخذني إلى منزلها ، وأدخل وذراعي يطوقها في تردد الخائف ، فأنظر إلى الأثاث وقد اجتمع كله في غرفة واحدة ، يسوده كله اللون الأزرق السماويّ البديع ، وأقول :

— أأنت هنا وحدك ؟

— نعم وحدي ، مع من تريدني أن أكون ؟ إنني في انتظار هذه اللحظة منذ سنين .

– وكيف عرفت أني قادم إلى هنا ؟

– استمعْ إلى الرجل ماذا يقول !ألم نتواعد أن يكون هنا اللقاء؟

– نعم تواعدنا ، لقد أنساني الشيطان ما تواعدنا ، لكن الملائكة كانت رحيمة بي ، فهدتني إليك يا حبيبة قلبي ... لكنك قد كبرت في العمر هنا أسرع مما يكبر الناس فوق الأرض !

– لقد صغرتَ أنت هنا بما ليس للناس به عهد فوق الأرض ، وسواء كبرتُ أنا أم صغرتَ أنت ، فقد التأمتْ بيننا فجوة الزمن ، والتقينا قلبين في عمر واحد ، فالخلود لا يعرف تفاوت الأعمار .

وأعيش وحدي مع هذه المرأة ما استطعت أن أبقى في دنيا الخيال الواهم ،حتى تنفتح عيني اليقظانة على صفحة أمامي عليها حروف وكلمات.

وهأنذا يوما آخر قد ضربتُ بجناحيَّ خلال السحابة الدكناء ، فخرجت منها إلى بيت صغير من الطين وله قبة كقبة الضريح ، وعلى بعد البصر رمال وراءها رمال ومن خلفها رمال ؛ ويخرج لي من البيت زاهد في مسوح الرهبان ، أعجف متقوس الظهر مشعث الشعر حافي القدمين ؛ فيشخص اليّ بعينين وادعتين ، ووجه رحيم ، ويقول في تهتهة من سقطت أسنانه من فمه :

– أصومعةً تريد ؟

– نعم ، أتسكن هنا وحدك يا أبي ؟

– لا ، لست وحدي ؛ معي الله يملؤني ويحيط بي .

– ألى معك مكان أعتزل فيه ؟ .

– على الرحب يا ولدي ، وهنيئا لك الفرار من عالم محموم .

وأظل مع الراهب راهبا ، حتى تستيقظ عيني على صفحة أمامي فيها كلمات وحروف .

وهأنذا يوما ثالثا ضربتُ بجناحيَّ خلال السحابة الدكناء ، حتى مرقتُ منها على مدينة تكدست بأجساد البشر حتى ليتعذر على السائر أن يجد لقدميه موضعا ؛ فظللت أزاحم لأنفلت من هذه الكتلة البشرية ، قاصدا إلى فندق ضخم قدّرت ألا يعرف فيه أحد أحدا ؛ وبلغت الفندق فاذا هو بناء ناطح للسحب فعلا كأنه الجبل الشامخ ، وألوف الناس تتدفق من أبوابه الكثيرة داخلة خارجة ، ودخلت في زحام الداخلين وصعدت إلى الطابق المائة ، واستأجرت فيه غرفة لا تسمح لساكنها أن يطل من نوافذها ، فالنوافذ زجاج سميك مغلق لا ينفتح ؛ وهناك أحسست بأنني – برغم الزحام الشديد الذي يحيط بي – أنني وحدي ، وتنفست تنفس من انزاح عن صدره كابوس مخيف .

ولبثت هكذا أنعم بروح الهارب حتى استيقظت عيناي على صفحة أمامي فيها حروف وكلمات – تلك هي القراءة التي كنت أقرؤها بعد أن خلّفني الأحدب وحيدا ، أملأ الصباح بعمل مملول

يستطيعه الأبله ، وأفتح صفحات الكتب عصرا ومساء لأعجن أسطرها في سحابة سوداء أشقها إلى حيث أسبح فيما شاء لي الخيال الواهم أن أسبح فيه ... لقد التزمتُ قواعد التقليد في حياتي ، وأردت لسواي أن يلتزمها معي ، حتى ذهب اللباب وبقيت لي القواعد لا أعرف أين أطبقها ، كمن يراعي تفعيلات العروض بغير شعر يصبه في قوالبها ، وكمن يحافظ على شعائر الدين قياما وقعودا وصوما وإفطارا بغير عصارة العقيدة تملؤها وتسري في هياكلها ؛ لقد أخذت أغبط الأحدب على حرارة وجدانه وجموح مشاعره حتى ولو تدفقت كالسيل العرم بلا جسور تحدد له المجرى ؛ وكنت كلما رأيت كائنا من كائنات الطبيعة قارنته بنفسي المنسقة على خطوط القواعد ، فأجدني قد فقدت الحياة حين فقدت القدرة على شيء من الخروج على الصفوف المرتبة في قوالب من حديد ؛ أرى الشجرة فأجدها قد أرسلت فروعها وأنبتت أوراقها في غير تصفيف ولا تنسيق ، وأرى السحابة فاذا هي مهوشة الأطراف مرقعة الألوان في غير ترتيب ، وأنظر إلى قطرات المطر في حركاتها الهوج ، وإلى الريح في سيرها المتقلب ، وإلى البحر في موجه الحر وإلى الغابة في أشجارها اللفّاء ، وإلى كل شيء في الطبيعة فأرى فيه طبيعة الأحدب العارمة أكثر مما أرى فيه طبيعتي المستوية الملساء .

لكن قد فات أوان التعديل والتبديل ، فالحياة قد دخلت معي في شوطها الأخير ، فلأقبع في مكاني من هذا المنزل ، مكتفيا بسبحات الخيال من وراء الصفحات ... اللهم إلا زيارات آنا بعد آن للأحدب الذي ألفتُه إلف الحميم إلى حميمه ، فقد كان لا بد لي أن أتتبع

خطاه في هذه المرحلة من حياته ، وأن أسمع منه أبناء التوأم الثالث : الدكتور مصطفى عبد الباري .

٢

يقص مصطفى عن نفسه ساعة كان فوق السفينة يعبر القنال الانجليزي في أول طريقه عائدا إلى مصر ؛ فالبحر هائج مائج والسفينة تعلو وتهبط مقذوفا بها على رءوس الموج كأنها الكرة على أقدام اللاعبين المهرة الأشداء ؛ والراكبون يسقطون من دوار البحر صرعى ، ومصطفى واقف إلى جانب حاجز السفينة مرتديا معطف المطر يتقي بـه الرذاذ العنيف الذي يغمره ويغمر عشرات الصرعى إلى جواره ؛ واقف ينظر ناحية الشاطىء الانجليزي ، ويدس يديه في جيوبه ، فاذا في جيبه الأيمن ورقة ، يظل يسأل نفسه قبل أن يخرجها : ماذا يا ترى تكون هذه الورقة وهو لا يذكر أنه قد وضع ورقا في جيب هـذا المعطف ؛ ثم يخرجها ، فاذا هي قصاصة منزوعة كما اتفق من كراسة قديمة ، ومكتوب عليها بالانجليزية بخط رديء، خطته يد مسرعة، والمكتوب كلمتان : « أجبتك ولم أصرح » ، والكاتبة صاحبة البيت الذي كان يستأجر غرفة فيه ؛ لبث مصطفى ينظر إلى الورقة في يده ويبتسم ، والرذاذ العنيف يخبط وجهه وصدره ، وراح يلفّ في رأسه شريط ثلاثة أعوام لفًّا سريعا تتداخل به الصور بعضها في بعض ، لا يكاد يقف عند واحدة حتى تزول لتحل محلها واحدة ؛ ثم ازداد الأمر خلطا ومزجا حين راح يلف في رأسه – في الوقت نفسه – شريطا

آخر لفا سريعا كذلك تتلاحق فيه الصور واحدة في إثر واحـــدة ، تضع أمام عينيه مشاهد ومواقف مما كان قد مر بـه في مصر قبـل أن يغترب عنهـا للدراسة ، فكأنمـا كان الشريطان عندئـذ يتدافعان ويتسابقان ويتشابكان ، فصورة من هنا تستدعي صورة من هناك ... كل ذلـك والسفينة تتخبط فوق الموج الغاضب الصـاخب ، وصرعى الدوار يزدادون عددا ، والرذاذ الحاد يضرب وجهـه وصدره كأنـه قطع الزجاج :

هذه هي صورة الطالب الانجليزي « فلتشر » يلقاه في المحاضرات ويتصادقان ويتبادلان الرأي والنظر ، قـد كان في نحو عمره ، ويعـلم عنه أنه قد أمضى وقتا ضائعا حتى تنبهت شركة كان يعمل بهـا عمـلا يدويا مما تصلح له سائر الأيدي ، ويدرك صاحب الشركة أو مديرها أن الفتى موهوب في الفكر النظري ، فيقرر إرساله إلى جامعة لندن على نفقته ،غير مقيِّدٍ إياه بشرط العودة إلى شركته بعد إكمال الدرس، فماذا ينفع دارس الفلسفة شركة تعبىء الزجاجات بما لست أذكر من ضروب السائل ؛ ولم تكـد هـذه الصورة تعود إلى الذاكرة يغشاها الضباب الأصفر الداكن الذي يكتنف لندن في أوائل الشتاء ، حتى تندفع إلى صفحة الذاكرة صورة من ماضي الحياة في مصر : فحيث كان مصطفى مدرسا ناشئا جاءه غلام في صحبة أبيه ومعهما خطاب من صديق يوّصيه بالغلام خيرا لأنه موهوب ، ولكن أباه لا يملك من وجه الدنيا قرشا يدفعه أجرا لتعليمه ؛ ويسألهما عن ظروف الغلام فاذا هو في الشهادة الثانوية من أوائل خمسة ، لكن المدرسة الثانوية التي يريـد

الالتحاق بها - كأي مدرسة ثانوية أخرى في ذلك الحين - تطلب القسط الأول قبل الدخول ، برغم أنها على يقين من أن مجانية الطالب مكفولة له بحكم القانون ، فمن أين للوالد الفقير أن يدفع وهو خادم في مسجد رزقه الله هذا الولد النابغة ؟ فلا يدري مصطفى ماذا في وسعه أن يصنع سوى أن يدخل إلى ناظر المدرسة في مكتبه ويقص عليه النبأ : « ماذا لو قبلناه بغير مصروفات وخطاب المجانية آت من الوزارة في حينه ؟ » فيقول الناظر - وقد مسّ الموقف قلبه الطيب - « ومن ذا يدفع عني الاتهام إذا جاء من الوزارة مفتش فوجد طالبا لم يدفع أجر تعليمه قبل الدخول ؟ » .. وخرج مصطفى ليبلغ الوالد والولد ، فيبكي الوالد مرددا كلمة « يا خسارة ! يا خسارة » ويحتضنه الولد ويربت له على كتفيه : « لا عليك يا أبي ، لا عليك ، لا عليك يا أبي ، لا عليك » ومصطفى واقف على السلمة الأولى من مجموعة السلالم القليلة المؤدية إلى مكتب الناظر ، ينظر إلى الوالد والولد .... ..

وهذه صورة تتلاحق عن نعومة الصلات هناك بين كل إنسان وكل إنسان ، فهل شهد في أكثر من ثلاث سنوات شخصين يعتركان ؟ أبدا ابدا لم تقع عينه هناك على عراك ، كأنما هم صور تتحرك صامتة على صفحة مرآة ، لا تصطدم منها صورة بصورة : فالزوج والزوجة والبائع والشارى والجار والصديق والصديق وكل إنسان وكل إنسان يلتقيان في همس ويفترقان في صمت ... تأتيه هذه الصور حتى لكأنه يشهد سنما صامتة ، وفجأة يقتحم الشاشة الذهنية صورة من ماضيه في مصر ؛ فأسرته تسكن في شقة من منزل متواضع ، يعلوها مسكن

تنزل فيه زوجة وأبناء زوجها ، وأما الزوج فيشتغل في الصعيد ولا يحضر إلا حينا بعد حين ؛ وتحتها – في فناء البناء الأرضي عند المدخل – غرفة يسكنها صانع بليلة وزوجته ، يخرج الزوج بعربته وعليها إناء ضخم ملىء بالبليلة وتحته موقد النار والدخان المخلخل يتصاعد منه ، أقول إن الزوج يخرج بعربته تلك ليعود مع المساء ؛ وحدث ذات ليل بعد أن انتصف ، وهدأت الحركة في البيت والشارع ، وسكتت الأصوات إلا من دبيب المارة على فترات متباعدة ، أن انفجرت معركتان في آن واحد : إحداهما في الشقة العليا والأخرى في الغرفة السفلى ، فمن أعلى جاءت أصوات تشق هدأة الليل :

الشاب ابن الزوج : لا بد أن أقول لأبي متى تخرجين ومتى تعودين .

الزوجة : امش ! اخرج من بيتي .

الشابة ابنة الزوج مع أخيها في نفس واحد : هذا بيت أبي ، اخرجي أنت إلى حيث كنت .

الزوجه تنادي الخادمة : اخرجيها بالقوة يا مبروكة .

الشاب ابن الزوج : اخرسي وإلا قذفت بك من النافذة .

الزوجة : إما أنا وإما أنتما في هذا المنزل بعد الآن .

الشاب ابن الزوج : أين تبددين النقود التي يتركها لنا أبي ؟

الزوجة : اسم الله على أبيك ونقوده يا سعادة البك ! نقود أبيك لا

تكفيني لشراء الملح ...

وفي هذه اللحظة نفسها انفجرت القنبلة الثانية من أسفل ، وكانت أفدح خطرا ؛ فقد عاد بائع البليلة في هذه الساعة المتاخرة من الليل مخمورا لا يعي شيئا ولا يستطيع النهوض بجسده ، فرافقه زميل له في الخمر يتساندان ،حتى أوصله الزميل إلى منزله، وخرجت إليها الزوجة القلقة هابّة من غرفتها زاعقة في الصديق قائلة كيف كان زوجها كالملائكة يذهب إلى عمله ويعود إلى بيته ، حتى عرف طائفة الأبالسة التي ترافقه هذه الأيام ، ثم راحت تدعو الله :

الزوجة : إلهي وأنت جاهي وجاه « الولايا » يا رب ، تنتقم منهم لقاء ما أفسدوا من زوجي .

الصديق المخمور : هو ذا زوجك بين يديك ، دُقّيه واصنعى منه « كفتة » ! هأ هأ هأ (وانصرف) .

الزوج المخمور بعد فترة مليئة بأصوات حركة غير مفهومة للساكن في أعلى : تشتمين أصحابي ، تشتمين أصحابي ؟

فتصرخ الزوجة مستغيثة لأن زوجها السكران يهاجمها بالسكين ليبقر بطنها جزاء ما اقترفته من شتم صديقه ، وأطلت الزوجة المعتركة مع أبناء زوجها ، أطلت من نافذة « المنور » لتقول للزوجة المنكوبة إنها آتية لنجدتها ؛ ويمضي الزوج السكران في سؤاله الاستفكاري : تشتمين أصحابي ؟ تشتمين أصحابي . ؟ ! واستيقظ السكان جميعا في

عاصفة من أصوات فازعة ، وحركة أقدام على السلم مسرعة في هبوطها لتنقذ الزوجة من براثن زوجها المخمور .

ويكر شريط الصور في رأس مصطفى وهو على سفينته، من هناك صورة ومن هنا صورة ؛ هذا هو الوزير الانجليزي نويل بيكر يقف في الصف وفي يده فنجانه ينتظر دوره ليملأه بالشاي ، وأمامه رجل يرتدي رداء سعاة الدواوين ، فلا الوزير يفكر في التقدم قبل دوره ولا الخدم من أمامه يفكرون في التنازل له عن مواضعهم ، فالساعة ساعة الاستراحة له ولهم بين جلسات جمعية الأمم التي عقدت أولى جلساتها في لندن ؛ وهذا هو الوزير المصري الذي ذهب إلى لندن رئيسا لوفد مصري في مفاوضات كانت تخص القضية الفلسطينية قبل أن تحل النكبة الكبرى بفلسطين ، ويعجب الوزير لزملائه يوم افتتاح المؤتمر – على مسمع من مصطفى – أن رأي مستر بفن وزير خارجية بريطانيا عندئذ ورئيس وفدها في ذلك المؤتمر ، رآه يجيء ماشيا على قدميه إلى مكان المؤتمر ، في يده حقيبة أوراقه ، كأنه وكيل لإحدى شركات التأمين . . .

وهنا يعض مصطفى على شفته بأسنانه عضة من اعتزم أمرا ، وألقى بالورقة من يده إلى موج البحر الصاخب ، فما تزال السفينة تنقذف بين الموج الثائر من قمة إلى وهدة فإلى قمة من جديد ، والرذاذ يلطم وجه مصطفى وصدره كأنه الرصاص ، وصرعى الدوار من حوله صفر الوجوه كأنهم الموتى في وباء كاسح .. لقد اعتزم الدكتور

مصطفى عبد الباري ألا ينزل لأحد بعد اليوم قيد شعرة عن كرامته الفردية ؛ لقد أحسّ بفرديته عندئذ قد انتفخت ، وصمم على أن يقف بها عند عودته كما يقف الجبل الأشم ضد رءوس الناطحين .

عاد الدكتور مصطفى عبد الباري ليسمع بموت أبيه ، وليجد الاستاذ رياض عطا على صلة وثيقة بالأسرة يخدمها في محنتها حتى تستقر لها أمور حياتها بعد فقد عائلها ؛ فأنتجت هذه الصلة القريبة بين مصطفى ورياض ، شيئا من التقارب المؤقت ، بعد أن كان رياض قد قطع رسائله منذ شهور عن مصطفى ، معتزما أن يلوذ منه كما لاذ من الاستاذ حسام الدين بعزلة تنقذ له وجدانه الثائر من برودة العقل التي استولت على الأول ومن جمود التقليد الذي يقيد الثاني ؛ ولعل ما أحدث هذا التقارب المؤقت بينهما لم تكن محنة الوفاة وحدها ، بل ربما أضيف إلى ذلك رغبة جامحة في صدر الأحدب أن يظل لصيق الأسرة ليقترب من سميرته بقدر المستطاع ، ولم يكن ذلك ليتحقق له بعد عودة الابن الأكبر مصطفى إلا إذا اشتدت الآصرة بينهما ولو إلى حين ، وفضلا عن هذا وذاك فقد وجد الرجلان أنهما على اتفاق في نقطة أساسية ، وهي أن تُرَدّ للانسان كرامته في بلاد ضاعت فيها كرامة الانسان إلا أن يثور في سبيلها الثائرون بالفكر والقلم أولا وبالفعل والانقلاب ثانيا ، وراح كلاهما يكتب في الصحيفة الأدبية التي كان الأحدب أحد محرريها .

لكن الأحدب مضى يكتب بوجدانه أدبا ، على حين أخذ الدكتور

مصطفى يكتب بعقله فلسفة ، وإن يكن أدب الأول وفلسفة الثاني قد التقيا عند الهدف المشترك ، وهو التشديد على قيمة الفرد من حيث هو كذلك ، بحيث لا يجوز غمسه ولا طمسه من أجل شيء سواه ؛ ولم يمض عامان بعد عودة مصطفى حتى استطاع أن يبلور لنفسه وللناس وجهة نظر فلسفية تجعل الفرد مدارها ؛ وراح يخرج الكتاب بعد الكتاب يهاجم بها كل فكر من شأنه أن يغض النظر عن الأفراد ؛ ويكتب مقالات يصيح بها في الناس « الأفراد ! الأفراد ! »

وبينما هو والأحدب يعزفان بما يكتبان نشيدا ذا نغمتين: الأحدب يناشد القلوب ونبضها ، ومصطفى يخاطب العقول ومنطقها ، ليصلا — كل من طريقه — إلى توكيد حقائق الأفراد ؛ إذا بهزة تأتي إلى الفيلسوف فتخرجه من العزوبة لتدخله في دنيا الأزواج، فتنقطع الصلة بينه وبين الأحدب إلى الأبد : رسائل تأتي من قارئة مجهولة ، ثم تنقطع ثم تأتي ، فيأس مصطفى للرسائل ، ويود لو كشف عما وراءها، فيكتب مخاطبا هذه المجهولة كتابة تفضح ضعفه — وقد ظن أنه قد بات عقلا خالصا — إذ يقول لها : « اكتبي إليّ » فما أنا إلا مخلوق ضعيف ، يفرح بالرسائل تأتيه ، فرحة الأطفال بالحلوى ؛ اكتبي إليّ ألف مرة ، وارفعي الضواغط عن سن القلم ؛ خففي بعض الشيء عن الضوابط واللُّجُم والشكائم التي تكبحين بها القلم إذ تكتبين ، لعله ينساب انسيابا ، فيمتزج بانسيابه قلب بقلب وروح بروح ؛ اكتبي إليّ ، فإني أقرأ الرسالة وأطويها ، ثم أقرؤها ثانية وأطويها ، ثم أحفظها في مكتبي ، لأعود إليها بعد أيام أو بعد ساعات ... وقد

عدت إلى رسالتك لأقرأها مرة أخرى وأطويها ، حين أحسست في القلب خفقة غامضة تناديني ؛ لكني لم أكد أمسها بأصابعي ، حتى وسوس لي العقل بالتأنيب ، الذي ما انفك يوسوس لي به كلما نزت مني نزوات قلبي ... هكذا همس لي العقل عندما عدت إلى رسالتك أقرؤها ، فارتعشت أصابعي ، وبردت دمائي ، وتندى جبيني بقطرات باردة ، لأني رأيتني عندئذ تافها سخيفا ، قد أفلت زمام عقلي من يدي ، وأسلمت نفسي لما يشبه ترهات الشباب ، فأعدت الرسالة مكانها ، ليرضى العقل عني ، وعرفت بعدئذ كيف أُسكِتُ القلب وأصرفه عن سخافات الصغار .. ثم ما هو إلا أن أعود فأسأل نفسي مستنكرا : لماذا أُنصِتُ للعقل في نزوات الفؤاد ؟ ... لا ، عودي بربك فاكتبي إليّ ، فان كان وضع الهوى في موضع العقل عيبا ، فكذاك وضع العقل في موضع الهوى » .

وما إن أرسل إلى المجهولة هذه الرسالة على صفحات المجلة ، حتى كشفت المجهولة عن نفسها ، فاذا هي التي تصبح زوجة تضم الزوج إليها بالجناحين معا : فقلبٌ عطوف هنا وعقلٌ راجح هناك ؛ وبذلك تعلّمه أن القلب الخالص والعقل المطمئن قد يجتمعان في عش واحد .

وبدأ الزوجان حياتها المستقرة محوطيّن بصحبة كان أولى لها أن تعيش بثقافتها الرفيعة في أثينا على عهد بركليز .

٣

الأستاذ حسام الدين محمود غارق في أوهامه وأحلامه ينسج لنفسه

من خيوطها بيوتا يعيش فيها كما يشاء ويتمنى ، ولا يظهر إلا حينا بعيدا بعد حين بعيد ؛ والدكتور مصطفى عبد الباري يلتحق بهيئة التدريس الجامعية ، وينقطع لبحوثه العلمية ، مجتمعا كل أسبوع بصحبته يدير معهم المناقشة حول ثقافات الدنيا شرقها وغربها ماضيها وحاضرها ، وانفرد الأحدب في حيــاة خاصة ذات شعبتين : الأدب والحب ؛ ولم يكن قد مر به وقت في حياته الماضية كلها انفسح فيه الأمل أمامــه بمثل ما انفسح أمامه عندئذ — أو هكذا ظن ... أمــــا الأدب فقد أسندت إليه رئاسة تحرير المجلة التي كان يكتب فيها ، وطفق يكتب في غير تحفظ افتتاحية المجلة كل أسبوع ، لا يراجع عليه أحــــد ، ولا يخشى أن تبتر مقالته هنا أو أن تبدّل كلماتها هنــاك ، فكانت فرصة سانحة أن يدعو إلى ما أراد الدعوة اليه من مقاومة للظلم ومن مناصرة لكل مظلوم ، يدعو إلى قيم جديدة تصلح لحياة جديدة ؛ وأما الحب فهاهوذا الطريق قد خلا أمامه إلى سميرة ، ولم يبق الا أن يمضي عام بعد وفاة زوجها حتى لا تنطلق الألسنة بالنقد ، ولم يكن يحسب في هذا إلا حساب ابنيْها لأنهما قد يعارضان ، لكنه كان يلحظ انصراف الابنين بحياتيهما الخاصة عن أمهما ، حتى لم يعد أمامها إلا رياض يقضي لها شئونها ، والناس في هذه الحالة يفضلون أن يتم زواج الأرمــلة ممن يعينها على أن يدخل المعين بيتها بغير زواج .

اطمأنت نفس الأحدب حينــا على هــــذا الوهم ، وجعل يكتب ويكتب ، لكن العين الناقدة لم يكن ليخفي عليها القلق الذي يساوره فهو آنا يكتب معــــبرا أصدق التعبير كذلك عن ضخامته وارتفاع

شأنه ؛ فأيها كان في عين نفسه ؟ إنه كان الصورتين معـا في اللحظات المختلفة ، والأمر في أى الصورتين يجري بها قلمه مرهون بأي الجانبين من نفسه يوجه إليه النظر ، فاذا نظر إلى نفسه من داخـــل تبدت له ضخمة فيها من النفاسة ما يضمن لها أن تعيش مكتفية بذاتها مستقلة عن سائر الناس ، وإذن فهي نفس تساوي العالم أجمع ؛ واذا نظر إلى نفسه من خارج ليراها واحدة من مجموعة أنفس تحيط بها في المجتمع الذي يعيش فيه ، رآها خفيفة الوزن في أعين الناس قليلة الشأن في اعتبارهم ، فيحدث له القلق ويصيبه التمزق بين ما يظنه في نفسه وما يظنه الناس فيه ؛ فهو مرة يكتب عن نفسه أنهـــا تشبه قطعة النقود ذات المليمين قد دست نفسها بين الريالات ، راجية أن تكتسب قيمتها من وضعهـا فتعـد ريالا من الريالات ، مـع أن ذلك محـــال ؛ أو يقول عن نفسة إنها كالبرتقالة الرخيصة ، يحبها الناس لجمال لونها ولذة طعمها وعطر أريجها ، لكنهم إذا ما حان وقت التقويم بالمال قوموها بالملاليم في الوقت الذي لا يترددون فيه أن يدفعوا القروش الكثيرة في التفاحة برغم ما يصيبها من عطب ودود ؛ لكنه أحيانا أخرى يعود فينتشل نفسه المهيضة في أعين الناس ، ليضعها في مكانها الذي يراه هو لها ، فيجعلها كأنها هي من الأنفس الرائدة ؛ ولعله أراد أن يلفت إليه أنظار القراء بعنف هجماته على مواضعات الحياة الفاسدة من الأسرة إلى الدولة ، ومن سلطة الوالد والزوج إلى سلطة الحاكم ، فجـــاوز باسرافه في الهجوم حدود المقبول عند أولى الأمر ، حتى صدر الأمر بإغلاق المجلة ، وبين أربعاء وخميس — الأربعاء الذي تظهر فيه المجلة من كل أسبوع ، والخميس الذى صدر فيه الامر بإغلاقها — وجـــد

الأحدب نفسه طريدا .

وبقي له في هذه الدنيا العريضة ملاذ واحد ، هو سميرة ، فليجمع شتات نفسه ويذهب لها — فيما يذهب لها مرارا — ذات صباح ليعرض الزواج الذي عساه أن يجمع قلبين تفرقا أكثر من ثلاثين عاما ؛ ولم يكن — منذ مات مختار — يشك لحظة في أن الأمر أمر عام يمضي ، وأما القلبان فعلى اتفاق صامت ...

وجلس على المقعد الذى اعتاد أن يجلس عليه كلما زارها ،وجلست حيث اعتادت أن تجلس ؛ ودنا بمقعده قليلا ، وسعل سعلة خفيفة هي سعلة المرتبك ، ثم قال :

— سميرة ! منذ اليوم نضم الشمل الذى تفرق .

قالت : ماذا تعني ؟

قال : نتزوج .

قالت : نتزوج ؟ ! ماذا أصابك من خبل ؟ أنسيت أني أم وجدّة ؟ !

وبعد صمت قليل استاذن وانصرف

ومرت أسابيع لا يدرى أحد عنه شيئا ، حتى عنّ لحسام ذات مساء أن يقصد إلى المكان الهادىء القديم خارج المدينة ، وهناك وجد الأحدب كما وجده في أول مساء لقيه فيه ، ورأى ظهره قد ازداد تحدُّباً وتقوُّسا ، كما ازداد وجهه جهامة وعبوسا ؛ فسأله في ذهول :

– ماذا دهاك يا رياض ؟

– هو عبء الحياة ، فالحياة – كما حدثتك ذات يوم – عبئها ثقيل على من أصابه في الحياة خذلان .



الفهرس



المطبعة العالمية ـ شارع مونو ـ بيروت